T o

عالي سرحان القرشي

المبالغة في البلاغة العربية

تاريخها وصورها

مطبوعات نادي الطائف الأدبي

عالي بن سرحان ال

المبالغة في البلاغة العربية

تاريخها وصورها

مطبوعات نادي الطائف الأدبي

الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى تعبّدنا بقرآنه المجيد الذى (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيم حميد).

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وبعد:

فإنّ البحثَ في بلاغةِ الكلمة بحثٌ جليل، يستمد جلالَه من جلال الكلمة التي بها كوّن الكون، وخلق الإنسان، ونزل الوحي، والتي منّ الله علينا ـ معشر المسلمين ـ بأن تعبّدنا بها في قرآنه المجيد، الذى تحدى به أفصح العرب وأبلغهم، فأذعنوا لبلاغته، وأقروا بها، وصدقوا بكلماته، وعملوا بمقتضاها، فسادوا الأمم، وصدعوا بنداء الحق في الأرض.

ولقد تنوعت الأبحاث التي تتناول بلاغة الكلمة، وحاول النقاد والبلاغيون أن يضعوا المسميات والمصطلحات التي يدرسون من خلالها بلاغة الكلمة، وكان من بين هذه المصطلحات مصطلح «المبالغة» الذى اخترته موضوعا لهذه الرسالة، وهذا المصطلح ليس تسمية للون بلاغي فقط كسائر مصطلحات البلاغة من استعارة، وكناية، وتشبيه، واطناب، وقصر، وطباق، وجناس.. الخ ولكنه يحمل في ذاته حكما على الكلمة يتبادر من اطلاقه الحكم على الكلمة بتجاوز الحقيقة، والإفراط والإسراف والادعاء، والكذب، ولقد شاع هذا «المصطلح» في تراثنا البلاغي، والنقدى شيوعا طاف به في معظم أساليب الكلام العربي، وأطلق أيضاً على بعض أساليب القرآن الكريم. وكان شيوعه، وحمله لذلك الحكم في ذاته مدعاة لتباين

مواقف النقاد والبلاغيين قديما والدارسين حديثا حول ما تسمى بهذا الاسم، ذلك التباين الذى لا يناقش — غالبا — ما بنى عليه ذلك الحكم الذى يحمله هل يصح أو لا ؟

ولهذا كانت مراجعة هذا «المصطلح» أمرا جديرا بالأهمية، يستمد أهميته من جلال الأساليب التي أطلق عليها هذا «المصطلح» وحكم به عليها، ومن خطورة اتصاف هذه الأساليب بما اقترن به من تزيد، وتجوز، وادعاء، وكذب، فإذا استطعنا أن ننفك به عما اقترن به من اتهام للكلمة ومصادرة لها، فإننا نبقي على صحة إطلاق مصطلح بلاغي وجد في تراثنا النقدي والبلاغي، لا يضير قرآننا الكريم وتراثنا العربي، ويبقي البحث فيه بعد ذلك متجها عما إذا كان لهذا «المصطلح» قيمة في تقدير بلاغة الكلمة!

وإذا لم ينفك عما اقترن به، فلا ضير علينا من أن نلغيه من مصطلحاتنا البلاغية وذلك لأن قرآننا الكريم، وتراثنا الأصيل أولى بكثير من تراثنا النقدى والبلاغي، ولبحث ذلك كان عليّ أن أتناول مدلول كلمة «المبالغة» في اللغة قبل أن تكون مصطلحا بلاغيا تتصارع حوله الآراء، ثم تتبع تطور هذا المصطلح وما اقترن به عبر رحلته في تراثنا النقدى والبلاغي من مصطلحات ومفاهيم، وسيكون هذا هو موضوع الباب الأول من هذا البحث حيث سأتتبع فيه مدلول المبالغة في اللغة ثم أتناول مدلولها في التآليف العربية سواء أكانت نحوية أم لغوية، أم نقدية، أم بلاغية ولن أغفل أيضا تلك الدراسات التي تناولت إعجاز القرآن الكريم، وتفسيره، وسأقسم هذا الباب بعد التمهيد إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول ويتناول:

المبالغة وتطور مصطلحاتها حتى نهاية القرن الرابع الهجرى.

الفصل الثاني ويتناول:

المبالغة وتطور مصطلحاتها عند علماء القرن الخامس الهجرى.

الفصل الثالث ويتناول:

المبالغة وتطور مصطلحاتها عند علماء البلاغة المتأخرين.

والذى دعا إلى هذا التقسيم هو: تسهيل الدراسة، والمتابعة بوضع حلقات يقف الدارس والقارئ عندها، حيث جعلت نهاية القرن الرابع حدا للفصل الأول، وذلك لأن هذه الفترة تمثل بداية نمو البلاغة العربية عبر الحركة النقدية والتي شهدت في أواخر القرن الرابع نشاطا ملحوظا يدعوني أن أتتبع نمو «مصطلح المبالغة» هنا وهناك في وقفة فيها كثير من الاستقصاء والتأمل، ذلك الأمر الذى سأكتفي فيه في الفترة الثانية التي تمثل موضوع الفصل الثاني بتتبع «المبالغة» عند الأعلام في مختلف الاتجاهات.

وأما فترة الفصل الأخير من هذا الباب فهي تمثل فترة انحدار البلاغة وجمودها، وسيتناولها البحث عند السكاكي ومن تابعوه في مزج البلاغة بالمنطق والفلسفة، وعند ضياء الدين بن الأثير الذى عاصر السكاكي وحذا حذو القدماء، وعند الإمام العلوى الذى عاصر الخطيب، وحاول أن ينهج منهجا يختلف عن منهج السكاكي، وستكون الطريقة في كل هذا هي تتبع تسمية هذا المصطلح، ومعرفة الأساليب التي أدخلت تحته، ودرجات المبالغة وماذا يقصد بها؟ وهل تقف عند بلوغ النهاية في المعنى؟ أو تتجاوز ذلك إلى الإسراف والكذب والإدعاء.

وأما الباب الثاني من هذا البحث فسيتناول (أساليب المبالغة في البلاغة العربية) حيث سأدرس فيه الأساليب التي أخضع تراثنا البلاغي والنقدى رقابها للمبالغة.

حيث سأبين في كل أسلوب، كيف أدخله البلاغيون والنقاد تحت المبالغة، ومدى صحة هذا الصنيع، وهل يصح أولا؟ وسأعرض لبعض أمثلة هذه الأساليب التي حكم عليها بالمبالغة بالتحليل والدراسة، لنعرف أى الاتجاهين أكثر ثراء للنص: هل هو ذلك الاتجاه الذى يخضعها للمبالغة، أو ذلك الاتجاه الذى يدرس تلك الأساليب في سياقها الخاص من خلال

وجودها اللغوى، وسأقسم دراسة هذه الأساليب على أبواب البلاغة العربية

في ثلاثة فصول :

الفصل الأول :

أساليب المبالغة في علم البيان .

وسأعرض فيه للمبالغة في كل من التشبيه، والاستعارة، والكناية .

الفصل الثانى :

أساليب المبالغة في علم المعاني .

وسأعرض فيه للمبالغة في كل من صور الإطناب، والقصر .

الفصل الثالث :

أساليب المبالغة في علم البديع .

وسأعرض فيه للمبالغة، والغلو كباب من أبواب البديع، وسأعرض لها أيضا في حسن التعليل، وتجاهل العارف، وتأكيد المدح بما يشبه الذم .

وأما الباب الأخير من هذا البحث فسيتناول «مكانة المبالغة في البلاغة العربية» حيث سأتناولها في فصلين :

الفصل الأول :

شيوع التعليل بالمبالغة وأسبابه .

حيث سأحاول فيه استنتاج الأسباب التي أدت إلى شيوع التعليل بالمبالغة في تراثنا النقدى والبلاغي .

الفصل الثاني :

المبالغة بين القبول والرفض .

وسأحاول فيه تفسير المواقف المختلفة والمتباينة من المبالغة .

وإني لأحمد الله العزيز الذى أمدني بتوفيقه وعونه إلى أن أسير في خطوات هذا البحث حتى استوى على سوقه، تاركا تقدير معاناته لمن نظر

فيه وقدره.

وأتوجه بالشكر إلى كل من قدم لي عونا، ومشورة في إخراج هذا البحث وأخص بالشكر أستاذي الجليل الدكتور علي العماري الذي فتح لي صدره، وحاور أفكاري ونقّحها، وشجّع فيّ روح البحث والاستقلال في الرأي، وسهر على قراءة هذا البحث ومدارسته، فوهب لي وقتا يفوق الوقت المخصص لي بكثير، فجزاه الله عني خير الجزاء، ووهبه الصحة والعافية وأعانه على كلمة الحق.

كما أتوجه بالشكر الجزيل والامتنان العظيم إلى كل مسئول ومشرف على الهيئات التالية:

* وزارة المعارف التي أتاحت لي هذه الفرصة فابتعثتني دارسا.
* جامعة أم القرى بمكة المكرمة.
* كلية الشريعة والدراسات الإسلامية التي قبلتني دارسا بها قبل تأسيس كلية اللغة العربية.
* كلية اللغة العربية التي خرج هذا البحث في رحابها.
* قسم الدراسات العليا العربية.
* إدارة الدراسات العليا بهذه الجامعة الفتية

وآخر دعوانا أن (الحمدُ لله ربّ العالمين).

٩ جمادى الثانية عام ١٤٠٢هـ

عالى سرحان عمر القرشي

الباب الأول

التطور التاريخي لفكرة المبالغة ومصطلحاتها

تمهيـــــد : المعنى اللغوى للمبالغة

الفصل الأول:

استعمال المبالغة وتطور مصطلحاتها حتى نهاية القرن الرابع الهجرى .

الفصل الثاني:

المبالغة ومصطلحاتها عند علماء القرن الخامس الهجرى .

الفصل الثالث:

المبالغة عند المتأخرين .

تمهيد

المعنى اللغوى للمبالغة :

قبل أن أمضي قدما، في تتبع حركة هذا المصطلح عبر تراثنا النقدى والبلاغي رأيت من الضرورى أن أتبين دلالة هذا المسمى اللغوية، حتى نكون بعد ذلك على بيّنة بمدى قرب أوبعد هذا المصطلح من دلالته اللغوية عبر هذه الرحلة.

وليكون ذلك أيضا نبراسا نستضيء به في فهم هذا المصطلح، ويكشف لنا ما أصابه من انحراف عن مفهومه اللغوى، يؤدى إلى الخلط والاضطراب.

فأبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى المتوفى سنة ٣٧٠هـ. يقول :

«قال الليث : والمبالغة أن تبلغ من العمل جهدك» (١).

وقال ابن سيده «وتبالغ الدّباغ في الجلد : انتهى فيه عن أبي حنيفة... والمبالغة أن تبلغ من الأمر جهدك» (٢). فهي هنا دلالة على بذل أقصى الغاية من الطاقة والجهد.

وعلى هذا جاء قول ابن منظور :

«بالغ يبالغ مبالغة وبلاغا إذا اجتهد في الأمر. والمبالغة أن تبلغ في الأمر جهدك» (٣).

ولأجل هذه الدلالة صح أن تطلق وصفا لمن يبذل أقصى الغاية من

جهده وطاقته في الامر. يقول الفيروز ابادى :

(١) تهذيب اللغة : بلغ جـ ٨/١٣٩

(٢) المحكم والمحيط الأعظم في اللغة : بلغ جـ ٢/٣١٥

(٣) لسان العرب : بلغ

« وفي الحديث كل رافعة رفعت علينا من البَلاَغ ، أى ما بلغ من القرآن والسنن أو المعنى من ذوى البلاغ أى التبليغ ، أقام الاسم مقام المصدر، ويروى بالكسر أى من المبالغين في التبليغ . من بالغ مبالغة وبلاغا إذا اجتهد في الأمر »(١).

وعلى هذا ، فالمبالغة ومادتها مؤشر نهاية في الأمر ليس بعده من مزيد.

وعليه قول الزمخشرى :

« وتبالغ فيه المرض والهمّ إذا تناهي »(٢).

وقول ابن سيده :

« وتبلّغ به مرضه : اشتد »(٣).

وقول صاحب القاموس :

« وتبلّغ بكذا اكتفى به ، والمنزل تكلّف إليه المبلغ حتى بلغ ، وبه العلة اشتدت ، وبالغ في أمرى لم يقصر »(٤)

ولقد جنى المؤشر النهائي لهذه الكلمة على هذا المصطلح اذ إن موقعها مظنة الشك في أن تزيد هذه الغاية التي يشير إليها عن حدها ، فتنقلب إلى ضدها فتوسم بالكذب ، والتجاوز ، والإفراط . تلك السماتُ التي لم أرفي المعاجم التي عالجت هذه المادة دلالة على وسمها بها إلا في جهة من الجهات التي يمكن أن يفسر بها قول الفيروز ابادى « وثناء أبلغ : مبالغ فيه » .

وذلك إذا أخذ هذا القول وفسر بمنأى عن جميع أقواله في هذه المادة ، وهو الأمر الذى لا يدعو إليه التحرى والإنصاف .

ومن هنا يمكن ان نفسر ونفهم احتراز ابن قتيبة ، من ان هذا المسمى يراد به الكذب وذلك حيث يقول :

---

(١) القاموس المحيط : بلغ (٢) اساس البلاغة : بلغ

(٣) المحكم : بلغ جـ ٥/٣١٥ (٤) القاموس المحيط : بلغ

«تقول العرب إذا أرادت تعظيم مهلك رجل ، عظيم الشأن ، رفيع المكان ، عام النفع ، كثير الصنائع ، أظلمت الشمس له ، وكسف القمر لفقده ، وبكته الريح ، والبرق ، والسماء ، والأرض ، يريدون المبالغة في وصف المصيبة به وأنها قد شملت وعمّت ، وليس ذلك بكذب لأنهم جميعا متواطئون عليه ، والسامع له يعرف مذهب القائل فيه»([1]).

(١) تأويل مشكل القرآن: ١٦٧، ١٦٨

الفصل الأول

استعمال المبالغة وتطور مصطلحاتها حتى نهاية القرن الرابع الهجرى

بداية التسمية بلفظ « المبالغة »:

إن أول نصوص تحمل فكرة المبالغة في الفكر العربي وتسميها صراحة نجدها عند النحاة الأوائل وبالتحديد عند الخليل بن أحمد الفراهيدى المتوفى سنة ١٧٠ هـ. عندما حدد لتلميذه سيبويه الفرق بين خَشُن واخشوشن وقد حكي ذلك سيبويه بقوله: « قالوا خشن، وقالوا اخشوشن وسألت الخليل فقال: كأنهم أرادوا المبالغة والتوكيد، كما أنه إذا قال اعشوشبت الأرض فإنما يريد أن يجعل ذلك كثيرا عاما قد بالغ » (١).

ففكرة المبالغة هنا تدل على زيادة في المعنى لزيادة الحروف، فالزيادة في معنى أى اشتقاق عن النواة الأولى لذلك الاشتقاق هي التي سماها الخليل المبالغة.

فالمبالغة تطلق على تكثير المعنى. والفكرة نفسها طبقها سيبويه في صيغ المبالغة وذلك حيث يقول: « وأجروا اسم الفاعل، إذا أرادوا أن يبالغوا في الأمر مجراه، إذا كان على بناء فاعل لأنه يريد به ما أراد بفاعل من إيقاع

الفعل، إلا أنه يريد أن يحدث عن المبالغة »(١). وعلى هذا تكون المبالغة في اللفظة المفردة فكرة أصيلة في اللغة احتفلت بها ودلت عليها بألفاظها، تلك الألفاظ التي تتشكل من النواة الأولى بالاشتقاق لتحمل فكر الإنسان العربي في معرفته للأشياء ومقارنة بعضها ببعض.

---

(١) الكتاب: ٤/ ٧٥ (٢) الكتاب: ١/ ١١٠

وانتقلت هذه الفكرة التي تطلق على تكثير المعنى من اللفظة المفردة إلى التراكيب، وقد كان ابن قتيبة — فيما نعلم — أول مطلق لهذا المصطلح على إرادة تكثير المعنى في التراكيب، إذ ورد ذلك المصطلح في ثلاثة مواضع من كتابه (تأويل مشكل القرآن)

يقول في أولها معلقا على قوله تعالى:

« فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ » (١).

(تقول العرب: أظلمت الشمس له، وكسف القمر لفقده، وبكته الريح والبرق، والسماء والأرض، يريدون المبالغة في وصف المصيبة به، وأنها قد شملت وعمّت، وليس ذلك بكذب لأنهم جميعا متواطئون عليه، والسامع له يعرف مذهب القائل فيه.

وهكذا يفعلون في كل ما أرادوا أن يعظموه، ويستقصوا صفته)(٢).

ثم أورد لذلك عددا من الأمثلة من القرآن الكريم، والشعر العربي، وأمثال العرب وكناياتهم — أصبح أكثرها فيما بعد أمثلة للمبالغة على اختلاف درجاتها كما سيظهر ذلك من خلال هذا الباب — ومنها قوله تعالى:

« وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ »(٣).

وقوله جلّ وعز:

« وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ »(٤).

وقوله تعالى:

«وبلغت القلوب الحناجر» (٥)

(١) سورة الدخان: ٢٩
(٢) تأويل مشكل القرآن: ١٦٧، ١٦٨
(٣) سورة القلم: ٥١
(٤) سورة إبراهيم: ٤٦
(٥) سورة الأحزاب: ١٠.

وقول الشاعر:

الشمس طالعة ليست بكاسفة　　تبكي عليك نجومَ الليل والقمرا (١)

وقول الأعشي:

رجعت لما دمت مستحسرا　　ترى للكواكب ظهرا وبيصا (٢)

وقول النابغة في وصف سيوف:

تقدّ السلوقي المضاعف نسجه　　وتوقد بالصفاح نار الحباحب (٣)

وقول النمر بن تولب في صفة سيف:

تظلّ تحفر عنه إن ضربت به　　بعد الذراعين والساقين والهادى (٤)

وقول مهلهل:

ولولا الريح أسمع أهل حجر　　صليل البَيْض تقرع بالذكور (٥)

وقول قيس بن الخطيم يصف طعنة:

ملكت بها كفّي فأنهرت فتقها　　يرى قائم من دونها ما وراءها

وقوله أيضا:

لو أنك تلقي حنظلا فوق بيضنا　　تدحرج عن ذى سامه المتقارب (٦)

وقول عنترة:

وأنا المنيةُ في المواطن كلها　　والطعنُ مني سابقُ الآجال

---

(١) أراد: الشمس طالعة تبكي عليه، وليست مع طلوعها كاسفة النجوم والقمر، لأنها مظلمة (تأويل مشكل القرآن: ١٦٨).

(٢) وبيصا: بريق.

(٣) السلوقي: الدرع المنسوبة إلى سلوق. قرية باليمن. والصفاح: الحجر العريض وقال

ابوحنيفه: نار حباحب ونار ابي الحباحب: الشرر الذي يسقط من الزناد.

(٤) الهادى: العنق قال في اللسان (الهادية والهادى العنق لأنها تتقدم على البدن ولأنها تهدى الجسد).

(٥) الذكور: السيوف التي عملت من حديد غير انيث (الأمالي ٢/ ١٣٤).

(٦) يقول: تراص القوم في القتال حتى لو أن ملقيا ألقى على بيضهم حنظلا لجرى عليها كما يجرى على الأرض ولم يسقط لشدة تراصفهم. و«عن» بمعنى «على» وذوسامه: بيضة المذهب. والسّام: عروق الذهب (تأويل مشكل القرآن: ١٧٤، ١٧٥).

وقول بشار:

إذا ما غضبنا غضبةً مضريةً هتكنا حجاب الشمس أوقطرت دما

وقول ابن مياده:

ولو أن قيسا قيس عيلان أقسمت على الشمس لم تطلع عليك حجابها

وقول الطرماح:

ولو أن حرقُوصاً على ظهر قملة يكرّ على صفي تميم لولت(١)

ثم قال: (والعرب تقول: «له الطّمُّ والرِّمُّ» إذا أرادوا تكثير ماله.

والطّمُّ: البحر، والرِّمُّ: الثّرى: وهذا لا يملكه إلا الله تعالى.

ويقولون: «فلان دون نائله العيّوق» ويقولون: «له الضِّحُّ والريحُ» يريدون ما طلعت عليه الشمس، وجرت عليه الريح.

ويقولون: «فلان يثير الكلاب عن مرابضها»(٢).

وقال الشاعر:

تركوا جارهم يأكله ضَبُعُ الوادى، ويرميه الشجر

ثم عقّب على ذلك بقوله: (وهذا كله على المبالغة في الوصف، وينوون في جميعه يكاد يفعل، وكلهم يعلم المراد به)(٣)

وقد أشار ابن قتيبة إلى أن بعض أهل اللغة يسمى مثل هذا بالإفراط وتجاوز المقدار فقال: (وكان بعض أهل اللغة يأخذ على الشعراء أشياء من هذا الفن، وينسبها فيه إلى الإفراط وتجاوز المقدار، وما أرى ذلك إلا جائزا حسنا على ما بيناه من مذاهبهم)(٤) وهذا يدل على أن ابن قتيبة يعتبر

المبالغة درجة دون الإفراط وتجاوز المقدار.

(١) قال محقق تأويل مشكل القرآن: (الحرقوص: دويبة: أكبر من البرغوث وعضها أشد من عضه كما قال الجاحظ في الحيوان ٦/٤٥٤).
(٢) يريدون انه لشرهه ولؤمه يثيرها عن مواضعها، يطلب تحتها شيئا فاضلا من طعمها ليأكله وهذا مالا يفعله بشر (تأويل مشكل القرآن: ١٧٨).
(٣) المصدر السابق: ١٧٨.
(٤) المصدر السابق: ١٧٢، ١٧٣ وهناك تناقض بين قوله هذا وحكمه على بعض هذه الأبيات التى أوردها هنا بالكذب في الشعر والشعراء، وسنبين ذلك مستقبلا إن شاء الله.

وأما الموضع الثالث الذى أورد فيه ذكر المبالغة، فقد اعتبرها فيه غرضا من أغراض المقلوب، الذى عرف فيما بعد بالأضداد، حيث عد من أغراضه التطير، والتفاؤل في نحو السليم، والمبالغة في الوصف في نحو قولهم للشمس: «جونة» لشدة ضوئها. وللغراب: «أعور» لحدة بصره.

والاستهزاء في نحو قولهم للحبشي: أبو البيضاء، وللأبيض: أبو الجون[1].

المبالغة في نقد الجاهلية وصدر الإسلام:

وإن كانت المبالغة لم تتخذ هذا الاسم دليلا عليها إلا عند ابن قتيبة فإنها كانت معروفة بل مطلوبة في كثير من الأحيان عند متذوقي الشعر ونقدته في الجاهلية وصدر الإسلام والسبب في ذلك أن العربي يحرص في وصفه للشيء على المثال ويصر عليه. ويرى تقصير الشاعر عن بلوغ المثال قدحا في شاعرية الشاعر. فعندما أنشد حسان بن ثابت النابغة الذبياني قصيدته التي منها قوله:

لنا الجفنات الغرُّ يلمعن بالضحى وأسيافُنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا ابن العنقاء وابني محرق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

قال له النابغة: «أنت شاعر ولكنك أقللت طعانك وأسيافك، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك»[2] وما ذلك إلا لأن حسان قصر في الفخر عن بلوغ المثال ولم يبالغ في تكثير عدد السيوف والجفان، وعندما قال

امرؤ القيس في وصف فرسه :

فللسوط ألهوب وللساق درة   وللزجر منه وقع أخرج مهذب(٣)

فاستعان عليه بهذه الأشياء ، وجدت امرأته المبغضة له في قصوره عن المثال والمبالغة في وصف فرسه مجالا لتفضيل علقمة الفحل عليه في قوله (٤) :

(١) تأويل مشكل القرآن : ١٨٥   (٢) الموشح : ٨٢ .

(٣) الأخرج : ذكر النعام ، مهذب : من الإهذاب وهو الاسراع في الطيران والعدو

(٤) انظر الموشح : ٢٨—٣٠ .

فأدركهن ثانيا من عنانه   يمرّ كمر الرائح المتحلّب(١)

وعلى هدي سنة التذوق هذه سار الكثيرون بعد النابغة . إذ عرضت امرأة لكثيّر فقالت له : أنت القائل :

فما روضة بالحزنِ طيبةُ الثرى   يمجُّ الندى جثجاثَها وعرارُها
بأطيب من أردان عزة موهنا   إذا أوقدت بالمندل الرطب نارها(٢)

فقال لها : نعم ، فقالت له : فضّ الله فاك ! أرأيت لو أن ميمونة الزنجية بخرت بمندل رطب أما كانت تطيب ؟ ألا قلت كما قال سيدك امرؤ القيس :

ألم ترأني كلما جئت طارقا   وجدت بها طيبا وإن لم تطيّب(٣)

ولم يحد عبد الملك بن مروان عن هذه السنة عندما قال لكثيّر حين أنشده :

على ابن أبي العاصِ دِلاصٌ حصينة   أجاد المسدّى سردَها وأذالها
يؤود ضعيف القوم حملَ قتيرِها   ويستضلع القرمُ الأشمُّ احتمالَها(٤)

قول الأعشى لقيس بن معدى كرب أحب إليّ من قولك إذ تقول . وفي رواية : ألا قلت كما قال الأعشى (٥):

وإذا تجيء كتيبة ملمومة   خرساء يخشى الذائدون نهالَها

كتب المعلم غير لابس جنه   بالسيف تضرب معلما أبطالها(٦)

(١) الرائح : السحاب . المتحلب : المتساقط المتتابع .

(٢) قال المبرد : الجثجاث : ريحانة طيبة الريح برية . والعرار : البهار البرى وهو حسن الصفرة طيب الريح . والمندل : العود . وقوله : موهنا : يقول بعد هدء من الليل (انظر الموشح : ٢٣٩)

(٣) انظر الموشح : ٢٣٩ ــ ٢٤٣ حيث أورد هذا الخبر بطرق مختلفة وقد ورد في بعضها أن اسمها : قطام .

(٤) الدلاص من الدروع : اللينة الملساء . أذالها : أطال ذيلها . القتير : رءوس المسامير في الدرع ، ويراد بها الدروع أيضا . يستضلع : يستثقل .

(٥) الموشح : ٢٣٠ ، ٢٣١ .   (٦) النهال : العطاشى كأنها ظامئة إلى شرب الدماء .

وهذه السنة هي التي أوجدت لعزة مجالا للتدلل على كثير بعدم رضائها إلا ببلوغ الغاية القصوى في وصف وجده بها فلقد دخلت عليه يوما متنكرة فقالت : أنشدني أشد بيت قلته في حبّ عزة فقال قلت لها :

وَجِدتُ بها وجد المضل قلوصَه   بمكة والركبان غادٍ ورائحُ

فقالت : لم تصنع شيئا . قد يجد هذا ناقة يركبها . فأطرق ثم قال :

وَجِدتُ بها ما لم يجد ذو حرارة   يمارس جمّات الركي النوازح(١)

ثم قالت له : لم تصنع شيئا : يجد هذا من يسقيه فأطرق ثم قال :

وجدت بها ما لم تجد أم واحد   بواحدها تطوى عليه الصفائح

فضحكت ثم قالت : إن كان ولا بد فهذا(٢) .

وهذا التقليد الذوقي الذى يطلب المبالغة هو الذى جعل عمر بن أبى ربيعة يغار من الأحوص عندما أنشده قوله في عبلة :

كأني من هواك أخو فراش   تجلجل نفسه بين التراقي
حلفت لك الغداه فصدقيني   برب البيت والسبع الطباق
لأنت إلى الفؤاد أشدُّ حبًّا   من الصادى إلى الكأس الدهاق

فيقول له حَنِقا : ماتركت لي شيئا ، ولقد أغرقت في شعرك ، قال : كيف أغرقت في شعري وأنت تقول :

إذا خدرت رجلي أبوحُ بذكرها ليذهب عن رجلي الخدور فيذهبُ

ولكنّ عمر لا يقنع بهذا الجواب ، ولا يرى أن في إغراقه إغراقا يكافئ إغراق الأحوص فيقول : الخدور يذهب والعطش لا يذهب (٣).

---

(١) الجمة : الماء نفسه (اللسان) . الركبة . البئر .

(٢) الموشح : ٢٣٦ ، ٢٣٧ .   (٣) الموشح : ٣٦١ ، ٣٦٢ .

وأما قول عمر بن الخطاب عن سر إعجابه بشعر زهير بأنه كان لا يعاظل بين الكلام ولا يتتبع حوشيه ولا يمدح الرجل إلا بما في الرجال (١).

ففيه تركيز النظر على المثال في صفات الرجال ليمدح بها الممدوح ، وإذا قيس المثال بمقدار تحققه في الواقع كان المثال مبالغة ، ومن هنا نستطيع أن نقولَ إن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه بقوله هذا يجرى على سنن الذوق الأدبي الذى كان سائدا حينذاك في تحبيذ المبالغة وطلبها .

وهذا التفسير لا يناقض رواية أخرى لهذا القول وردت بقوله رضي الله عنه : « ولا يمدح الرجل إلا بما فيه » وذلك لأن المبالغة التي يطلبها عمر على الرواية الأولى لا تناقض الصدق الذى يلح عليه عمر على الرواية الثانية وذلك لأن عمر الخبير بالشعر يعرف مقياس الصدق وحدوده في الشعر .

والمبالغة التي كانت مطلوبة ومعروفة في العصر الجاهلي وصدر الإسلام لم تتخذ اسما يدل عليها إلا على لسان الشاعر عمر بن أبي ربيعة عندما قال للأحوص « ولقد أغرقت في شعرك » (٢) إذ وصف استقصاء الأحوص في شدة تعلقه بعبلة إغراقا ولكن هذه التسمية لم تلق من يأخذ بها لتشيع وصفا للاستقصاء وبلوغ الغاية التي يطلبها متذوقو الشعر والنقاد آنذاك إلا بعد وقت طويل من إطلاقها .

(١) نقد الشعر: ٩٥، الموازنة: ١/ ٢٩٣

(٢) الموشح: ٣٦١.

المبالغة في التآليف النقدية والبلاغية

١ ـ المبالغة في بدايات التأليف النقدى والبلاغي:

لقد كانت اللفظة المفردة أسعد حالا في اتخاذ اسم يدل على المبالغة فيها في وقت مبكر نسبيا عنه في المبالغة في التراكيب على يد الخليل وسيبويه. وذلك لأن المبالغة في التراكيب ظلت غفلا من اسم يدل عليها حتى وجدنا التسمية لها في بدايات التأليف النقدى والبلاغي وأول ما نجد ذلك عند الجاحظ المتوفي سنة ٢٥٥ هـ. فدل عليها بالإفراط. ولكن ما هو مفهوم الإفراط عنده ؟؟

لقد قال الجاحظ: «وإذ قد ذكرنا شيئا من الشعر في صفة الضرب والطعن فقد ينبغي أن نذكر بعض ما يشاكل هذا الباب من إسراف من أسرف فأما من أفرط فقول مهلهل (١):

ولولا الريح أسمع من بحجر صليل البَيْض تقرع بالذكور(٢)

فالإفراط كما نرى هنا ليس استقصاء للمعنى أو بلوغ غاية فيه فحسب بل يتجاوز ذلك إلى الإسراف الأمر الذى سوّغ للجاحظ أن يضع الشعر الذى وسمه بالإفراط مقابل الشعر المقتصد الذى وصف قائليه بالصدق حيث يقول:

«ومن أشعار المقتصدين في الشعر أنشدني قطرب:

سركت الركاب لأربابها فأجهدت نفسي على ابن الصعق
جعلت يديَّ وشاحا له وبعض الفوارس لا يعتنق

(١) سبق أن أوردنا البيت ضمن أمثلة ابن قتيبة هكذا: ولولا الريح أسمع أهل حجر...... تأويل مشكل القرآن (١٧٤).

(٢) الحيوان: ٦/٤١٨.

ومن صدق عن نفسه عمرو بن الإطنابة حيث يقول:

وإقدامي على المكروه نفسي وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تُحمدى أو تستريحي(١)

ثم دل عليها ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ بالمبالغة كما سبق أن أشرنا إلى ذلك، ولكنها التسمية التي تحتجب حينا عند معاصرى ابن قتيبة ومن جاءوا بعده حتى عصر قدامة بن جعفر،فقد كان المبرد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ يدل عليها بالتجاوز، فهو يعلق على قول قيس بن معاذ:

فلو أن ما أبقيت مني معلق بعود ثُمام ما تأود عودُها

بقوله: «وهذا متجاوز كقول القائل: ويمنعها من أن تطير زمامُها، وأحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذا شبه، وأحسن منه ما أصاب به الحقيقة...» (٢).

وبالإفراط وذلك حين يقسم التشبيه إلى أربعة أضرب هي: التشبيه

المفرط، والتشبيه المصيب، والتشبيه البعيد الذى يحتاج إلى التفسير ولا يقوم بنفسه وهو أخشن الكلام (٣).

ولكن المبرد إن لم يأخذ باسم المبالغة في الدلالة على التراكيب التي جاءت بها فلقد أخذ بهذا الاسم للدلالة على الزيادة في معني اللفظة المفردة وذلك عند زيادة الهاء على بعض أوزان مفعال. وذلك حيث يقول في تعليق على قول أم عمران ترثيه:

(١) الحيوان: ٦/٤٢٥ قال في اللسان: جشأت نفسه: ارتفعت فنهضت إليه، وجاشت من حزن أوفزع، وجشأت: ثارت للقيء وقال عقب انشاد هذا البيت: يريد تطلعت ونهضت جزعاً وكراهة.

(٢) الكامل: ١/١٧٣ (٣) نفس المصدر: ٢/١٠١

الله أيد عمرانا وطهره وكان عمران يدعو الله في السحر
يدعوه سرا وإعلاناً ليرزقه شهادة بيدى ملحادة غدر

«قولها: بيدى ملحادة: مفعال من الإلحاد كما تقول رجل معطاء ومحسان ومكرام وأدخلت الهاء للمبالغة كما تدخل في راوية وعلامة ونسّابة» (١)

وحتى أحمد بن يحيى المعروف بثعلب المتوفى سنة ٢٩١ هـ والشاعر الأمير عبدالله بن المعتز المتوفيِ سنة ٢٩٦ هـ لم يأخذا بمصطلح المبالغة الذى أخذ به ابن قتيبة في الدلالة على التعظيم، واستقصاء الصفة، وبلوغ نهاية المعنى. إذ دل ثعلب على المبالغة بنهاية الوصف في قوله:

«نهاية وصف الخلق قول زهير في هرم:

يطعنهمُ ما ارتموا حتى إذا اطعنوا ضارب حتى إذا ما ضاربوا اعتنقا

وقوله:

على مكثريهم حقٌ من يعتريهم وعند المقلين السماحةُ والبذلُ

وقوله:

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم   قوم باحسابهم او مجدهم قعدوا

وقوله :

من تلق منهم تقل لاقيتُ سيدَهم   مثلَ النجوم التي يسري بها السَّاري (٢)

وأيضاً فإنه بالإمكان أن نفهم من قول ثعلب :

«والتشبيه الخارج عن التعدي والتقصير كقول امرئ القيس :

كأن دماءَ الهادياتِ بنحرِهِ   عُصارةُ حنَّاءٍ بشيب مرجّل» (٣)

أن التعدى يعني المبالغة .

---

(١) المصدر السابق : ٢/٢١٦، ٢١٧   (٢) قواعد الشعر : ٣٧ .

(٣) المصدر السابق : ٣١ والهاديات : جمع هادية وهن الأوائل والمتقدمات في السير من سرب الوحش .

وأما التسمية التي أخذها ممن سبقه ورأيناها عند الجاحظ وعند المبرد فهي الإفراط الذى يرتبط عنده بالإغراق إذ سماها «الإفراط في الإغراق»

ومعروف أن الإغراق مصطلح من مصطلحات المبالغة الذى عرف عند المتأخرين للدلالة على أقصى درجاتها في التجاوز والبعد كما سنرى ذلك ان شاء الله عند بحث المبالغة عند المتأخرين . ولكن الشواهد التي جاء بها للدلالة على الإفراط في الإغراق لا تنطبق على جميعها دلالة الإغراق عند المتأخرين ، اذ هو عندهم مستعمل للدلالة على ما امتنع عادة لا عقلا (١) .

وذلك حيث أورد ضمن شواهد الإفراط في الإغراق قول قيس بن الخطيم :

وإني لدى الحرب العُوانِ موكلٌ   بإقدام نفس ما أريد بقاءها

وقول الحطيئة يمدح ابن شماس :

متى تأتهِ تعشو إلى ضوءِ نارهِ   تجد خيرَ نارٍ عندها خيرَ موقدِ (٢)

مما يدل على أن ثعلباً لم يقصد بالإغراق هذه الدلالة الاصطلاحية له عند المتأخرين وإنما قصد به دلالته اللغوية في بلوغ الغاية والاستيعاب

ومجاوزة الحد إذ أنه يقال: «أغرق النبل وغرّقه بلغ به غاية المد في القوس، وأغرق النازع في القوس أى استوفى مدها .... وأغرق في الشيء جاو الحد» (٣).

وهو أيضاً القصد الذى قصده عمر بن أبي ربيعة في محاورته للأحوص المتقدمة ومصطلح الإفراط الذى ربطه ثعلب بالإغراق شاركه فيه ابن المعتز إذ دل على المبالغة بالافراط في الصفة، حيث عدّها من جملة محاسن الكلام والشعر(٤).

(١) الإيضاح: ٢٠٧.

(٢) قواعد الشعر: ٤١، ٤٢. عشاه: قصده ليلاً، وعشا إلى النار إذا استدل عليها ببصر ضعيف.

(٣) لسان العرب: غرق (٤) البديع: ٥٩، ٦٥

أما ابن طباطبا محمد بن أحمد العلوى المتوفى سنة ٣٢٢هـ فقد استخدم هذين الاسمين، الإغراق والإفراط للدلالة على المبالغة فقال ممتدحاً القدماء: «.... ومع هذا فإن من كان قبلنا في الجاهلية الجهلاء، وفي صدر الإسلام من الشعراء، كانوا يؤسسون أشعارهم في المعاني التي ركبوها على القصد للصدق فيها مديحا وهجاء وافتخارا ووصفا، وترغيبا وترهيبا إلا ما قد احتمل الكذب فيه في حكم الشعر: من الإغراق في الوصف والإفراط في التشبيه وكان يجرى مايوردونه منه مجرى القصص الحق، والمخاطبات بالصدق ...» (١).

وقال واصفا بعض الأبيات التي وصفت بالمبالغة: «فأما الأبيات التي أغرق قائلوها في معانيها فكقول النابغة الجعدى:

بلغنا السماء نجدة وتكرُّما وإنا لنرجو فوقَ ذلك مظهرا

وكقول الطرماح:

لو كان يخفى على الرحمن خافيةٌ من خلقه خفيت عنه بنو أسد

قـــومٌ أقـــام بـــدار الـــذُّل أولُـــهـــم   كما أقامت عـلـيـه جـذمةُ الوتد..»(٢)

وهو يقصد بالإغراق ما قصده به ثعلب حيث جعله مرادفا للإفراط ومعادلا له.

وقد استخدم ابن طباطبا التشبيه البعيد، والمجاز المباعد للحقيقة للدلالة على الإفراط وتجاوز الحد في المعنى(٣).

٢ ــ عند قدامة بن جعفر:

ولكن التسمية بالمبالغة التي كانت تبرز في استحياء عند القدماء استطاعت أن تكشف القناع عن وجهها وتحجب غيرها من المصطلحات

(١) عيار الشعر: ٩   (٢) المصدر السابق: ٤٦

(٣) انظر المصدر السابق: ٨٩، ٩٠، ١١٨، ١٢٠.

النافقة عند القدماء كالإفراط... والتجاوز... والتشبيه المفرط... منذ أن تعرض لها وأطال القول فيها قدامة بن جعفر في كتابه نقد الشعر، وشدة الظهور هذه بعد الاستحياء الطويل هي التي جعلت ابن أبي الأصبع المصرى المتوفى سنة ٦٥٤هـ يتوهم أن تسمية المبالغة هى تسمية قدامة حيث يقول في كتابه: (بديع القرآن) عن الإفراط في الصفة: «وهذه تسمية ابن المعتز وسماه قدامة: المبالغة، وسماه من بعدهما التبليغ، والناس على تسمية قدامة»(١).

وقد ذكر ذلك أيضا في كتابه (تحرير التحبير) حيث يقول عن الإفراط في الصفة:

«وهو الذى سماه قدامة المبالغة وسماه من بعده التبليغ وأكثر الناس على تسمية قدامة لأنها أخف وأعرف»(٢).

وقد نقل هذا عنه أيضا ابن حجة الحموى المتوفي سنة ٨٣٧ هـ حيث

يقول: «وتسمية المبالغة منسوبة إلى قدامة ومنهم من سمى هذا النوع التبليغ، وسماه ابن المعتز الإفراط في الصفة وهذه التسمية طابقت المسمى ولكن أكثر الناس رغبوا في تسمية قدامة لخفتها»(٣).

ولعله من خلال تتبعنا لهذه التسمية يتضح لنا وهم نسبتها إلى قدامة حيث رأيناها على لسان الخليل وسيبويه في الدلالة على زيادة المعنى في الكلمة المفردة، وعلى لسان المبرد في سبب زيادة الهاء في بعض أوزان مفعال، وعلى لسان ابن قتيبة في ثلاثة مواضع من كتابه تأويل مشكل القرآن في الدلالة على التعظيم واستقصاء الصفة وبلوغ الغاية في المعنى.

وقول ابن أبي الأصبع: «والناس على تسمية قدامة» يبين لنا مدى مزاحمة هذه التسمية لما عداها من التسميات الأخرى.

(١) بديع القرآن: ٥٥ (٢) تحرير التحبير: ١٤٧

(٣) خزانة الأدب: ٣٣٥

وأما قوله: «وسماه من بعده التبليغ» فليس إلا تسجيلاً لهذه التسمية التي أخذ بها بعض المتأخرين للدلالة على درجة من درجات المبالغة فقط وإلا فان المبالغة هي التسمية التي سادت واتخذت من الغلو والتبليغ والإغراق درجات لها كما سنرى ذلك قريبا إن شاء الله.

وأما مفهوم المبالغة عند قدامة بن جعفر فلربما أمكن فهمه بعد طول تأمل في أقواله. وذلك لأن المصطلحات ربما لم تكن واضحة عنده وضوحها عند المتأخرين أوربما لم يرد بالمبالغة ما أراده بها المتأخرون من جعلها اسماً عاماً يندرج تحته الغلو والتبليغ والإغراق فهو يقول: «ومن أنكر على مهلهل والنمر وأبي نواس قولهم المتقدم ذكره — يعني قول مهلهل:

فلولا الريحُ أُسمع من بحجر صليلَ البيضِ تقرعُ بالذكور

وقول النمر بن تولب:

أبقى الحوادثُ والأيامُ من نمرٍ أشباه سيف قديم أثره بادي

تـظـل تحفـر عنـه إن ضربـت بـه   بَعـدَ الـذراعين والـساقين والهادى

وقول أبي نواس :

وأخـفـت أهـل الـشرك حـتـى إنـه   لـتـخـافـك الـنـطـف الـتـي لم تخلق

فـهـو مخطئ لأنهم وغيرهم ممن ذهـب إلى الـغـلـو إنما أرادوا بـه المبالغة »(١). فالمبالغة كما يفهم من هذا القول ليست تسمية للغلو الذى ورد في هذه الأبيات.

ثم فسر بعد ذلك الغلو الذى جعل هدفه المبالغة بأنه ما يخرج عن الموجود ويدخل في المعدوم وعلل وجوده بإرادة المثل وبلوغ النهاية في النعت حيث يقول: « والغلو بما يخرج عن الموجود ويدخل في باب المعدوم فإنما يريد به المثل وبلوغ النهاية في النعت » (٢).

(١) نقد الشعر: ٩٤   (٢) المصدر السابق: ٩٤

ثم يوضح رأيه في الغلو بعد ذلك مباشرة فيقول :

وهذا أحسن من المذهب الآخر فإن قول النابغة في معنى قول النمر بن تولب على مذهب الاقتصار ولزوم الحد الأوسط :

وقـد أبقـت صروف الـدهر مـنـى   كما أبـقـت مـن الـسـيـف اليـماني

دون قول النمر، وأتى دليلا قويا على أن ما بقى منه أكثر مما بقي من النابغة(١)

واسم الاشارة في قوله هذا يعود إلى الغلو الذى صرح بذكره بأنه أجود من الاقتصار على الأمر الأوسط في قوله: « والغلو عندى أجود المذهبين » .

ومما يدل على أن المبالغة تختلط بالغلو عند قدامة بن جعفر قوله في تعليقه على موقف عبد الملك مع كثيّر الذى أوردناه سابقا « والذى عندى

في ذلك أن عبدالملك أصح نظرا من كثيّر. إلا أن يكون كثيّر غلط واعتذر بما يعتقد خلافه، لأنه قذ تقدم من قولنا في المبالغة أحسن من الاقتصار على الأمر الوسط بما فيه كفاية، والأعشى بالغ في وصف الشجاعة....»(٢).
والذى تقدم من قوله هو أن الغلو أحسن من الاقتصار على الأمر الأوسط كما يتضح من خلال ما أورد من أقواله.

فهو يسمى في تعليقه هذا الغلو بالمبالغة لأن الذى تقدم في أقواله هو الغلو. ومن كل هذا يتضح أن القول بأن الغلو عند قدامة غير المبالغة فيه كثير من التسرع وممن قال بذلك الدكتور بدوى طبانة حيث يقول:

«والغلو عند قدامة وبعض البلاغيين والنقاد غير المبالغة»(٣).

(١) المصدر السابق: ٩٤.
(٢) المصدر السابق: ١٠٠ وقد أوردنا هذه القصة عند حديثنا عن المبالغة في نقد الجاهلية وصدر الإسلام.
(٣) قدامة بن جعفر والنقد الأدبي: ٢٧٣

والذى قاد إلى ذلك هو إيراد قدامة فصلا خاصا عن المبالغة حدّها فيه بحد يوهم أنه يريد بها شيئا آخر غير الغلو الذى قدم به الحديث بين يدى حديثه عن المعاني التي يدل عليها الشعر إذ حدّها بقوله «وهي أن يذكر الشاعر حالا من الأحوال في شعر لووقف عليها لأجزأ ذلك في الغرض الذى قصده، فلا يقف حتى يزيد في معنى ما ذكره من تلك الحال ما يكون أبلغ في ما قصده»(١).

ولكن تطبيق هذا الحد على المبالغة يخرج منها ما يدل على المبالغة ابتداء إذ أن قدامة في حده هذا يبين أنها تأتي تتمة أوتكملة بعد ذكر الشاعر الحال المجزية في المعنى. ولهذا لا يدخل ما حمل المبالغة ابتداء في هذا الحد، وهذا يتضح من خلال الأمثلة التي مثل بها لمفهوم هذا الحد حيث يقول:
وذلك مثل قول عمير بن الأيهم التغلبي:

ونُكرمُ جارَنا ما دام فينا ونتبعُه الكرامةَ حيثُ سارا (٢)

فإكرامهم للجار ما كان فيهم من الأخلاق الجميلة الموصوفة واتباعهم الكرامة حيث كان من المبالغة في الجميل.

ومثل ذلك قول الحكم الخضرى:

وأقبحُ من قردٍ وأبخلُ بالقرى من الكلبِ أمسى وهو غرثانُ أعجفُ (٣)

فقد كان يجزى في الذم أن يكون هذا المهجو أبخل من الكلب، ومن المبالغة في هجائه قوله «وهو غرثان أعجف».

ومن هذا الجنس لدريد بن الصمة:

متى ما تدعُ قومَك ادعُ قومى فيأتي من بني جشم فئام

(١) نقد الشعر: ١٤٦ (٢) فى الصناعتين: ٣٧٩ (مالا)

(٣) الغرثان: الجائع. الأعجف: النحيف الذى ذهب سمنه.

فوارس بُهمة حُشدٌ إذا ما بدا خصر الحيية والخَدام (١)

والمبالغة في هذا الشعر هي في قوله «الحيية».

وسار على هذا النهج في بقية الأمثلة التى أوردها (٢).

ومن هنا يستطيع الباحث أن يقول: إن هذا الحد الذى حد به قدامة المبالغة لا يضم جميع ما سماه بالمبالغة. فكيف نجعله حاصرا للمبالغة ثم نحكم على ضوء هذا الحد بأن الغلو غير المبالغة عنده؟

والذى يمكن أن نقوله، وتشهد به أقوال قدامة: إن الغلو عنده جاء حينا غير المبالغة.. إذ كانت المبالغة هدفا من أهدافه، وجاء حينا آخر مرادفا لها إذ استطاع قدامة أن يبد لها منه.

٣ ـ عند الآمدي :

أما الآمدي المتوفى سنة ٣٧٠هـ فلا نجد في كتابه: «الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري» تفريقا بين مصطلحات المبالغة فهو كثيرا ما يسميها بالمبالغة ومن ذلك قوله :

«وقد بالغ النابغة في وصف عنق المرأة بالطول فقال :

إذا ارتعشت خاف الجبانُ ارتعاشُها ومن يتعلّق حيث علّق يَفْرَقِ(٣)

فجعل القرط يخاف أن يسقط من هناك، فيهلك. وإنما أخرج هذا كالمثل: أي لو كان مما يقع منه الخوف لخاف، وقال ذو الرمة :

(١) في الصناعتين: ٣٧٨ (وحولي من بني جشم) القتام: الجماعة من الناس. البهمة: الشجاع. الخَدام: قال في اللسان: الخَدَمة. السير الغليظ المحكم مثل الحلقة يشد في رسغ البعير... والخَدَمة: الخلخال وهو من ذلك لأنه ربما كان من سيور يركب فيها الذهب والفضة والجمع خَدام.

(٢) نقد الشعر: ١٤٦، ١٤٧ (٣) الرعاث: القرط.

والقرط في حرّة الذفرى معلّقة تباعد الحبلُ منه فهو يضطربُ(١)

فدل بقوله: «تباعد الحبل منه» على طول عنق المرأة.

فهذه المبالغة لائقة مستحسنة لأنه دل على الوصف بالشيء الذي يخص الموصوف، لا بالشيء الذي يخص غيره»(٢).

وقوله: «وقد بالغ أبو العتاهية في وصف الخصور بالدقة فقال :

ومخصّرات زرننا بعد الهدوّ من الخدور
تُفُجٌ روادفهن يلـ بسن الخواتم في الخصور(٣)

لم يرد أن خواتمهن في خصورهن، لأن هذا محال، وإنما ذهب إلى مثل قولهم: جفنة يقعد فيها خمسة، أي لو قعدوا فيها لوسعتهم.

وقال الآخر:

لها حافرٌ مثل قُعْبِ الوليـــــــــــدِ يتخذ الفأرُ فيه مغارا (٤)

أي لو اتخذ مغارا لوسعه. فكذلك قوله: «يلبسن الخواتم في الخصور» أي تصلح خصورهن أن تدخل في خواتمهن لدقتها على المبالغة» (٥)

ويسميها في بعض الأحيان بالإسراف والإفراط حيث قال في تعليقه على قول أبي تمام:

أرَامَةُ كُنتِ مألفَ كلِّ رِيمٍ لو استمتعت بالأنَس القَدِيمِ
أدارَ البؤسِ حَسَّنَكِ التصابي إليَّ فصرتِ جنّاتِ النعيم

(١) النفريان: ماعن يمين العنق ويساره. وحرة الذفرى: موضع مجال القرط. وقيل: حرة الذفرى صفة أي أنها حسنة الذفرى أسيلتها.

(٢) الموازنة: ١/١٥٥/١٥٦.

(٣) في اللسان امرأة نفج الحقيبة: إذا كانت ضخمة الأرداف.

(٤) القعب: قدح من خشب مقعر: الحجر الذى يغور فيه. أى يدخل.

(٥) الموازنة: ١/١٦٠/١٥٧.

لئن أصبحتِ ميدان السَّوَافي لقد أصبحتُ ميدانَ الهموم
ومما ضرَّم البُرَحَاءَ أنِّي شكوتُ فما شكوتُ إلى رحيم
أظن الدمع في خدّي سيبقى رسوما من بكائي في الرسوم (١)

«وهذا من أسهل كلامه، وأسلس نظمه، ومن أبعد قول من التكلف والتعسف، وأشبهه بكلام المطبوعين وأهل البلاغة. وقوله: «فصرت جنات النعيم» معنى حسن، ولكن فيه إسراف أن يجعل دارا خلت من أهلها دار بؤس وهو باكٍ فيها — جنات النعيم.

وقد أتى البحترى بهذا المعنى متبعا فيه أبا تمام ولكن جاء به على سبيل اقتصاد واعتدال، وتجنب الإفراط فقال:

«يا مَغَانِي الأحبابِ صِرتِ رسوماً   وغدا الدهرُ فيكِ عندى ملوما
ألفَ البؤسُ عَرْصَتَيْكِ وقد كنـــــــت بعينـيَّ جنَّةً ونعيما»(٢)

وقال أيضا واسما المبالغة بالإفراط :

«وقال البحترى أيضا في المتوكل مما لا يقال إلا لخليفة إلا أن يفرّط مفرّط فيقوله لغيره :

حلفتُ بمن أدعوه ربّا ومن له   صلاتي ، ونسكي خالصا ، وصيامي
لقد حُطت دينَ الله خيرَ حياطةٍ   وقمتَ بأمر الله خيرَ قيام»(٣)

ويظهر أن للإفراط عند الآمدى درجةً أعلى من درجات المبالغة حيث يلتمس ذلك من ربطة الإفراط بالإسراف وذلك حين وصف قول أبي تمام

(١) السوافي: جمع سافية وهي الريح التي تسفي التراب. البرحاء: الشدة والمشقة وخص بعضهم بشدة الحمى.. ويقال للمحموم الشديد الحمى اصابته البرحاء.

(٢) الموازنة: ١/ ٤٧٨، ٤٧٩ قال في اللسان: عرصة الدار وسطها وقيل هو ما لا ابناء فيه سميت بذلك لاعتراص الصبيان فيها.

(٣) الموازنة: ٢/ ٣٥٥، ٣٥٦.

«وصرت جنات النعيم» بالإسراف ثم أثنى على البحترى الذى اتبعه في هذا المعنى ولكنه تجنب الإفراط وجاء به على سبيل اقتصاد واعتدال(١).

ومن الأسماء التي أطلقها الآمدى على المبالغة تسمية الإغراق وذلك حيث يقول تعليقا على قول البحترى :

قد بيّنَ البين المُفرّقُ بيننا   عِشْقَ النوى لربيبِ ذاكَ الربربِ(٢)

«والنوى هي النية في انتقال القوم من موضع إلى آخر، فعشق النوى لربيب الربرب استعارة ليست بحسنة، غير أن الشعراء المتأخرين قد اصطلحوا على أن جعلوا البين، والفراق، والنوى كالأشخاص وجعلوها

الحائلة بينهم وبين من يهوونه، فهم يستعيرون الأفعال لها، فربما حسنت الاستعارة لها وربما قبحت على حسب مواضعها في الإغراق والاقتصاد» (٣). وقد عبّر الآمدى بعض الأحيان عن المبالغة بما يدل على بلوغ الغاية في الغرض الذى قصد إليه الشاعر وذلك حيث يقول:

وبما أحسن فيه البحترى وأغرب من قوله في شدة الحب وتمكنه:

غيرُ حبٍّ لسليمى لم يزد فيه إسعاف، ولم ينقصه ضَنْ
ثبتت تحت الحَشَا آخيةٌ منه لا يَنْزِعُهَا المُهْرُ الأرِن(٤)

وقد بالغ أيضا الذى يقول:

أُحِبُّكِ مالو كانَ بين قبائلٍ من النَّاسِ أعداءٍ لَجَرَّ التَّصافيا

وأبلغ من هذا كله وأجود ــ قول الأعشى:

كفى بالذى تُوليته لو تَجَنَّبا شِفاءً لِسُقم بعد ما كان أشيَبا
ولكنَّما كانت توابعُ حبِّها تَوَالِيَ رِبْعِيِّ السِّقاب فأصحَبا

(١) المصدر السابق: ١/٤٧٨، ٤٧٩.

(٢) قال في اللسان: الربرب القطيع من بقر الوحش وقيل من الظباء ولا واحد له والربيب: المعاهد.

(٣) الموازنة: ٢/٣٥ (٤) الأرن: من أرن أى نشط

فتمّ على معشوقةٍ لا يَزيدُها إليه بلاءُ السّوء إلا تَحَبُّبا

وكان حمّاد الراوية يتعجب من قوله: «فتمّ على معشوقة» ويقول: هذا ــ والله ــ غايةُ العشق ونهاية الإحسان في النسيب.

ويضيف الآمدى:

وقال «أبو حيّة النميرى» في هذا المعنى وجاء به أكشف وأبين وأحسن مما جاء به الأعشى، فقال:

لا مُنكِرٌ لقبيحٍ منكَ أعرفُهُ إنِي أَرَاه ــ إذا أرضَاكِ ــ إحسانَا
أُحدِّث النَّفس ... بذكركُمُ حتى كأنَّ الذى قد كانَ ما كانَا

ومن هذا أخذ أبو الشِّيص ـ والله أعلم ـ قوله :

فأهنتني فأهنت نفسي عامِدا   ما من يهون عليك ممن أكرم

ولكنه تناهي في التذلل فأحسن المعنى كل الإحسان (١).

وأما مصطلح الغلو الذى سمي به قدامة بن جعفر المبالغة في كتابه «نقد الشعر» وتحدث عنه كثيرا فلم يرد عند الآمدى الذى اطلع على نقد الشعر ونقد بعض أجزائه كما يذكر في موازنته (٢) إلا في موضع واحد من الموازنة وهو قوله :

(والتفضيل الحسن الذى لا غلو فيه وكأن قائله قد غلا ـ قول البحترى ـ أيضا في أبي ليلي الحارث بن عبد العزيز بن دلف :

يبينُ بالفضل أقوامٌ فيفضُلُهم   مُوَحّدٌ بغريب الذكر منفردُ
تَوَحَّدَ القَمَر السارى بشهرته   وأَنْجُمُ الليلِ نَثْرٌ حَوْلَهُ نَدَدُ (٣)

وان كان الآمدى لم يستخدم الغلو إلا في موضع واحد من موازنته ولم يفرق بينه وبين المبالغة فانه يظهر من خلال أحاديثه ونقداته أن للمبالغة

(١) الموازنة : ٢/ ١٢٤، ١٢٥   (٢) المصدر السابق : ٢/ ٣١٨، ٣٦٩

(٣) المصدر السابق : ٢/ ٣٥١

حدا تقبل فيه وأن هناك حدا لا تقبل فيه ، فهي تقبل ما لم تبلغ درجة المحال . لذلك فقد عدّ استعارة العرض للدهر أمرا محالا يفوق درجة المبالغة المقبولة اذ يقول في تعليقه على قول أبي تمام :

بِيَوْمٍ كَطُولِ الدَّهر في عَرْضِ مثله   وَوَجْدِيَ من هذا وهذاك أطْوَلُ

«فجعل للدهر وهو الزمان عرضا ، وذلك محض المحال ، وعلى أنه ما كانت به إليه حاجة ، لأنه قد استوفى المعنى بقوله : «كطول الدهر» فأتى على الغرض في المبالغة(١).

وقد قبل الآمدى بعض ما وصل إلى هذه الدرجة بشروط: كأن يكون مخرجه مخرَج التوسع والمبالغة. إذ قال في تعليقه على قول أبي تمام:

من الهيفِ لو أن الخلاخل صُيِّرت　　لها وُشُحاً جالت عليها الخلاخِلُ

«والإحالة فيما مخرجه مخرج الحقيقة أقبح من الإحالة فيما مخرجه مخرج التوسع والمبالغة»(٢). أوأن يكون مخرجها مخرج النوادر فيستحسن ولا يستقبح. نحو قول الشاعر:

من رأى مثل حِبَّتِي　　تُشبِهُ البدرُ إذ بدا

تدخلُ اليومَ ثم تد　　خلُ أردافُها غدَا

ومثل هذا كثير(٣).

أو أن يكون إخراجُها كالمَثَل وذلك كما وجه قول النابغة:

إذا ارتعشت خاف الجبانُ ارتعاشُها　　ومن يتعلّق حيث علّق يَفْرَقُ

بقوله: «وإنما أخرج هذا كالمثل أى لو كان مما يقع منه الخوف لخاف»(٤).

---

(١) المصدر السابق: ١/ ١٩٧　　(٢) المصدر السابق: ١/ ١٥٤

(٣) المصدر السابق: ١/ ١٥٤　　(٤) المصدر السابق: ١/ ١٥٦

٤ ـ عند الرّماني:

هو أبو الحسن علي بن عيسى بن عبد الله المعروف بالرماني المتوفى سنة ٣٨٦هـ.، من كبار النحاة يقول عنه أبو حيان التوحيدى: (إنه عالي الرتبة في النحو واللغة، والكلام، والمنطق)(١).

ولقد عرض لإعجاز القرآن الكريم، وألف فيه رسالة النكت في إعجاز القرآن، وبين فيها أنه في أعلى طبقة من طبقات البلاغة، وقسم البلاغة إلى عشرة أقسام فقال: (والبلاغة من عشرة أقسام: الإيجاز، والتشبيه،

والاستعارة، والتلازم والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان)(٢). ثم أخذ يفسر هذه الأبواب ويتحدث عنها في القرآن الكريم. ومنها المبالغة التي عرفها بقوله:

(المبالغة هي الدلالة على كبر المعني على جهة التغيير عن أصل اللغة لتلك الإبانة)(٣) وحاول أن يعدد أنواعها التي استخرجها من القرآن فذكر أنها تأتي على وجوه عدة.

١ ـ **الضرب الأول:** المبالغة في الصفة المعدولة عن الجارية بمعنى المبالغة، وذلك على أبنية كثيرة منها فعلان، ومنها فعّال وفعول ومِفْعَل، ومِفْعَال، ففعلان كرحمان عدل عن راحم للمبالغة..

٢ ـ **الضرب الثاني:** المبالغة في الصيغة العامة في موضع الخاصة: كقوله تعالى:

«خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ» (٤)..

٣ ـ **الضرب الثالث:** إخراج الكلام مخرج الإخبار عن الأعظم للمبالغة

---

(١) الامتناع والمؤانسة: ١٣٣/١٠

(٢) النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: ٧٦

(٣) المصدر السابق: ١٠٤ (٤) سورة الانعام: ١٠٢

كقول القائل (جاء الملك) إذا جاء جيش عظيم له. ومنه قوله عز وجل:

«وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا» (١)

فجعل مجيء دلائل الآيات مجيئا له على المبالغة في الكلام. ومنه:

«فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ» (٢)

أي آتاهم بعظيم بأسه، فجعل ذلك إتيانا له على المبالغة. ومنه قوله

تعالى :

« فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا » (٣)

٤ ـ **الضرب الرابع**: اخراج الممكن إلى الممتنع للمبالغة نحو قوله تعالى :

« وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ »، (٤)

٥ ـ **الضرب الخامس**: إخراج الكلام مخرج الشك للمبالغة في العدل والمظاهرة في الحجاج فمن ذلك :

« وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ » (٥)

ومنه :

« قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ » (٦)

٦ ـ **الضرب السادس**: حذف الأجوبة للمبالغة كقوله تعالى :

« وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ » (٧)

---

(١) سورة الفجر: ٢٢ (٢) سورة النحل : ٢٦

(٣) سورة الأعراف : ١٤٣ (٤) سورة الأعراف : ٤٠

(٥) سورة سبأ: ٢٤ (٦) سورة الزخرف : ٨١

(٧) سورة الأنعام: ٢٧

وقوله :

« وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ » (١)

ومنه :

« صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ » (٢)

كأنه قيل لجاء الحق أو لعظم الأمر أو لجاء بالصدق، كل ذلك يذهب إليه الوهم لما فيه من التفخم، والحذف أبلغ من الذكر، لأن الذكر

يقتصر على وجه والحذف يذهب فيه الوهم إلى كل وجه من وجوه التعظيم لما قد تضمنه من التفخيم (٣).

وتعريف الرماني للمبالغة بأنها «الدلالة على كبر المعنى» أمر قد أشار إليه سيبويه عن الخليل حيث يقول سيبويه: «قالوا خشن وقالوا اخشوشن وسألت الخليل فقال: كأنهم أرادوا المبالغة والتوكيد، كما أنه إذا قال اعشوشبت الأرض فإنما يريد أن يجعل ذلك كثيرا عاما قد بالغ» (٤). ولكن ما ذكره من أنها لا تأتي إلا على جهة التغيير عن أصل اللغة أمر لا يسلم له إذ لا دليل له في كل تغيير، افترضه، ففرض صحة العدل في الأبنية في الضرب الأول لا يلزم به دليل مقنع، ويبقى الخلاف حوله كما بقي حول مشكلة مسألة أخرى تتعلق به، وهي مسألة أيها الأصل: المصدر أم الفعل؟ (٥) كذلك أشار سيبويه إلى أنه في بعض الأحيان تتعذر معرفة المعدول من غير المعدول حيث يقول: (وإذا كان الاسم على بناء فَعَالِ،

(١) سورة البقرة: ١٦٥ (٢) سورة ص: ١

(٣) النكت في إعجاز القرآن الكريم: ١٠٤ــ١٠٦ (٤) الكتاب: ٤/٧٥.

(٥) انظر شرح ابن عقيل ٥٥٩/١ حيثُ فصَّل الخلاف حول هذه المسألة وخلاصة ما ذكر: أن البصريين يذهبون إلى أن المصدر أصل والفعل والوصف مشتقان منه، وأن الكوفيين يذهبون إلى أن الفعل أصل والمصدر مشتق منه، وذهب قوم إلى أن المصدر أصل والفعل مشتق منه، والوصف مشتق من الفعل، وذهب ابن طلحة إلى أن كلا من المصدر والفعل أصل برأسه وليس أحدهما مشتقاً من الآخر.

نحو حذام ورقاشِ ولا تدرى ما أصله، أمعدول أم غير معدول أم مؤنث أم مذكر، فالقياس فيه أن تصرفه لأن أكثر هذا البناء مصروف غير معدول مثل: الذهاب، والصلاح، والفساد والرباب) (١).

وأما الضرب الثاني الذى عبر عنه بالمبالغة بالصيغة العامة في موضع الخاصة. فقد مثل له بقوله تعالى: « خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ » (٢) ولكن الرماني الذى يفهم من قوله هذا أن هناك أشياء لا تدخل تحت هذا الإخبار لم

يذكر لنا واحدا منها(٣).

وأما الضرب الثالث فقد مثل له بقوله تعالى:

«وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا» (٤)

وبقوله سبحانه:

«فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا» (٥)

وليس له دليل في أي منهما على أن أصل الكلام غير ما ورد في النص القرآني الكريم. فما الذى يمنع مجيء الله عز وجل يوم القيامة، مجيئا يليق بجلاله ؟؟ وما الذى يمنع تجليه للجبل تجليا يليق بجلاله.

وأما تمثيله بقوله:

«فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ» (٦)

فهذا أسلوب متكرر في القرآن الكريم يأتي في مجال العذاب والعقاب فقال عزوجلّ:

«قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ

(١) الكتاب: ٣/٢٨٠ (٢) سورة الأنعام: ١٠٢.

(٣) لم نرد أن ندخل هنا في موضوع القرآن الكريم كلام الله الذين ذكر ابن القيّم الجوزية أنه لا يدخل تحت هذا الاخبار لأنه هو مصدر الاخبار.

(٤) سورة الفجر: ٢٢. (٧) سورة الأعراف: ١٤٣

(٥) سورة النحل: ٢٦

مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ» (١)

وقال عزّ وجلّ:

«فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا» (٢)

والعرب تقول: «أتي عليه الدهرُ أى أهلكه» وقيل: (أتي على فلان إتْوٌ أى موت وبلاء أصابه(٣). وعلى ذلك فسر ابن كثير هذه الآية فقال: (أي

اجتثه من أصله، وأبطل عمله)(٤).

وأما الضرب الرابع فالتسليم له بما جاء فيه من أنه إخراج الممكن إلى الممتنع يلزم بالتسليم بإمكانية دخول هؤلاء المخبر عنهم الجنة! ومن يستطيع أن يسلم بذلك والله عز وجل يقول:

« إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ * لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ » (٥)

والضرب الخامس هو طريقة الكلام في مثل تلك المواقف والأغراض.

وأما أمثلة الضرب السادس التي قال فيها بحذف الأجوبة، فليس فيها تغيير عن الأصل، لأن حذف الجواب غرض من أغراض التعبير، وليس هناك جواب متعين حتى نفترض أنه الأصل لأن الذكر كما قال:(يقتصر على وجه والحذف يذهب فيه الوهم إلى كل وجه من وجوه التعظيم لما قد تضمنه من التفخيم)(٦).

وقد تحدث عن هذا الباب عند الرماني، الدكتور عبد القادر حسين فقال: «إن الرماني قد جمع ألوان المبالغة التي كانت معروفة في عصره،

(١) سورة النحل: ٢٦
(٢) سورة الحشر: ٢
(٣) لسان العرب: أتي
(٤) تفسير ابن كثير: ٢/١٦٥
(٥) سورة الأعراف: ٤٠، ٤١
(٦) النكت: ١٠٦

وقبل عصره، ووضعها في باب واحد، مبينا أشكالها وشواهدها، مضيفاً عليها من حسه المرهف، وذوقه الفني، دون أن يعرض لدرجاتها التي عرفت عند المتأخرين من تبليغ وغلو وإغراق، فقد ترك هذه المهمة لمن يأتون بعده كأبي هلال وابن رشيق»(١).

ولكن المدقق في هذا الباب يجد أن أضربه لم تستوعب المبالغة في

الاستعارة التي ذكرها الرماني في باب الاستعارة إذ قال في قوله تعالى:

« سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ » (٢)

والله عز وجل لا يشغله شأن عن شأن ولكن هذا أبلغ في الوعيد وحقيقته سنعمد إلا أنه لما كان الذى يعمد إلى شيء فقد يقتصر فيه لشغله بغيره معه، وكان الفارغ له هو البالغ في الغالب مما يجرى به التعارف، دلنا بذلك على المبالغة التي هي أعرف عندنا لما كانت بهذه المنزلة ليقع الزجر بالمبالغة التي هى أعرف عند العامة والخاصة موقع الحكمة »(٣).

وفي قوله تعالى:

« فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا » (٤)

أيضا قال: « النشر ها هنا مستعار وحقيقة: أظهرنا به النبات والأشجار والثمار فكانت كمن أحييناه بعد إماتته، فكأنه قيل: أحيينا به بلدة ميتا من قولك: أنشر الله الموتى فنُشروا، وهذه الاستعارة أبلغ من الحقيقة لتضمنها من المبالغة ما ليس في أظهرنا، والإظهار في الإحياء والإنبات إلا أنه في الإحياء أبلغ »(٥).

كذلك فإن كثيراً من الشواهد التي ذكرت قبله أمثلة على الإفراط والمبالغة لا تجد لها استيعابا في هذه الأضرب الستة التي ذكرها في هذا

---

(١) أثر النحاة في البحث البلاغي: ٢٧٠

(٢) سورة الرحمن: ٣١

(٣) النكت: ٨٨

(٤) سورة الزخرف: ١١

(٥) النكت: ٨٩

الباب، فأى ضرب من هذه الأضرب يدخل تحته بعض الأبيات التي ذكرها قدامة بن جعفر من مثل قول عمير بن الأيهم التغلبي:

ونكرم جارنا ما دام فينا ... ونتبعه الكرامة حيثُ سارا

أو قول الحكم الخضرى:

وأقبح من قرد وأبخل بالقرى من الكلب أمسى وهو غرثان أعجف

أو قول النمر بن تولب في السيف:

تَظَل تحفرُ عنه إن ضربتَ به بَعدَ الذراعين والساقين والهادى

وفي الحقيقة أن الرماني «لم يدرس المبالغة بمعناها العام، وإنما درسها في صورها القرآنية»(١) وحاول أن يستوعبها في الأضرب الستة التي ذكرها. ولكنه ندت عنه في ذلك عدة أضرب كالمبالغة في الاستعارة: والمبالغة بذكر الظمآن في قوله تعالى:

« وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ » (٢)

إذ قال مشيراً اليها «ولو قيل يحسبه الرائي ماء ثم يظهر أنه على خلاف ما قدّر لكان بليغا، وأبلغ منه لفظ القرآن، لأن الظمآن أشد حرصا عليه وتعليق قلبه به»(٣).

ولم يذكر الرماني من أسماء المبالغة إلا المبالغة. ولم يتعرض كما قال الدكتور عبد القادر حسين لدرجاتها من غلو وتبليغ وإغراق.

ويبقى بعد ذلك مسألة ما إذا كان الضرب الرابع من الأضرب التي ذكرها الرماني هو الذى ذكره قدامة في تعليقه على أبيات المهلهل والنمر وأبي نواس من أنها خارجة عن الموجود وداخله في باب المعدوم(٤) كما ظن

(١) البلاغة تطور وتاريخ: ١٠٧
(٢) سورة النور: ٣٩
(٣) النكت: ٨١
(٤) نقد الشعر: ٩٤

ذلك الدكتور عبد القادر حسين عندما قال: «وهذا الضرب الرابع من ضروب المبالغة التي ذكرها الرماني متبعا فيها قدامة هو وحده الذى أثار الجدل قديما وحديثا»(١) أم لا؟

والحقيقة أن هناك فرقا بين هذا الضرب وبين ما ذكره قدامة اذ ان

الأمثلة التي ذكرها قدامة إذا نظر إليها بمقياس الواقع الخارجي الذى نظر به إليها قدامة نجد أنها خارجة عن الواقع وداخلة في باب المعدوم كما في قول المهلهل :

فلولا الريح أُسمع من بحجر صليل البيض تقرعُ بالذكور

وقول النمر بن تولب :

أبقى الحوادثُ والأيامُ من نمر أشباه سيف قديم إثره بادى

تظل تحفر عنه إن ضربت به بَعد الذراعين والساقين والهادى

وقول أبي نُواس :

وأخفت أهل الشرك حتى أنه لتخافُك النطف التي لم تخلق(٢)

بينما كان مثال الضرب الرابع الذى ذكره الرماني لا يحمل هذا الخروج عن الواقع والدخول في باب المعدوم، وإنما جاء لبيان استحالة دخول هؤلاء الذين ذكرهم النص القرآني الجنة بتعليق دخولهم إياها على مستحيل يعرفون استحالته .

ومما سنقف عنده في هذا الفصل دلالة «أبلغ» عند الرماني التي أوردها في حديثه عن استعارات القرآن الكريم التي كأن يجيء حديثه عنها في الغالب بالطريقة الآتية اللفظ أو الكلمة ها هنا استعارة... وحقيقته !! .. وهذه الاستعارة أبلغ.... فهل كانت أبلغ هذه تعني أن الاستعارة أكثر مبالغة أو أنها أكثر حسنا وأشد تأثيرا وتوكيدا في ابراز المعنى المراد ؟؟

---

(١) أثر النحاة في البحث البلاغي: ٢٦٩ (٢) نقد الشعر: ٩١، ٩٢

والراجح في نظرى أنه لا يعني بها المبالغة وإنما يعني بها بلوغ الكلام عن طريق الاستعارة درجة من التأثير والقوة لا تبلغها حقيقة تلك الاستعارة . والدليل علي ذلك أنه نص على المبالغة في بعض المواضع من تلك

الاستعارات التي تعرض له المبالغة فيها ولم يستعمل بلفظ أبلغ في التعبير عنها دليلا على إرادته بأبلغ شيئا آخر غير المبالغة وأن المبالغة كانت في تلك المواضع عاملا من عوامل أبلغية الاستعارة التي تفضل بها عن الحقيقة.

وسنكتفي هنا ببعض الأمثلة من حديثه عن الاستعارات القرآنية ليتضح فيها ما سبق ذكره.

قال في قوله تعالى:

« بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ » (١)

فالقذف والدفع هنا مستعار وهو أبلغ وحقيقته: بل نورد الحق على الباطل فيذهبه وإنما كانت الاستعارة أبلغ لأن في القذف دليلا على القهر لأنك إذا قلت قذف به إليه فإنما معناه ألقاه اليه على جهة الإكراه والقهر فالحق يلقى على الباطل فيزيله على جهة القهر والاضطرار لا على جهة الشك والارتياب ويدمغه أبلغ من يذهبه لما في يدمغه من التأثير فيه فهو أظهر في النكاية وأعلىٰ في تأثير القوة »(٢).

وقال في قوله تعالى:

« وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ » (٣)

هذا مستعار وحقيقته: ندموا لما رأوا من أسباب الندم، إلا أن الاستعارة أبلغ للإحالة فيه على الإحساس لما يوجب الندم بما سقط في اليد، فكانت أكشف في سوء الأخبار لما يوجب من الوبال »(٤).

---

(١) سورة الأنبياء: ١٨.

(٢) النكت: ٨٨، ٨٩

(٣) سورة الأعراف: ١٤٩

(٤) النكت: ٩٤

ونلاحظ أنه في هذه الأمثلة لم يذكر المبالغة مع أبلغ ولكن عندما عنت له في المثالين التاليين ذكرها ولم يكتف بأبلغ عن ذكرها.

وأول هذين المثالين قوله في قوله تعالى:

وأول المثالين قوله في قوله تعالى:

«سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ» (١)

«والله عزّ وجل لا يشغله شأن عن شأن، ولكن هذا أبلغ في الوعيد وحقيقته سنعمد إلا أنه لما كان الذى يعمد إلى شيء قد يقصر فيه لشغله بغيره معه وكان الفارغ له هو البالغ في الغالب مما يجرى به التعارف، دلنا بذلك على المبالغة من الجهة التي هي أعرف عندنا لما كانت بهذه المنزلة ليقع الزجر بالمبالغة التي هي أعرف عند العامة والخاصة موقع الحكمة» (٢).

وكما يظهر من قوله هذا فقد جاءت المبالغة ووقع الزجر بها عن طريق أبلغية الاستعارة عن الحقيقة.

وثانى المثالين قوله في قوله تعالي:

«فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا» (٣)

النشر هاهنا مستعار وحقيقته: أظهرنا به النبات والأشجار والثمار فكانت كمن أحييناه بعد إماتته، فكأنه قيل: أحيينا به بلدة ميتا من قولك أنشر الله الموتي فنُشروا، وهذه الاستعارة أبلغ من الحقيقة لتضمنها من المبالغة ماليس في أظهرنا والإظهار في الإحياء والإثبات إلا أنه في الإحياء أبلغ» (٤) فإذا جاءت المبالغة في قوله هذا سببا من أبلغية هذه الإستعارة فإنها لم تكن كذلك في كل استعارة من الاستعارات التي تحدث عنها والتي ذكرنا بعضا منها.

---

(١) سورة الرحمن: ٣١

(٢) النكت: ٨٨.

(٣) سورة الزخرف: ١١

(٤) النكت: ٨٩

٥ ــ عند ابن جني:

أما ابن جني صاحب الجهود المشكورة في دراسة اللغة وأسرارها، فقد

حظيت المبالغة منه باهتمام واضح كما يظهر في كتابيه الخصائص والمحتسب إذ عرض للمبالغة في اللفظة المفردة، وفي التراكيب، ففي الأولى اعتبر زيادة المبنى لزيادة المعنى وعقد لذلك بابا خاصا في خصائصه هو «باب في قوة اللفظ لقوة المعنى» اعتبر فيه أن الزيادة في البناء تأتي لمبالغة نسبية في معناه عن معنى البناء الأصلي وضرب لذلك مثالا بخشن واخشوشن «فمعنى خشن دون معنى اخشوشن، لما فيه من تكرير الشين وزيادة الواو. ومنه قول عمر رضي الله عنه: اخشوشنوا وتمعددوا. أى أصلبوا وتناهوا في الخشنة. وكذلك قولهم: أعشب المكان، فاذا أرادوا كثرة العشب فيه قالوا اعشوشبت. ومثله: حلا واحلولى، وخلق واخلولق. وغدن واغدودن» (١) والفكرة في هذا هي جواب الخليل لسيبويه عن تساؤله عن خشن واخشوشن (٢)، الذى ذكرناه في بداية هذا الفصل، إلا أن ابن جنى علّل الزيادة في المعني بأنها لزيادة البناء الظاهر في تكرير العين وزيادة الواو.

وطبق ذلك على باب فَعِل وافتعل نحو قَدِر واقتدر فقال: (فاقتدر أقوى معنى من قولهم قَدِر. كذلك قال أبوالعباس وهو محضُ القياس، قال الله سبحانه (أخذ عزيز مقتدر) فمقتدر هنا أوفق من قادر، من حيث كان الموضع لتفخيم الأمر وشدة الأخذ» (٣). وقاس على ذلك: كسب واكتسب في قوله تعالى:

«لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ» (٤)

(وتأويل ذلك أن كسب الحسنة بالإضافة إلى اكتساب السيئة أمر يسير ومستصغر. وذلك لقوله — عزاسمه —:

---

(١) الخصائص: ٣/ ٢٦٤ (٢) الكتاب: ٧٥

(٣) الخصائص: ٣/ ٢٦٤، ٢٦٥ (٤) سورة البقرة: ٢٨٦

«مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا» (١)

سيئه » (١)

أفلا ترى أن الحسنة تصغر بإضافتها إلى جزائها، صغر الواحد الى العشرة، ولما كان جزاء السيئة إنما هو بمثلها، لم تحتقر الى الجزاء عنها، فعُلم بذلك قوة فعل السيئة على فعل الحسنة، ولذلك قال ـ تبارك وتعالى: «**تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًا أن دعوا للرحمن ولدا**». فإذا كان فعل السيئة ذاهباً بصاحبه إلى هذه الغاية البعيدة المترامية، عظم قدرها، وفخم لفظ العبارة عنها، فقيل: لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت فزيد في لفظ فعل السيئة، وانتقص من لفظ فعل الحسنة، لما ذكرنا »(٢).

وطبق ذلك في زيادة بناء فُعّال عن فعيل فقال: (ومن ذلك أيضا قولهم: رجل جميل، ووضيء، فإذا أرادوا المبالغة في ذلك قالوا: وضاء وجُمّال، فزادوا في اللفظ هذه الزيادة لزيادة معناه قال:

والمرء يُلحِقُه بفتيان الندى خُلقُ الكريم وليس بالوضّاء

وقال:

تمشي بجهم حسن ملاّح أُجِمّ حتى هَمّ بالصياح(٣)

وكذلك حسن وحسّان: قال:

دار الفتاة التي كنا نقول لها يا ظبية عطلا حسّانه الجيد)(٤)

وعلل ذلك بأنه تبع للزيادة في البناء عن طريق تضعيف العين في الفعل الذى أخذت منه تلك الصفة (وكأن أصل هذا إنما هو لتضعيف العين في نحو المثال، نحو قطّع وكسّر وبابها، وإنما جعلنا هذا هو الأصل لأنه مطرد في بابه أشد من اطراد باب الصفة. وذلك نحو قولك: قطع

(١) سورة الأنعام: ١٦٠ (٢) الخصائص ٣ / ٢٦٥

(٣) يعني بالجهم: فرجها والحديث عن أمرأة (لسان العرب ملح)

(٤) الخصائص: ٣/٢٦٦

وقطّع، وقام الفرس، وقوّمت الخيل، ومات البعير، وموّتت الابل، ولأن

العين قد تضعف في الاسم الذى ليس بوصف، نحو قبّر وتمّر وحمّر. فدل ذلك على سعة زيادة العين)[1]. وقاس ذلك في الأسماء فقال: (فأما قولهم: خطّاف وان كان اسما فانه لاحق بالصفة في إفادة معنى الكثرة، ألا تراه موضوعا لكثرة الاختطاف به، وكذلك سكّين، إنما هو موضوع لكثرة تسكين الذابح له، وكذلك البزّار والعطّار والقصّار ونحو ذلك، إنما هي لكثرة تعاطي هذه الأشياء وإن لم تكن مأخوذة من الفعل. وكذلك النسّاف لهذا الطائر، كأنه قيل له ذلك لكثرة نسفه بجناحيه. وكذلك الخضّارى للطائر أيضا، كأنه قيل له ذلك لكثرة خضرته، والحوّارى لقوة حوره وهو بياضه، وكذلك الزمّل والزمّيل والزمّال، إنما كررت عينه لقوة حاجته إلى أن يكون تابعا وزميلا وهو باب منقاد)[2].

وطفق ابن جنى يطبق ذلك في مواضع متفرقة من كتابه المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها[3].

وأظن أن الذى ينبغي أن يستنتج من هذا أن المبالغة في اللفظة المفردة التي تأتي عن طريق زيادة البناء فيها عن أصلها أوأختها الأقل منها بناء إنما كانت غرضا أصيلا مقصودا من زيادة بنائها، وان معناها الزائد عن معناها الأول إنما هو معنى مستقل يفوقه في الكثرة، ولكنه ليس تتميما له أوإضافة عليه، ولا يمكن أن يغنى عنه أويحل محله بأى حال، فكما لا يغنى لفظ الكثير عن القليل أويحل محله كذلك لا يصح أن يأتي لفظ اعشوشب مكان عشب أواخشوشن مكان خشن.

وقد استمد ابن جنى أصول هذه الفكرة من الخليل وسيبويه كما ذكرنا سابقا وعن أبي العباس كما صرح بذلك في خصائصه[4] وكان له فضل

(١) الخصائص: ٣/ ٢٦٦، ٢٦٧ (٢) المصدر السابق: ٣/ ٢٦٧.

(٣) أنظر المحتسب: ١/١٣٤، ١٣٥ — ١/٢٠٧ — ١/٣١٩ — ٢/١٣٤ — ٢/٢٣٠، ٢٣١ — ٢/٢٣٣. (٤) الخصائص: ٣/ ٢٦٤

التطبيق والاستشهاد، وشرح الدواعى والأسباب المعنوية التى تجعل احدى

كلمتين من أصل واحد تزيد في معناها لزيادة مبناها عن أختها التي تشترك معها في الأصل وتنقص عنها في المعني، وكان فخورا بهذا معجبا به كما يظهر من قوله: (وذاكرت بهذا الموضع بعض أشياخنا من المتكلمين فسرّ به، وحسن في نفسه)(1).

ولكن ابن جني نسف هذه القاعدة من أساسها بقاعدته الأخرى التي افترض فيها أن (الأفعال تفيد أجناسها والجنس غاية المجموع)(2) (فقولك: قام زيد، معناه كان منه القيام أى هذا الجنس من الفعل.... والجنس يطبق جميع الماضي وجميع الحاضر وجميع الآتي الكائنات من كل من وجد منه القيام....)(3).

لهذا كانت فعل عنده في بعض القراءات تؤدى معنى فعّل في القراءات الأخرى فـ(فرقوا) بالتخفيف في قوله تعالي:

« إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ » (4)

يحتمل أن تكون موقع فرّقوا بالتثقيل (أما (فرقوا) بالتخفيف فتأويله أنهم مازوه عن غيره من سائر الأديان، هذا ظاهر (فرقوا) بالتخفيف. وقد يحتمل أن يكون معناه معنى القراءة بالتثقيل، أى فرّقوه وعضّوه أعضاء فخالفوا بين بعضه وبعض وذلك أن فعل بالتخفيف يكون فيها معنى التثقيل. ووجه هذا أن الفعل عندنا موضوع على اغتراق جنسه...)(5).

وكذلك قال في قراءة «تُطْهِرُهُم» في قوله تعالى:

« خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ

(1) المصدر السابق: ٣/٢٦٦ (2)، (3) الخصائص: ٢/٤٤٨

(4) سورة الأنعام: ١٥٩ (5) المحتسب: ١/٢٣٨

لهم .... » الآية (١).

حيث قال: (هذا منقول من طَهُر وأطهرته كظهر وأظهرته. وقراءة الجماعة أشبه بالمعنى لكثرة المؤمنين، فلذلك قرأت «تطهّرهم» من حيث كان تشديد العين إنما هو للكثير وقد يؤدى فعلت وأفعلت عن الكثرة من حيث كانت الأفعال تفيد أجناسها والجنس غاية المجموع) (٢).

فغمر ابن جنى بهذا اختلاف الصيغ في بحر الجنسية المغرق الذى يغطي كل دلالة ويفسد كل ميزة لها عن غيرها متناسيا قوله: (وبعد فاذا كانت الألفاظ أدلة المعاني، ثم زيد فيها شيء أوجبت القسمة له زيادة المعنى به وكذلك أن انحرف به عن سمته وهديته كان ذلك دليلا على حادث متجدد له (٣) وهويقصد بالانحراف العدول عن معتاد حال اللفظ إذا اعتبر هذا الحادث للبناء كالحادث بالزيادة فيه يفيد تكثير المعنى. يقول في ذلك: (ونحو من تكثير اللفظ لتكثير المعني العدول عن معتاد حاله. وذلك فُعَال في معنى فعيل، نحو طُوال، فهو أبلغ معنى من طويل وعُراض فانه أبلغ معنى من عريض وكذلك خُفَاف من خفيف. وقُلاّل من قليل، وسُرَاع من سريع، ففُعّال — لعمرى — وان كانت أخت فعيل في باب الصفة، فان فعيلا أخص بالباب من فُعال، ألا تراه أشد انقيادا منه تقول جميل ولا تقول جمال، وبطيء ولا تقول بُطاء، وشديد ولا تقول شُداد ولحم غريض ولا يقال غُراض، فلما كانت فعيل هي الباب المطّرد، وأريدت المبالغة، عدلت إلى فُعَال فضارعت فعال بذلك فَعّالا، والمعنى الجامع بينهما خروج كل واحد منها عن أصله، أما فَعّال فبالزيادة، وأما فُعَال فبالانحراف عن فعيل (٤).

ولقد كان ابن جنى في هذا مراعيا لروح اللغة في اختلاف دلالة الجزئيات، مبقيا على الشخصية اللفظية المتميزة.... وليته استمر على ذلك، ولم يحطم هذا الاستقلال ويغرقه في بحر الجنسية الذى لا يبقي ولا يذر.

(١) سورة التوبة: ١٠٣
(٢) المحتسب: ١/٣٠١
(٣) الخصائص: ٣/٢٦٨
(٤) المصدر السابق: ٣/٢٦٧/٢٦٨

وليت جهوده في اختلاف الدلالات باختلاف الأبنية كانت عاصما له من التورط في طريق كثير من النحويين واللغويين قبله الذين قال فيهم ابن درستويه المتوفى سنة ٣٤٧هـ (لا يكون فَعِل وأَفْعَل بمعنى واحد كما لم يكونا على بناء واحد إلا أن يجيء ذلك في لغتين مختلفتين، فأما من لغة واحدة فمحال أن يختلف اللفظان والمعنى واحد كما يظن كثير من اللغويين والنحاة، وإنما سمعوا العرب تتكلم بذلك على ما في طباعها ونفوسها من معانيها المختلفة وعلى ما جرت به عاداتها وتعارُفها. ولم يعرف السامعون لذلك العلة فيه والفروق فظنوا أنها بمعنى واحد، وتأولوا على العرب هذا التأويل من ذات أنفسهم، فان كانوا قد صدقوا في رواية ذلك عن العرب فقد أخطأوا عليهم في تأويلهم ما لا يجوز في الحكمة، وليس يجيء شيء من هذا الباب إلا على لغتين متباينتين كما بينا أو يكون على معنيين مختلفين أو تشبيه شيء بشيء)(١) ولم يكن في قصد ابن جنى شيء من هذا لأنه يصرح بأن الفعل موضوع على اغتراق جنسه لذلك كانت (فَرَّقُوا) كـ(فـرَقوا) و(تطهر) كـ(تطـهَر) لأنه (قد يؤدى فعلت وفاعلت عن الكثرة من حيث كانت الأفعال تفيد أجناسها والجنس غاية المجموع)(٢).

وأما (أبلغ) عند ابن جنى فقد جاءت في أكثر المواضع أكثر مبالغة إما من «بالغ» أو من «بلغ» بالفتح بمعنى وصل وانتهى، ويظهر ذلك من قوله: (ونحو من تكثير اللفظ لتكثير المعنى العدول عن معتاد حاله وذلك فُعَال في معنى فعيل، نحو طُوال فهو أبلغ معنى من طويل وعراض فانه أبلغ معنى من عريض)(٣). فهو لا يمكن أن يريد بأبلغ هنا أكثر بلاغة لأننا في مجال لفظه مفردة لا تتحقق فيها البلاغة على شرط البلاغيين إذ أن البلاغة صفة راجعة إلى الكلام(٤). وهو الحق إذ إننا لا يمكننا أن نفاضل بين كلمة وأخرى مجردة عن السياق فهو يقصد بأبلغ هنا «أكثر مبالغة» إذ إنه يتحدث

(١) المزهر: ١/ ٣٨٥ (٢) المحتسب: ١/ ٣٠١

(٣) الخصائص: ٣/ ٢٦٧ (٤) حاشية الدسوقي على شرح السعيد: ٤/ ٢٧٥ ضمن شروح التلخيص

عن كون طوال وعراض جاءت لتكثير نسبي في المعنى عن عريض وطويل، وقد أوضح ابن جني مقصوده هذا عندما قال: (فلما كانت فعيل هي الباب المطرد وأريدت المبالغة، عدلت إلى فعال)(١).

ويظهر أيضا من قوله في قراءة أُبّي (تباركت الأرض) في قوله تعالى: «فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ» (٢).

(هو تفاعل من البركة وهو توكيد لمعنى البركة كقولك تعالى الله، فهو أبلغ من علا وكقول الحجاج: تقاعس العز بنا فاقعنسسا.
فهو أبلغ معنى من قعس، كما أن احدودب أقوى معنى من حدُب.
واعشوشب أقوى من عشب لكثرة الحروف)(٣).

حيث استخدم أبلغ في مجال مقارنة لفظه مفردة بأختها، فتعالى الله أبلغ من علا، واقعنسس أبلغ من قعس، وأبدلها بلفظة (أقوى معنى) الدالة على قوة الدلالة على الكثرة النسبية التي تحملها احدودب عن حدب واعشوشب عن عشب. وكما يظهر ذلك أيضا في تعليقه على قول عنترة:

شطت مزارُ العاشقين فأصبحت عسـرا علي طلابُك ابنةَ مُخرِمِ

حيث قال: (أي بعدت عن مزار العاشقين. وكما بالغ في ذكر استضراره خاطبها بذلك، لأنه أبلغ، فعدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب فقال (طلابك) فافهم ذلك، فانه ليس الغرض فيه وفي نظيره السعة في القول، لكن تحت ذلك ونظيره أغراض من هذا النحو فتفطن لها)(٤).

وقد يكون استعمال «أبلغ» في الدلالة على المبالغة مأخوذا من «بالغ» فيكون جائزا على رأى الأخفش والمبرد أومأخوذا من بلغ التي تدل على بلوغ النهاية في بعض معانيها كما سنوضح ذلك مستقبلا إن شاء الله.

---

(١) الخصائص: ٣/٢٦٨ (٢) سورة النمل: ٨
(٣) المحتسب: ٢/١٣٤ (٤) المحتسب: ٢/٢٣١

ويلاحظ أن أبا الفتح لم يستخدم غير لفظ المبالغة في نعت الكلمات المفردة التي تحمل ذلك، مما يدل على أن لفظ المبالغة عنده هو الدرجة الأولى في بابها، وأن مفهوم المبالغة عند إطلاقه لا يعني الإسراف أو الإفراط أو الخروج إلى غير الحقيقة أو بلوغ درجة الغلو، وذلك لأننا أمام ألفاظ وجدت في اللغة وعلينا أن نتلاغى بها كما تلاغى بها العرب معتبرين ما تحمله من مبالغة يحول هدفهم إليها وقصدُهم إياها دونُ الحكم عليها بالإسراف أو التجاوز أو الغلو الذي حدثنا ابن جني عن بشاعته واختصاصه بالقول الجائر فقال: (وخصوا غلا في القول بالغلوّ لأن لفظ فعول أقوى من لفظ فَعَال، للواوين والضمتين وضعف الألف والفتحتين، وذلك لأن الغلوّ في القول أعلى وأعنى عندهم من غلاء السعر. ألا ترى إلى: قول الله تعالى:

« تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا » (١).

وقال تعالى:

« يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ » (٢).

وأما غلاء السعر فلا يدخل النار ولا يحرم الجنة) (٣).

وأما إذا خرج إلى مجال التراكيب والصور الشعرية في شعر أبي الطيب المتنبي وجد ابن جني المجال واسعا فاما أن يكتفي بلفظ المبالغة وصفا لبعض هذه الصور كما قال في تعليقه على قول أبي الطيب:

إن يكن النفعُ ضرّ باطنَها ... فربما ضرّ ظهرَها التقبيلُ

(هذا من مبالغته، وقد أكثر الناس من ذكر تقبيلها) (٤).

وكقوله في تعليقه على قوله:

---

(١) سورة مريم: ٩٠ـ٩١ (٢) سورة النساء: ١٧١

(٣) المحتسب: ٢/ ١٤٠ (٤) التبيان في شرح الديوان: ٣/٢١٩

شوائلُ تشوالَ العقاربِ بالقنا   لها مرحٌ من تحته وصهيلُ

(شبه القنا مع الخيل بأذناب العقارب، إذا شالت بها والتشوال بمنزلة التمساء، ويراد به المبالغة والكثرة)(1).

أو أن يصفها بالإفراط كما قال في قوله:

وضفَّرن الغدائرَ لا لِحسنٍ   ولكن خفن في الشعَرِ الضّلالا

(قد وصفت الشعراء الشعر بالكثرة ولكن لم تفرط في ذلك مثل هذا قال ابن المعتز:

دعت خلاخيلُها ذوائبها   فجئن من قرنها إلى القدمِ)(2)

وكما قال في قوله:

تجاوز قدر المدح حتى كأنه   بأحسن ما يثنى عليه يعابُ

(هذا من المدح الذى كاد أن ينقلب لإفراطه هجوا)(3)

أو أن يقرنها بالإسراف، والخروج إلى الإحالة، ومخالفة الحقيقة ويظهر ذلك من قوله تعليقا على قول أبى الطيب المتنبي:

يُقْبِلُهُم وجهُ كل سابحةٍ   اربُعها قبل طرفها تصل

(أسرف في المبالغة حتى خرج إلى ما يستحيل وقوعه لأن القوائم اذا وصلت قبل الطرف، فقد وصف النظر بالضعف وهو من قول أبي نواس: يسبق طرف العين في التهابه)(4).

وقوله تعليقا على قول شاعره المتنبي:

وقد استقدت من الهوى وأذقتُه   من عفتي ما ذقت من بلباله

(1) المصدر السابق: ٣/ ٩٩   (2) المصدر السابق: ٣/٢٢٣

(3) التبيان في شرح الديوان: ١/١٩٤   (4) المصدر السابق:٣/٢١٣/٢١٤

(يحتمل هنا وجهين: أحدهما أن يكون العرض، فيكون هذا من مبالغة الشعر التي ليست لها حقيقة، والآخر أن يريد المرأة التي شبب بها فيكون على حذف المضاف، أي ذات الهوى)(١).

وقد أدخل ابن جنى المجاز تحت باب المبالغة وذلك حيث يقول (وإنما يقع المجاز ويُعدَل إليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة: الاتساع، والتوكيد، والتشبيه)(٢). وهو يعني بالتوكيد المبالغة لأنه عندما جاء ببيان التوكيد ضمن بيان هذه الأغراض الثلاثة في وصف الحب بالمتغلغل في قوله:

شكوت إليها حبّها المتغلغلا فما زادها شكواي إلا تدللا

قرن به المبالغة فقال: (وأما المبالغة والتوكيد فلأنه أخرجه عن ضعف العرضية إلى قوة الجوهرية)(٣). وهو أيضا ما يمكن أن نستنتجه من قوله عن التوكيد في قوله تعالى:

« وَأَدْخَلْنَٰهُ فِي رَحْمَتِنَآ » (٤)

(وأما التوكيد فلأنه أخبر عن الغرض بما يخبره عن الجوهر وهذا تعالٍ بالعرض وتفخيمٌ منه، اذ صُيِّر إلى حيّز ما يشاهد ويلمس ويعاين)(٥).

ونخلص أخيرا إلى أن صور المبالغة عند ابن جنى تأتي على أضرب عدة:

ففي اللفظة المفردة نراها في الصور الآتية:

١ ــ زيادة المبنى كما في: افتعل(٦)، وفعّل(٧)، وفعّال(٨)، ونماعل(٩)، وافعوعل(١٠).

(١) المصدر السابق: ٣/٥٦ (٢) الخصائص: ٢/٤٤٢
(٣) الخصائص: ٢/٤٤٤ (٤) سورة الأنبياء: ٧٥
(٥) الخصائص: ٢/٤٣ (٦) المصدر السابق: ٣/٢٦٠، ٢٦٥
(٧) المحتسب: ١/٢٠٧، ٢/٢٣٣، الخصائص: ٣/٢٦٦
(٨) المحتسب: ٢/٢٣٠، ٢٣١ ــ الخصائص: ٣/٢٦٦
(٩) المحتسب: ٣/١٣٤ (١٠) الخصائص: ٣/٢٦٧، ٦٨، المحتسب: ١/٣١٩

٢ ـ العدول عن معتاد حال اللفظ كما في فُعَال(١)

٣ ـ زيادة هاء التأنيث في مثل: راوية، وعلاّمة، وكرّامة، وخالصة(٢)

٤ ـ كثير مما جاء على وزن مفعلة (وقد كثرت المفعلة بمعنى الشياع والكثرة في الجواهر والأحداث جميعا وذلك كقولهم أرض مضبّة كثيرة الضباب، ومثعلة كثيرة الثعالب، ومحياة ومحواة ومفعاة كثيرة الحيات والأفاعي، فهذا في الجواهر. وأما الأحداث فكقولك: البطنة مؤسنة، وأكل الرطب موردة ومحمة، ومنه المسعاة والمعلاة، والحق مجدرة بك، ومخلقة ومسعاة، ومقمنة، ومحجاة، وفي كله معنى الكثرة من موضوعين:
أحدهما: المصدرية التي فيها، والمصدر إلى الشياع والعموم والسعة.
والآخر: التاء وهي لمثل ذلك، كرجل راوية، وعلاّمة، ونسّابة، وهذرة ولذلك كثرت المفعلة فيما ذكرناه لإرادة المبالغة)(٣)

٥ ـ ما جاء على وزن فَعُل كبَهُت، وقَضُو، وفَقُه، وشَعُر(٤).
وفي التراكيب تأتي في الصور الآتية:

١ ـ صور المجاز كما سبقت الإشارة إليه.

٢ ـ عكس الكلام(٥)، والتشبيه المقلوب(٦)

٣ ـ جعل الموصوف هو المصدر للمبالغة كقول الخنساء:

ترتع ما غفلت حتى إذا ادّكرت   فإنما هي إقبالٌ وإدبارٌ(٧)

---

(١) الخصائص: ٣/ ٢٦٧، ٢٦٨
(٢) المحتسب: ١/ ٢٣٢، ٢/ ١٣٦، ٢٣١
(٣) المحتسب: ٢/ ٢٣٦، ١٣٧
(٤) المصدر السابق: ١/ ١٣٤، ١٣٥
(٥) التبيان في شرح الديوان: ٤/ ٧٠
(٦) الخصائص: ١/ ٣٠٠
(٧) المحتسب: ٢/ ٤٦، ١٠٧

٤ ــ وصف المصدر كقولهم : هذا شعرٌ شاعر، وموتٌ مائت ..، .. وكقول الآخر:

إذا نـاقـةٌ شُـدَّت بـرحـل ونُمرُق   إلى حـكـم بـعـدي فضـل ضلالُها
وعليه قالوا: (جُن جُنونُه، وخرجت خوارجُه)([1]).

وهذه الأضرب في التراكيب التي بين لنا ابن جنى المبالغة فيها هي تراكيب محفوظة وموجودة في اللغة للدلالة على المبالغة، ويبقى بعد ذلك ما حكم عليه ابن جنى بالمبالغة مما يستدعه القائل وينشئه عن طريق الزيادة في المعنى والخروج عن المألوف كقول أبي الطيب المتنبي:

فـكـأنـه والـطـعـنُ مـن قُدّامِه   متخوف من خلفه أن يُطْعَنا
نـفـت الـتوهـمُ عـنـه حـدةُ ذِهنِه   فقضى على غيبِ الأمورِ تيقنا([2])

وكقوله:
تجاوز قدر المدح حتى كأنه   بأحسنِ ما يثنى عليه يعابُ([3])

وكقوله:
بليت بلى الأطلال إن أقف بها   وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه([4])
وكقوله:
إن يـكـن الـنـفـع ضر بـاطنها   فربما ضرّ ظهرها التقبيل([5])

ولقد كان تناول ابن جنى للمبالغة وايضاح طرقها أكثر اتساعا وشمولا من معاصريه ذلك لأنه أوغل في دراسة اللغة بحثا وتأملا مما هيأ له الفرصة ليضع أيدينا على الأساليب اللغوية الدالة على المبالغة كالإخبار بالمصدرية وزيادة هاء التأنيث، وزيادة البناء أوتغييره عن أصله المفترض وقد عرض

(١) المصدر السابق: ٢/٩٣، ٣٠١
(٢) التبيان في شرح الديوان: ٤/١٩٩
(٣) المصدر السابق: ١/١٩٤
(٤) المصدر السابق: ٤/٣٢٨
(٥) المصدر السابق: ٣/٢١٩

بعض هذه الأمور عرضا نظريا يضرب عليه الأمثلة في الخصائص ثم أخذ يستوحيها ويُصدِرُ عنها في نظرته إلى معاني القراءات في المحتسب وشرحه لديوان المتنبي.

أما معاصروه كالآمدى والقاضي الجرجاني، والحاتمي والخالديين فلم نحظ عندهم بهذا التوسع وذلك لأن مجال تطبيقاتهم كانت محصورةً في الشعر كما سنرى، وحتى الرماني الذى كان عرضه للمبالغة ضمن بيان اعجاز القرآن الكريم لم تظفر عنده بهذا الشمول والاتساع ولكن جهود هؤلاء مع جهود السابقين أتاحت أمام أبي هلال المجال واسعا ليتحدث عن المبالغة ويفرق بينها وبين الغلو.

٦ ــ عند أبي هلال:

لقد تداخلت في الموروث النقدى الذى كان أمام أبي هلال عدة عوامل تحكم نظرته إلى المبالغة. فالممدوحون لم يعودوا يرضون بالمنزلة التي وضع الشعراء القدماء فيها ممدوحيهم ويطلبون منزلة فوقها، ولقد ظهرت هذه النظرة منذ عهد عبدالملك بن مروان إذ يقول الهيثم بن عدى (دخل الأخطل على عبدالملك بن مروان فقال: يا أمير المؤمنين قد امتدحتك فاستمع مني: فقال: إن كنت شبهتني بالصقر والأسد فلا حاجة لي بمدحك، وإن كنت قلت كما قالت أخت ابن الشريد لأخيها صخر فهات!! فقال الأخطل: وما قالت يا أمير المؤمنين قال: هي التي تقول:

فما بلغت كفُّ امرئ متناول ... بها المجدُ إلا حيثُ ما نلتَ أطولُ
ولا بلغ المهدون في القول مِدحَة ... ولو أطنبوا إلا الذى فيك أفضل

فقال الاخطل: والله لقد أحسنت القول، ولقد قلت فيك بيتين ما هما بدون قولها قال: هات فأنشد:

إذا متَّ مات العُرفُ وانقطع الندى ... من الناس إلا في قليل مُصرَّدَ

وردت أكف السائلين وأمسكوا من الدين والدنيا بخلفٍ مجدد (١)

وحتى رواة الشعر كان منهم من ينكر على الشاعر التشبيه بالأسد، والشمس ويرى أن التشبيه يجب أن يقلب ويشبه الأسد بالرجل في الشجاعة، والشمس بالمرأة في الحسن....

يقول الأصمعي: (سمعت أعرابيا يقول: إنكم معاشر أهل الحضر لتخطئون المعنى. ان أحدكم ليصفُ الرجل بالشجاعة فيقول: كأنه الأسد، ويصف المرأة بالحسن فيقول: كأنها الشمس، لم لا تجعلون هذه الأشياء بهم أشبه. ثم قال لأنشدك شعرا يكون لك اماما ثم أنشدني:

إذا سألت الورى عن كل مكرمة لم تلفِ نسبتها إلا إلى الهول
فتى جوادا أعاد النَّيْلُ نائله فالنَّيْل يشكر منه كثرة النيل
والموت يرهب أن يلقي منيته في شدة عند لف الخيل بالخيلِ
لو عارض الشمس ألقى الشمس مظلمة أوزاحم الغيمَ أَلجأها إلى الميلِ
أو بارز الليلَ غطَّته قوادِمُه دون القوافي كمثل الليل بالليل
أمضى من النجم أن نابته نائبةٌ وعند أعدائِه أجرِى من السيل)(٢)

ويلمس الناظر في هذا فضلا عن طلب المبالغة في الوصف والمديح فقد هذه الرموز (الأسد ـــ الصقر ـــ الحية وغيرها) لقيمتها الإيحائية التي كانت توحي بها في العصر الجاهلي وصدر الإسلام حتى إن عبد الملك بن مروان يقول يوما لجمع من الشعراء عنده: (تشبهوننا بالأسد والأسد أبخر وبالبحر والبحر أجاج، وبالجبل والجبل أوعر ألا قلتم كما قال أيمن بن خُرَيم في قاتك في بني هاشم:

نهارُكُمُ مكابدةٌ وصومٌ وليلُكُمَ صلاةٌ واقتراءُ
أأجعلكم وأقواما سواء وبينكم وبينهم الهواءُ

---

(١) ديوان المعاني: ١/٢٧

(٢) المصون في الأدب: ٦١، ٦٢

وهــم أرض لأرجـــلـكـم فـأنتم   لأعــينهـم وأرؤسـتهـم سماء)(١)

وإذا كان هذا في عصر لاتزال فيه الأمة على بداوتها، والزمن لم يمتد بفصل طويل بينها وبين التقاليد الفنية للعصر الجاهلي، فما بالك بعصر أبي هلال الذى جاء وأمامه موروث نقدى يزدلف إلى الأمراء ويوجه الشعراء إلى موافقة هواهم، والأمة تغالي في صنعة الزخارف وتنميقها، وأصبح كل من الشعر والنثر صنعةً في نظرهم يبلغ بها البليغ أعلى الرتب في البلاغة (إذا احتج للمذموم حتى يخرجه في معرض المحمود، وللمحمود حتى يصيره في صورة المذموم)(٢).

وأراد أبو هلال أن يجرى مع التيار فكان عليه أن يحتضن المبالغة التي وجد فيها الشعراء مخرجا بين السير على التقاليد الفنية الموروثة وبين ارضاء الممدوحين وبين منزلتها في البلاغة حيث ربط بينها وبين البلاغة في الأصل اللغوى وذلك حيث يقول في تعريف البلاغة (البلاغة من قولهم: بلغتُ الغاية إذا انتهيتُ إليها وبلغتُها غيرى، وَمَبلَغُ الشيء مُنتهاه، والمبالغةُ فى الشيء الانتهاءُ إلى غايته.

فسميت البلاغة بلاغةً لأنها تنهي المعني إلى قلب السامع فيفهمَه)(٣). ولذلك جاءت لفظة (البليغ) عنده مرادفة للفظ (المبالغة) فقال في تعليق على قول عمرو بن معديكرب:

ولـقـد أجمـع رجـلـيّ بـهـا   حـذرَ المـوتِ وانـي لـفـرور

(.... وقال بعض أهل الأدب إنما هو «لقرور» بالقاف، لأن الشجاع لا يمدح نفسه بالفرار سيا باللفظ البليغ من «فرور»(٤).

---

(١) ديوان المعاني: ٢٦/١
(٢) الصناعتين: ٥٩
(٣) المصدر السابق: ١٢
(٤) ديوان المعاني: ١١١/١

وجاءت «أبلغ» عنده بمعنى أكثر مبالغة فهو يقول: (أبلغ ما قيل في مساعدة الرجل أخاه وأجوده قول دريد بن الصمة.... :

أمرتُهُمُ أمرى بمنعرجِ اللوى فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد
فلما عصوني كنتُ منهم وقد أرى غوايتهم إني بهم غيرُ مهتدى
وما أنا إلا من غزية إن غوت غويتُ وإن ترشد غزيةُ أرْشُدِ

.... ووجه المبالغة في هذا الكلام أنه أخبر بموافقة أخيه على علمه بأنها غي وترك مخالفته مع معرفته أنها رشد كراهة الخروج من هواه وترك مطابقته على رضاه)(١).

ويقول: (وأبلغ ما قيل في طول الفرس في الهواء قول أبي دؤاد:

إذا ما جرى شأوين وابتلّ عطفُه أناخَ بهادٍ مثلَ جذعِ سحوق
كأني إذا عاليتُ حوزةَ متنهِ تعلق بُرْى عند بيض أنوق(٢)

وبيض الأنوق في أعلى موضع من الجبل، فلا ترى أشد مبالغة من هذا البيت)(٣). ويمكن أن نقيس على هذا قوله:

(ويستحب في الخيل سعة المنخرين فمن أبلغ ما قيل في ذلك قول مزاحم ابن طفيل العقيلي: ٭ من منخر كوجار الثعلب الخَرِبُ ٭

فجعله خَربا ليكون أوسع(٤)

وقوله: (ومن أبلغ ما قيل في طولِ عُنق الفرس قول مزاحم العقيلي أيضا:

---

(١) المصدر السابق: ١/١٢٢.

(٢) برى: البره الخلخال والجمع براة وبرًى وبرين وجاءت على بُرْى هنا للضرورة.

(٣) الأنوق: الرخمة.. وفي المثل أعز من بيض الأنوق لأنها تحرزه فلا يكاد يظفر به لأن أوكارها في رؤوس الجبال والأماكن الصعبة.

(٤) ديوان المعاني ٢/١١٢

كـــأن هـــاديـــــه　　　　جذع على شرف

فـلـم يـرى أن جـعلها جذعا حتى جعلها على شرف كصنيع الخنساء في قولها :

* كأنه علم في رأسه نار * (١)

ولذلك استطاع أن يقول عن الاستعارة في قوله تعالى :

« وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا » (٢)

« وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا » (٣)

(وهـذا أبـلـغ من قـولـه سبحانه :

« وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا » (٤)

وإن كان قولــه : «ولا يظلمـون شيئـا» أنفى لقليـل الظلم وكثيره في الظـاهـر، وكـذلـك قوله تعالى :

« مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ » (٥)

أبلـغ من قوله تعالى : (لا يملكون شيئا) وإن كان هذا أنفى لجميع ما يملك في الظاهر)(٦).

فـلولا أن هـدفـه المبـالغة بقوله (أبلغ) لما استطاع أن يفاضل بين آيات الكتاب الكريم في البلاغة.

وبـفـضـل هذه الموافقة عنده بين البلاغة والمبالغة سمت المبالغة عنده إلى درجـة جـعلها بها تسمية لكل كتاب من كتب أبواب كتابه ديوان المعاني لما رأى أن يجـعـل (كـل باب منه ينفرد بنفسه، ويتميز من جنسه ليخف محمله

---

(١) المصدر السابق: ٢/١١٠

(٢) النساء: ١٢٤.

(٣) سورة النساء: ٤٩

(٤) سورة مريم: ٦٠

ويقرب مأخذه)(١). فمثلا سمى الباب الأول بكتاب المبالغة في المديح والتهاني والافتخار.

ولقد تحدث أبو هلال عن كل من الغلو والمبالغة في كتابه الصناعتين في فصل منفرد ضمن فصول باب البديع. وتعريفه لكل منها يظهر فرقا في الدرجة بينها اذ يعرف الغلو بقوله: (الغلو: تجاوز الحد في المعني والارتفاع فيه إلى غاية لايكاد يبلغها)(٢). فالغلو فيه خروج عن الحدود المفروضة للمعني، بينا لايكون في المبالغة ذلك الخروج وإنما هي البلوغ بالمعنى— كما قال أبوهلال— (أقصى غاياته، وأبعد نهاياته، ولاتقتصر في العبارة عنه على أدنى منازله، وأقرب مراتبه)(٣). ويتفق هذا المعنى للمبالغة مع الدلالة المعجمية لها التي سبق عرضها، والتي أوردها أبوهلال في تعريفه للبلاغة(٤).

ولنقف الآن قليلا أمام الفصلين، لنرى تحقق الفرق الظاهر في التعريف بينها. ففي الغلو يمكن أن نصنف الأمثلة التي أوردها فيما يلي:

١ — الخروج عن الحدود المفترضة للمعنى والتي قيست بمقياس التحقق في الواقع الخارجي. فمن ذلك تمثيله بقوله تعالى:

« وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ » (٥)

وقول تأبطرا:

ويوم كيوم العيكتين وعِطْفَةٍ عطفتُ وقد مس القلوب الحناجرُ

وبقوله تعالى:

« وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ » (٦)

---

(١) ديوان المعاني: ١/١٤ (٢) الصناعتين: ٣٦٩

(٣) المصدر السابق: ٣٧٨ (٤) المصدر السابق: ١٢

(٥) الأحزاب : ١٠   (٦) سورة إبراهيم : ٤٦

وقوله سبحانه :

« وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ » (١)

وقول امرئ القيس :

من القاصرات الطرفِ لودب محولٍ   من الذر فوق الأُتْبِ منها لأثّرا

وقول أبى الطحان :

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم   دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبة

٢ ـ تعليق الأمر الممكن على ما يستحيل وقوعه فمن ذلك تمثيله بقوله تعالى :

« وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ » (٢)

ويقول الشاعر :

إذا زال عنكم أسودُ العين كنتم   كراما وأنتم ما أقام ألائم

ويقول الآخر :

فرجّى الخير وانتظرى إيابي   اذا ما القارظ العنزى آبا

ويقول النابغة :

فإنك سوف تَحْلُم أو تناهى   إذا ما شبْتَ أو شابَ الغرابُ

ويمكن أن نجعل من ذلك تمثيله بقول الطّرماح فيما بعد البيت الأول :

تميمٌ بِطُرْقِ اللؤم أهدى من القطا   ولو سلكت سُبْلَ المكارم ضلّتِ

ولو أن برغوثا على ظهر قملةٍ   يَكرُّ على صفّىْ تميم لولتِ

ولو أنّ أمّ العنكبوتِ بنت لها   مظلّتها يوم الندى لاستظلّتِ

ولو جمعت يوما تميم جموعَها   على ذرّة معقولة لاستقلتِ

ولو أن برغوثا يزقق مسكه   إذن نهلت منه تميم وعلتِ

مع أن الطرماح لم يكتف بالتعليق على المستحيل ، ولكن أقام من تلك

المستحيلات تمثيلا هزليا لذلة هذه القبيلة وجبنها .

(١) سورة القلم : ٥١   (٢) سورة الأعراف : ٤٠

٣ ــ قلب المفاضلة بين المتفاضلين بجعل المفضول أكثر فضلا من الفاضل فمن ذلك تمثيله بقول سكينة بنت الحسين رضي الله عنها وقد أثقلت ابنتها بالدر (١) (ما ألبستها إياه إلا لتفضحه) ويقول الشاعر (٢):

جـاريـة أطـيـبُ مـن طـيبهـا   والـطـيـبُ فـيه المسكُ والعـنـبرُ
ووجـهـهـا أحـسـنُ مـن حُـليـهـا   والـحُـلـيُّ فـيـه الـدرُّ والجـوهرُ

ويقول ابن مطير (٣):

مُخـصَّرةُ الأوسـاط زانـت عـقـودَهـا   بـأحـسـن ممـا زيَّـنـتهـا عـقـودُهـا

٤ ــ رسم صورة هزلية طريفة يقوم بعضها مقام الصور الكاريكاتيرية الآن ، فمن ذلك تمثيله بقول القائل (٤):

لقـد مرّ عبدُ الله في السوق راكبا   لـه حـاجـةٌ مـن أنـفـه ومُطَـرّق
وعـنَّـت لـه في جانب السوق مخطة   تـوهمـت أن الـسوقَ منها سيـغـرقُ
فـأقـذر بـه أنـفـا وأقـذر بـربـه   عـلى وجهه منه كـنيفٌ مـعلّقُ

ويقول أبي نواس يصف قدرا (٥):

ـغـص بحـيـزوم الجرادة صدرُهـا   ويـنـضـج مـا فيهـا بـعـودِ خـلال
تغلى بذكر النـارِ من غير حرِّها   وتُـنْـزلهـا عـفـوا بـغير جِـعَـال
ي القـدر قدر الشيخ بكرُبن وائل   ربـيـع اليـتامي عام كلّ هزالِ

ويقول الآخر في إمام بطيء القراءة (٦):

ذا قرأ « الـعـاديات » في رجب   لم تـفـن آيـاتُـهـا إلـى رجـب
بـل هـو لا يـسـتـطيع في سـنـة   يختم (تـبـت يـدا أبـي لهـب)

(١) الصناعتين : ٣٧١   (٢) المصدر السابق : ٣٧١

(٣) المصدر السابق: ٣٧١ (٤) المصدر السابق: ٣٧٤

(٥) المصدر السابق: ٣٧٤ (٦) المصدر السابق: ٣٧٥

ويقول المؤمل(١):

مـن رأى مـثـل جـبّـتـي تـشـبـه الـبـدر إن بـدا
تـدخـلُ الـيـومَ ثم تـد خـلُ أردفُـهـا غـدا

ويقول الآخر(٢):

أنت في البيت وعرنيـ ـنُك في الدار يطوف

وأما الأمثلة التي أوردها للمبالغة فيمكن أن تصنفها فيما يلي:

١ ـ اختيار كلمة في الكلام لأنها أوفي أداء في غرض الكلام من غير فمن ذلك تمثيل بقوله تعالى:

« وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ » (٣)

حيث يقول: (ولو قال: تذهل كل امرأة عن ولدها لكان بيانا حس وبلاغة كاملة، وانما خص المرضعة للمبالغة، لأن المرضعة أشفق عل ولدها لمعرفتها بحاجته إليها، وأشغف به لقربه منها، ولزومه لا يفارقها ليلا ولا نهارا وعلى حسب القرب تكون المحبة والإلف)(وتمثيله بقوله تعالى:

« كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً » (٥)

حيث يقول:(لوقال: يحسبه الرائي لكان جيدا، ولكن لما أراد المبالغ ذكر الظمآن، لأن حاجته إلى الماء أشد وهو على الماء أحرص)(٦).

٢ ـ الزيادة في المعنى بعد تمامه، وهو النوع الآخر للمبالغة الذى يقول في أبو هلال: (ومن المبالغة نوع آخر، وهو أن يذكر المتكلم حالا لو وقف عليها أجزاءه في غرضه منها فيجاوز ذلك حتى يزيد في المعنى زياد تؤكده، وتلحق به لاحقة تؤيده)(٧).

(١) المصدر السابق: ٣٧٤ (٢) المصدر السابق: ٣٧٤

(١) المصدر السابق: ... (٢) المصدر السابق: ١٧٤

(٣) سورة الحج: ٢ (٤) الصناعتين: ٣٧٨

(٥) سورة النور: ٣٩ (٦) الصناعتين: ٣٧٨

(٧) المصدر السابق: ٣٧٨، ٣٧٩

وهذا النوع هو الذى أورده قدامة بن جعفر تعريفا للمبالغة (١) وجميع أمثلة أبي هلال مأخوذة من أمثلة قدامة، ما عدا ما أورده من كتابة له في فصل إلى بعض أهل الأدب (٢). وهى مقيسة على تلك الأمثلة. فمن تلك الأمثلة:

قول عمير بن الأيهم التغلبي

ونكرم جارنا مادام فينا ونتبعه الكرامة حيث مالا

(فإكرامهم للجار مادام فيهم مكرمة، واتباعهم اياه الكرامة حيث مال من المبالغة)(٣).

وقول الحكم الخضرى:

أقبح من قرد، وأبخل بالقرى من الكلب أمسى وهو غرثان أعجف

(فالكلب بخيل على ما ظفر به، وهو أشد بخلا إذا كان جائعا أعجف)(٤)

وبالنظر إلى كل نوع في حدود أمثلته فاننا لانستطيع أن نفرق بين الغلو والمبالغة إلا على أساس أن المبالغة ما كان فيها اختيار كلمة يكون أكثر مبالغة في المعنى من غيرها، أوما جاءت فيه الزيادة بعد تمام المعنى، مع أن الفرق بين التعريفين يظهر لنا أن الغلو يجاوز حد المعنى إلى غاية لا يكاد يبلغها، بينما المبالغة لاتبلغ ذلك وإنما تقف عند نهاية الغاية، ولكن الأمثلة قصرت عن استيعاب أنواع الأمثلة التي تقف عند الغاية. ولعل هذا يرجع إلى عدم استطاعة أبي هلال التفريق عمليا بينها وعن تفريق أبي هلال بين الغلو والمبالغة يقول الدكتور أحمد ابراهيم موسى

الغلو والمبالغة. يقول الدكتور أحمد إبراهيم موسى.

---

(١) نقد الشعر: ٤٦

(٢) انظر الصناعتين: ٣٧٩، ٣٨٠

(٣) المصدر السابق: ٣٧٩

(٤) المصدر السابق: ٢٧٩

(وهذا مظهر من مظاهر تهذيب أبي هلال لمنحى السابقين عليه كان المتقدمون ولا سيا قدامة يستعملون الغلو والمبالغة على أنهما متواردتان على معنى واحد، أما أبوهلال فقد جعلهما لونين، وعرّف واحد منهما بتعريف يخصه، ولعل أبا هلال لم يسبق بتلك التفرقة فاني على مبلغ جهدي ــ أحداً من السابقين قد فرق بينهما) (١).

ولكن معاصره الحاتمي المتوفي سنة ٣٨٨هـ. حاول أن يفرق بي سنرى عند الحديث عنه.

وبعد أن تحدث الدكتور أحمد إبراهيم موسى عن الغلو ونوعي اللذين أوردهما أبوهلال قال: (وهكذا يتم على يد أبي هلال تنويع الى ثلاثة الأنواع التي عرفها بها المتأخرون مع مباينة طفيفة، وهذا الأخيرــ يقصد نوع المبالغة الذى نقله أبوهلال عن قدامة ــ عرف باسم الإغراق) (٢).

ولكن المدقق لا يرى هذا التنويع لديه إذ لا نجده يفصح بذكر أوالإغراق. وأما القسم الذى رأى الدكتور أنه «الإغراق الذى عر المتأخرين» فليس هو، إذ إنه عند المتأخرين يطلق على ما امتن لا عقلا (٣). وأمثلة أبي هلال التي نقلها عن قدامة لا ينطبق عليها ذل انطبق ذلك على قول عمير بن الأيهم التغلبي:

ونكرم جارنا مادام فينا ونتبعه الكرامة حيث

من بعض الوجوه حيث يقول الدسوقي: (واعلم أن هذا البيت إنما للإغراق إذا حمل قوله (ونتبعه الكرامة حيث مالا) على أن المراد

الإحسان إليه الدافع لحاجته وحاجة عياله بعد ارتحاله عنهم وكونه مع وأما إن حمل على أن المراد إعطاء الجار الزاد عند ارتحاله وسفره

(١) الصيغ البديعي في اللغة العربية : ٢٦٦ (٢) المصدر السابق : ١٦٧

(٣) الإيضاح ضمن شروح التلخيص : ٤/ ٢٦٠

جهة فلا يصلح مثالا لأن هذا لا يستحيل عادة اذ هذا شائع عند الأسخياء وأصحاب المروءات)[١].

وقد استعمل أبو هلال مصطلح الإفراط، ويرتبط عنده هذا المصطلح بالغلو فلقد قال تحت فصل الغلو «ومثله في الإفراط قول آخر في إمام طيء القراءة[٢]:

إن قرأ العاديات في رجب ... لم تفن آياتُها إلى رجب

بل هو لا يستطيعُ في سنة ... يختِمُ (تبت يدا أبي لهب)

ثم قال بعد ذلك «ومن الناس من يكره الإفراط الشديد ويعيبه ..»[٣].

٧ ـ عند الباقلاني:

وهو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، المتوفى سنة ٤٠٦ هـ وقد تحدث في كتابه «اعجاز القرآن» عن المبالغة والغلو كنوعين من أنواع البديع الذى اعتبر بعضهم ـ كما يشير بذلك هو ـ وجود أنواعه في القرآن الكريم وجها من وجوه اعجازه[٤]، وعرف المبالغة بأنها: تأكيد معاني القول[٥] ونلاحظ خروج هذا التعريف بالمبالغة عن الزيادة في المعني التي رأيناها عند قدامة بن جعفر وأبي هلال العسكرى، والتركيز على قيمة التأكيد في المبالغة، ولكنه مع ذلك يقف عند الحكم بالمبالغة أو توكيد المعنى دون تدبر لأسباب هذا القصد في التوكيد والمبالغة أوبيان قيمته في سياق الكلام وقد مثل لها بمثالين من تلك الأمثلة التي أوردها قدامة بن جعفر فمثّل لها بقول عمير بن الأيهم التغلبي:

ونحرم جارنا مادام فينا ونتبعه الكرامة حيث مالا

---

(١) حاشية الدسوقي على شرح السعد: ٤/ ٣٦٠

(٢) الصناعتين: ٣٧٥ (٣) المصدر السابق: ٣٧٥

(٤) إعجاز القرآن: ١١١ (٥) المصدر السابق: ٩١

وقول الاخر:

هـم تركوك أسلح من حبارى رأت صقرا وأشرد من نعام(١)

أما الغلو فقد ربطه الباقلاني بالإفراط في الصفة — وهي سنة رأيناها عند أكثر النقاد في ربط الغلو بالإفراط — حيث يقول: (ومن البديع عندهم: الغلو والإفراط في الصفة)(٢). ولم يورد لنا تعريفا له بل يكتفي بإيراد الأمثلة التي رأينا بعضها عند قدامة وأبي هلال كبيتي النمر بن تولب في صفة السيف(٣)، وكقول النابغة(٤):

تقد السلوقيّ المضاعف نسجه ويوقدن بالصفّاح نار الحُبَاحِب

وكقول البحترى(٥):

ولو أن مشتاقا تكلّف فوق ما في وُسعِه لسعى إليك المنبرُ

ويضيف إليها قول عنترة(٦):

فازورّ من وقع القنا بلبانِهِ وشكا إليّ بعبرة وتَحمحُمِ

الذى اعتبره الحاتمي مبالغةً لا تخرج إلى درجة الغلو(٧).

ثم يقول الباقلاني: (ومن هذا الجنس — أى الغلو — في القرآن:

« يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ » (٨)

وقوله:

« إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا » (٩)

وقوله:

« تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ » (١٠)

(١) المصدر السابق: ٩١، ونقد الشعر: ١٤٦، ١٤٧
(٢) إعجاز القرآن: ٧٧ (٣) الصناعتين: ٣٧٣، ونقد الشعر: ٩٢، إعجاز القرآن: ٧٧
(٤) إعجاز القرآن: ٧٧ (٥) الصناعتين: ٣٧٦، اعجاز القرآن: ٧٨
(٦) إعجاز القرآن: ٧٧ (٧) الرسالة الموضحة: ٩٤
(٨) سورة ق: ٣٠ (٩) الفرقان: ١٢
(١٠) الملك: ٨

ولم يجعل هذا داخلا تحت المبالغة إلا لأنه يرى فيه اسناد الفعل إلى فاعل لا يعقل قيامه به على جهة التصور المنطقي البشرى، فجهنم لا تقول، ولا تغتاط، ولا تزفر، ولا تكاد تميز من الغيظ (١)

ونقل فصل الرماني عن المبالغة الذى ناقشناه سابقا، وقال عنه: (وما حكينا عن صاحب الكلام من المبالغة في اللفظ — فليس بطريق الإعجاز، لأن الوجوه التي قد ذكرها قد تتفق في كلام غيره، وليس ذلك بمعجز، بل قد يصح أن يقع في المبالغة في المعنى والصفة، وجوه من اللفظ تثمر الإعجاز) (٢) فهو لا يرى للمبالغة في اللفظ وجها من وجوه الإعجاز، ولكن المبالغة في المعنى والصفة قد تقع فيها وجوه من اللفظ تثمر الإعجاز.

٨ — عند نقاد آخرين:

قبل أن نختتم هذا الفصل نود أن نشير إلى المبالغة، ومصطلحاتها عند نقاد كان لهم موقف في نقد الشعر والآدب في هذا القرن، فنهم من جمع تراجم الشعراء وأخبارهم، وما وجه اليهم من نقدات. كالمرزباني المتوفى سنة ٣٨٤ هـ، أو الخالديين صاحبا (الأشباه والنظائر)، ابني هاشم المتوفى أولها: أبوبكر محمد سنة ٣٨٠ هـ، والمتوفى ثانيها أبوعثمان سعيد سنة ٣٩٠ هـ.

ومنهم من دفعهم انشغال الناس بأمر أبي الطيب المتنبي، وشوارده إلى وضع الرسائل والكتب في النيل منه والتهجم عليه كالحاتمي: أبي علي محمد ابن الحسن الحاتمي الكاتب المتوفى سنة ٣٨٨ هـ صاحب (الرسالة الموضحة)

أووضع الكتب في التوسط بين خصومه وأنصاره كالقاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني المتوفي سنة ٣٩٢هـ. الذى وضع (الوساطة بين المتنبي وخصومه).

---

(١) إعجاز القرآن: ٧٨ (٢) المصدر السابق: ٢٨٣

ولقد كانت أسماؤها عند هؤلاء، تتراوح بين الغلو(١)، والمبالغة (٢ والإفراط (٣)، والإغراق (٤)، وبلوغ النهاية في الغرض (٥).

وأما التفريق بين هذه الأسماء فلم يكن واضحا عند بعضهم، اذ الخالديين مثلا يصفان كلا من المبالغة والإغراق بالإحالة، إذ قالا في مو (فأما قول ابن الرومي:

تُغَلغَلَ الرُّمح في الدرع التي رُتقتْ رتقاً فلو صُبَّ فيها الماءُ ما رشَحا

فهو عندنا خطأ لأن هذه الصفة بالسور الحديد أولى منها بصفة الدر وهذا من المبالغة التي تحيل المعنى (٦).

وقالا في موضع آخر تعليقا على قول عبيد بن ناقد:

فسائلْ هوازنَ عن وقعِنا وحيَّ تميمٍ وهُمَامِها
عشيّةَ لولا حياء النساء لسقنا الديار وآطامها

وأما قوله: «عشية لولا حياء النساء... البيت» إغراق في الوص شديد وإياه أراد البحترى بقوله:

وأنزلت ما فوق المعاقلِ منهم فلم يبقَ الا أنْ تسوق المعاقلا

وبيت البحترى أحسن من الأول وأصح لأن البحترى أوقع شكا بيته، وهذا ذكر أنه لولا حياؤهم من النساء لساقوا الديار والآطام و محال (٧).

(١) الرسالة الموضحة: ٩٤، ٩٧ ــ الموشح: ٤٥٦

(٢) الرسالة الموضحة: ٧١، ٩٤، ٩٧ ــ الأشباه والنظائر: ١/١٥٧ ــ الوساطة: ٤٢٣.

(٣) الرسالة الموضحة: ٨١، الموشح: ٤٤١، ٤٤٢، الوساطة: ٤٢٠، ٤٢٧، ٤٢٨

(٤) الرسالة الموضحة: ٩٤، الأشباه والنظائر: ١/٦٠، ١/١٦٢، ٢/٣

(٥) الأشباه والنظائر: ٢/٧٦، ٢/٢٣٩ ــ الوساطة: ٤٢٣

(٦) الأشباه والنظائر: ٢/١٥٦، ١٥٧

(٧) الأشباه والنظائر: ٢/١، ٣

ولقد كانت الإحالة عند هؤلاء هي الدرجة القصوى في المبالغة وهي التي لا يرضون بالخروج إليها كما رأينا عند الخالديين، وكما نلحظه من قول صاحب (الوساطة) فأما الإفراط فمذهب عام في المحدثين، وموجود كثير في الأوائل والناس فيه مختلفون، فمستحسن قابل، ومستقبح راد، وله رسوم متى وقف الشاعر عندها، ولم يتجاوز الوصف حدها جمع بين القصد والاستيفاء وسلم من النقص والاعتداء، فإذا تجاوزها اتسعت له الغاية، وأدته الحال إلى الإحالة، وإنما الإحالة نتيجة الإفراط، وشعبة من الإغراق والباب واحد، ولكن له درج ومراتب» (١).

ومن مرويات المرزباني التي يظهر فيها التبرم والاستياء من الإحالة ما أورده في (موشحه) بسند عن عبد الله بن يوسف أبي عبد الرحمن السمرقندى الضرير الخارج مع سيار بن رافع على المأمون ــ وكان راوية أديبا ــ قال: رأيت مسلم بن الوليد بجرجان وهو يتولاها مقدمي من مدينة السلام فسألني عمن خلفت بها من الشعراء، فقلت: خلفت بها كوفيا وبصريا قد غلبا على الشعر، أما من الكوفيين فأبو العتاهية، وهو مقدم عندهم، ومن البصريين أبو نواس، فقال: كيف يتقدم عندهم أبو العتاهية وهو يقول:

* رويدك يا إنسانُ لا أنت تقفز *

أخرجت «تقفز» من فم شاعر محسن قط ؟! وأما أبو نواس فحيل

ويصف المخلوقين بصفة الخالق عزوجل فيما احال فيه قوله :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافُك النطفُ التي لم تخلق

وهذا محال . وقوله :

تَكِلُّ عَن إدراكِ تحصيلهِ عيونُ أوهامِ الضمايرِ

تنتسب الألسن من وصفه إلى مدى عجزٍ وتقصيرِ

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه : ٤٢٠

وقوله :

* بريء من الأشباه ليس له مثلُ * (٦)

والذى يلفت النظر أن هؤلاء النقاد كانوا يحسون بالفرق بين درجات المبالغة فهناك مبالغة تحيل المعنى وهناك مبالغة لا تحيله كما رأينا عند الخالديين .

ولباب المبالغة درج ومراتب كما يقول القاضي عبدالعزيز الجرجاني .

ولقد حاول الحاتمي أن يفرق بين الغلو والمبالغة وأن يجعل لكل منها اسمه الذى لا يختلط بالآخر... وأن يجعل من ذلك التفريق دراية له بالشعر لا يعلمها المتنبي الذى لا يفرق بينهما على حسب زعمه في (موضحته) إذ يقول حاكيا إجابته لأبي الطيب المتنبي عن سؤاله الذى حكاه عنه :« وهل بين الغلو والمبالغة فرق ؟ » . (فقلت : كل الفرق) .

قال عنترة يصف فرسه :

فازورّ عن وقع القنا بِلَبّانِه وشكا إلى بعبرة وتحمحم

فجعل اشتكاء الفرس إليه، إذ كان من الحيوان الذى لا ينطق بحمحمته وعبرته دون النطق والعبارة فلم يخرجه عما هو له ، ثم كثف المعنى في البيت الأخير:

لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمي

وقد اخذ هذا المعنى بشار بن برد واحسن بقوله :

ولما تولى الحرُّ واعتصر الثرى   لظى القيظ من نجمٍ توقّد لاهبُه
وطارت عصافير الشقائق واكتسى   من الآل أمثال المجرة قاصبه
غدت عانة تشكو بأبصارها الصّدى   إلى الجأب إلا أنها لا تخاطبه

فهذه المبالغة في الوصف من غير عدول عن الحقيقة ، ونحو قول ابن هرمة واصفا كلبا :

---

(١) الموشح : ٤٠٢ ، ٤٠٣ .

يكاد إذا ما أبصر الضيف مقبلا   يُكَلّمُه من حبه وهو أعجمُ

فقرن بهذه المبالغة «يكاد» فأخرجه عن الغلو الذى يبتعد عن الحقيقة ، وانظر إلى قول المثقب العبدى في هذا المعنى حاكيا عن ناقته ما يبعد كل البعد عن الحقيقة :

تقول إذا درأت لها وضيني   أهذا دينه أبدا وديني
أكل الدهر حل وارتحال   أما يبقي على ولا يقيني

فهذا هو الغلو البعيد كل البعد عن الحقيقة . وإنما ذهب إلى أن الناقة لو تكلمت لأعربت عن شكواها بمثل هذا القول) (١) .

وهذا التفريق الذى وضحه الحاتمي بينها يقوم على درجة إمكان قيام من أسند إليه الفعل ، فان كان الشاعر لم يتورط فينسب للفاعل ما لا يمكنه القيام به فهو جار على الحقيقة .... وإن نسب له ما لا يقوم به مستدلا بدلائل وإشارات يمكن أن يقوم بها كالشكوى من الحيوان بالنظر أو العبرة أو التحمحم فهذا هو المبالغة في الوصف من غير عدول عن الحقيقة ... وإن كان ما نسبه إليه شيئا لا يمكن قيامه به كالقول بالنسبة للحيوان ، فهذا هو البعد عن الحقيقة كل البعد ، الذى يسميه الحاتمي بالغلو.

وهذا التفريق الحاتمي بين الحقيقة والمبالغة والغلو يظهر لنا أن التفاوت

الذى وصفه بينهما، هو التفاوت الذى سار بينها على أساس النظر العقلي، والحكم على التخييل من خلال الواقع الخارجي.

(١) الرسالة الموضحة: ٩٤ ـ ٩٧ الوضين: قال في اللسان عن الجوهرى الوضين للهودج بمنزلة البطان للقتب والتصدير للرحل والحزام للسرج وهما كالنسع إلا أنهما من السيور إذا نسج نساجه بعضها على بعض والجمع وضن (لسان العرب: وضن).

الفصل الثاني
المبالغة ومصطلحاتها عند علماء القرن الخامس الهجرى

لقد رأينا في الفصل السابق تطور الحركة النقدية ، التي اتخذت اتجاهات شتى تبدو في جمع الشعر وأخبار الشعراء ، ومحاولة وضع معايير وقواعد للشعر وعقد الموازنات بين الشعراء ، واتخاذ موقف من المواقف تجاه شاعر معين ، والبحث عن وجه الإعجاز في القرآن الكريم ، ووجوه البلاغة في الشعر والنثر.

ولقد كان للمبالغة نصيب في كل هذه الاتجاهات ، فهي ترد كخبر عن الشعراء المفرطين ، وتأتي كقاعدة يستحسن حذوها أوالابتعاد عنها عند وضع القواعد والمعايير ، وتبحث صورها في القرآن الكريم . وفي هذا الفصل سنتابع تطور فكرة المبالغة ، عبر تطور الحركة الفكرية في هذا القرن ، لنرى كيف يتأثر البحث في المبالغة بالاتجاه الفكرى ، كما سنرى عند المعتزلة .

وسنتطرق في هذا الفصل للحديث عن المبالغة عند الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨هـ . لأنه وإن عاش عمرا في القرن السادس ، إلا أننا لا نستطيع أن نفصل بين اتجاهه في كلا القرنين.

وقد كانت الوقفة في الفصل السابق أمام من تناول المبالغة وقفة فيها بعض التأني وذلك لأننا كنا نتابع الفكرة من بدايتها ، ونتلمس الأوليات ، في زيادة نوع من أنواع المبالغة أو تفريق بين درجاتها ، وفي هذا الفصل لن

تكون الوقفة كذلك، لأن الفكرة قد استقرت والتسمية قد سادت، وسيكون مقدار الوقفة أمام أى عالم بقدر ما يضيف من جديد، أوينقض من قديم، أوبقدر ما يعمق من فكرة تؤثر في لاحقيه.

١ ـ القاضي عبد الجبار

(وهو الذى تلقبه المعتزلة قاضي القضاة، ولا يطلقون هذا اللقب على سواه ولا يعنون به عند الإطلاق غيره، كان إمام أهل الاعتزال في زمانه، وكان ينتحل مذهب الشافعي في الفروع وله التصانيف السائرة، والذكر

الشائع بين الأصوليين)(١) ولقد كان للمعتزلة دور كبير في التأويل في القرآن الكريم بما يوافق مذهبهم. ولقد خصهم ابن تيمية بجزء من حملته التي شنها على المتأولة:

(فالذين أخطأوا في الدليل والمدلول مثل طوائف من أهل البدع اعتقدوا مذهبا يخالف الحق الذى عليه الوسط الذين لا يجتمعون على ضلالة كسلف الأمة وأئمتها، وعمدوا إلى القرآن فتأولوه على آرائهم تارة ويستدلون بآيات على مذهبهم ولا دلالة فيها، وتارة يتأولون ما يخالف مذهبهم بما يحرفون الكلام عن مواضعه ومن هؤلاء فرق الخوارج، والروافض، والجهمية، والمعتزلة، والقدرية والمرجئة وهذا كالمعتزلة مثلا فإنهم من أعظم الناس جدلا، وقد صنفوا تفاسير على أصول مذهبهم مثل تفسير عبد الرحمن بن كيسان الأصم... ومثل كتاب أبي علي الجبائي، والتفسير الكبير للقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني، والجامع لعلم القرآن لعلي بن عيسى الرماني، والكشاف لأبي القاسم الزمخشرى، فهؤلاء وأمثالهم اعتقدوا مذهب المعتزلة)(٢).

ولقد كانت المبالغة وجها من وجوه التوفيق بين ظاهر الآيات القرآنية ومذهبهم فالقاضي مثلا يقول:

(قالوا: ثم ذكر تعالى ... ما يدل على أنه خلق أعمال العباد فقال:

« بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ » (٣)

وهذا وما تقدم مما لا ريب في عمومه، فيجب دخول اكتساب العبد تحته. ويجيب عن ذلك بعدة أجوبة تخرج أفعال العبد من هذا العموم ومن بينها المبالغة التي وجد فيها مخرجا يمكن أن يتعلق به لإثبات مذهبه. من بين

(١) طبقات الشافعية: ٥/٩٧ (٢) مقدمة في التفسير: ٨١

(٣) سورة الأنعام: ١٠١ — ١٠٢

المخارج التي أوردها والتي نكتفي هنا بإيراد بعضها: يقول «والجواب عن ذلك أن ظاهر (وخلق) يقتضي أنه قدر، ودبر ولا يوجب في اللغة أنه فعل ذلك وأحدثه ولذلك قال الشاعر:

ولأنت تفري ما خلقت وبعـــ ــض القوم يخلق ثم لا يفري

فأثبته خالق من حيث قدر ودبر، وإن لم يفر الأديم. ومتى حمل الكلام على هذا الوجه كان حقيقته: أنه تعالى وإن لم يحدث أفعال العباد، فقد قدرها ودبرها وبين أحوالها، فهذا وجه. وقد قال بعض العلماء: إن هذه اللفظة في الإثبات ليس المقصد بها التعميم كما يقصد ذلك في النفي، لأن القائل يقول: أكلت كل شيء، وتحدثنا بكل شيء، وفعلت كل شيء، وقال تعالى:

« تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ » (١) و « مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ » (٢)

وقال تعالى:

« تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا » (٣)

وقال

« يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٖ » (٤)

وإنما القصد بذلك المبالغة في الكثير من ذلك النوع المذكور، قال: ولا يعرف هذا الكلام في باب الإخبار عما يفعل الإنسان عما يحدث مستعملا إلا على هذا الوجه، فلا يصح أن يدعي فيه العموم فهذا وجه ثان. ومما يقال في ذلك: وقوله تعالى: (خالق كل شيء) على ما يصح أن يقدر عليه فيجب أن نبين أن أفعال العباد يصح ذلك فيها حتى يتضمنها العموم، كما أن الدلالة العقلية إذا دلت على أنه تعالى يفعل أمورا فإنما تدل بعد تقدم

(١) سورة النحل: ٨٩ (٢) سورة الأنعام: ٣٨
(٣) سورة الأحقاف: ٢٥ (٤) سورة القصص: ٥٧

العلم بأن كان قادرا عليها، وما ترتب على شرط غير مذكور تجب معرفته لا يمكن ادعاء العموم فيه.....)(١).

وقد سبق أن رأينا هذا الإشكال عند الرماني وقد وجد في المبالغة المخرج منه(٢). ويجيب على من استدل بقوله تعالى:

« وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ » (٣)

على أن المكان يجوز عليه سبحانه وتعالى لأن «فوق» انما تستعمل في اللغة بمعنى المكان إذا علا على مكان غيره قائلا: (والجواب على ذلك: أنه قد نبه في الكلام على ما أراد بقوله: (وهو القاهر) ثم ذكر ما يقتضي بيان حاله في ذلك فقال: (فوق عباده) وهذا كقوله: (يد الله فوق أيديهم) ومتى قيل هذا القول في بعض الأوصاف فالمراد به المبالغة في تلك الصفة، لأنا إذا قلنا: زيد عالم (فوق غيره) فإنما يفهم منه المبالغة فيما قدمناه من الصفة، يبين ذلك أنا إن حملنا الآية على ظاهرها وجب كونه في السماء فقط، وينتقض ما تقدم من استدلالهم على أنه في السموات والأرضين)(٤).

وقد تبعه في ذلك الحاكم الجشمي فقال عند قوله تعالى: (وهو القاهر

فوق عباده) وهو القادر والغالب على كل شيء ــ فوق عباده ــ أي عال عليهم بالقهر والغلبة وهي مبالغة في صفة الله بالقدرة العالية.. لأن الجهات لا تجوز عليه، لأنه ليس بجسم)([5]).

ومع اعتراف القاضي بأن في قوله تعالى:(قال الذى عنده علم من الكتاب: أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) تقوية من الله تعالى على ذلك وان لا منتهى لحدود تلك القدرة في السرعة إلا أن التصور البشري

(١) متشابه القرآن: ٢٥١، ٢٥٢ (٢) النكت في إعجاز القرآن: ١٠٤

(٣) سورة الأنعام: ١٨ (٤) متشابه القرآن: ٢٣٧، ١٢٨.

(٥) تهذيب التفسير ورقة: ٢٦ من المخطوط رقم ب ٢٧٦١٨ نقلاً عن بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار: ٦٣٨

المحدود والنظر العقلي لا يزالان به يقفان به عن تصور حدود تلك القدرة الغيبية فيحكم عليها بالمبالغة يقول في ذلك:

(كيف يصح نقل عرشها من ذلك الموضع البعيد في هذا القدر من الأوقات وأن ذلك معلومة استحالته؟ وجوابنا أن سرعة الحركة والتحريك لا يعلم منتهى حده فلا سريع إلا ويجوز أسرع منه، فلا يمتنع صحة ذلك إذا كان الله تعالى مقويا له عليه ــ ويعني قبل أن يرتد إليك طرفك المبالغة في الإسراع لأن ذلك قد يقال في الأمر السريع الشديد السرعة)([1]).

وقد جاراه الزمخشري في ذلك فقال:(يجوز أن يكون هذا مثلا لاستقصار مدة المجيء به، كما تقول لصاحبك: أفعل كذا في لحظة. وفي رده طرف وما أشبه ذلك، تريد السرعة)([2]). (فقد تطابقا في أن الآية جارية على غير حقيقتها، إلا أن الزمخشري أطلق على مثل هذا الأسلوب ــ مثلا ــ والقاضي أطلق عليه ــ مبالغة)([3]).

٢ ــ أبو منصور الثعالبي

عبد الملك بن محمد بن إسماعيل المتوفى سنه ٤٢٩ او ٤٣٠ هـ.

له مصنفات كثيرة في الأدب واللغة، أشهرها يتيمة الدهر، وخاص الخاص، وفقه اللغة.

وسنبين الآن كيفية تناوله للمبالغة في المجالين اللغوى والأدبي.

ففي المجال الأدبي كان تناوله لها في يتيمة الدهر مثلا لا يختلف عن تناول السابقين لها. ولم يستخدم تفريقهم بين درجاتها بل نجده يمزج الإفراط بالمبالغة وبالإحالة فيذكر من معائب أبي الطيب المتنبي (الإفراط في المبالغة والخروج إلى الإحالة) ويستشهد لذلك بعدة أقوال للمتنبي منها قوله:

ونالوا ما اشتهوا بالحزم هونا   وصاد الوحش نملهم دبيبا

(١) تنزيه القرآن عن المطاعن: ٣٠٣   (٢) الكشاف: ٣/٢٩٠

(٣) بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار: ٦٩٣

وقوله:

وضاقت الأرض حتى صار هاربُهم   إذا رأى غير شيء ظنه رجلا

فبعده والى ذا اليوم لو ركضت   بالخيل في لهوات الطفل ما سعلا

وقوله:

وأعجب منك كيف قدرت تنشا   وقد أعطيت في المهد الكمالا

وأقسم لو صلحت يمين شيء   لما صَلُح العبادُ له شِمالا

وقوله:

ولو قلم ألقيت في شق رأسه   من السقم ما غيرتُ من خط كاتب

وقوله:

من بعد ما كان ليلى لا صباح له   كأن أول يوم الحشر آخره

ويعلق على ذلك بقوله:

(فهو مما يستهجن في صفة الشعر، على أن كثيراً من النقلة لا يرتضون هذا الإفراط كله) (١).

وقد تناول في كتابه «فقه اللغة وسر العربية» نوع المبالغة الذى رأيناه عند قدامة بن جعفر وأبي هلال العسكرى والذى تأتي فيه المبالغة عن طريق زيادة في المعني بعد إتمام المعنى وقد عبر الثعالبي عن ذلك بـ«زيادة المعنى حسنا بزيادة لفظ» وقال: «هي من سنن العرب، كما تقول:

زيد ليث، إنما شبهته بليث في شجاعته، فإذا قال: زيد كالليث الغضبان زاد المعني حسنا، وكسا الكلام رونقا، كما قال الشاعر:

شددنا شدة الليث غدا والليث غضبان

.... ومن هذا المعنى قول الأعشى:

تروح على آل المحلق جفنةٌ كجابية الشيخ العراقي تفهق

(١) يتيمة الدهر: ١/١٦٤

فشبه الجفنة بالجابية، وهي الحوض، وقيدها بذكر العراقي لأن العراقي إذا كان بالبرّ ولم يعرف مواضع الماء، ومواقع الغيث، فهو على جمع الماء الكثير أحرص من البدوى، العارف بالمنافع والأحساء. وقال ابن الرومي:

من مدام كأنها دمعة المهجور يبكي وعينه مُرْهاءُ

فشبهها بدمعة المهجور في الدقة، وزاد في الدقة بأن وصف عينه بالمره وهو طول العهد بالكحل، ليكون الدمع مع رقته أصفى وأسلم مما يشوبه، وهذا من لطائف الشعراء» (١). ولم يعتبر الثعالبي ذلك مبالغة ولكن تصريحه بزيادة اللفظ يفيد أن المعنى قد تم بدون هذه اللفظة

وأكثر الأمثلة التي ذكرها هنا تدخل أيضا في باب الإيغال الذى ذكره أبوهلال والذى سيأتي ذكره أيضا عند ابن رشيق. وليت شعرى ما الذى دعا الثعالبي إلى الحكم بزيادة مثل هذه الألفاظ وهو الذى رأيناه يشرح لنا مقاصد كل لفظة ويبين أثرها في المعني!!!

ولكنها الحدود المفترضة للمعني هي التي اوقعت النقد العربي في هذه الإشكالات، فالثعالبي مثلا نراه بين تيارين:

تيار الحدود المفترضة للمعني وأن ما زاد علي ذلك فهو زيادة أوحشو، وتيار الإبداع والجمال الذى يلح عليه في هذه الزيادة فيندفع إلى شرحه وبيانه كما رأينا في هذا الفصل الذى سماه بـ(فصل في زيادة المعنى حسنا بزيادة لفظ) وكما فعل في الفصل الآخر الذى قعد فيه إلى ما سماه بالحشو يصنفه ويرتبه إلى مراتب تشده أكثرها إلى الإعجاب بها وإطعامها المستمع مع حشو اللوزينج. فهو يقول: (العرب تقيم حشو الكلام مقام الصلة والزيادة، وتجريه في نظام الكلمة، وهو على ثلاثة أضرب: ضرب منها رديء مذموم كقول الشاعر:

ذكرت أخي فعاودني صداع الرأس والوصب

(١) فقه اللغة وسر العربية: ٣٨٠، ٣٨١.

فذكر الرأس، وهو حشو مستغنى عنه، لأن الصداع مختص بالرأس فلا معنى لذكره معه.. وأما الضرب الأوسط، فكقول امرئ القيس (١):

ألا هل أتاها، والحوادث جمة بأن امرأ القيس بن تملك بيقرا (٢)

فقوله «والحوادث جمة» حشو مستغنى عنه، ولكن لا بأس به في موضعه، وكقول النابغة:

لعمرى، وما عمرى علىَّ بهيّن لقد نطقت بُطلا على الأقارع

فقوله: «وما عمرى علىّ بهيّن» حشو يتم الكلام بدونه، ولكنه محمود لما فيه من تفخيم اللفظ، وتأكيد المراد (٣).

وأما الضرب الثالث، فهو الحشو الحسن اللطيف، كقول عوف بن محلّم:

إن الثمانين، وَبلّغتُها قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

فقوله: «وبلغتها» حشو مستغنى عنه في نظم الكلام، ولكنه حسن في

مكانه، وأوقع في المعنى المقصود، وكان ابن عباد يسمى هذا الحشو حشو اللوزينج، لأن حشو اللوزينج خير من خبزته)(٣). وكانت عباراته في وصف بقية أمثلة هذا الضرب من الحشو تنم عن اعجاب به شديد فهو إما أن يقول(٤): (حشو ولكن ما لحسنه نهاية) أو(حشو ولكن ما لحسنه غاية) أو(حشو يربي على حشو اللوزينج) أو(حشو يجمع الحسن والطيب) أو(حشو يقطر منه ماء الظرف) أو(حشو يعجز الوصف عن حسنه وحلاوته).

(١) هو امرؤ القيس بن تملك أحد المسمين بامرئ القيس من العرب وليس هذا امرأ القيس بن حجر الكندى الشاعر المشهور.

(٢) يقال بيقر الرجل: إذا هاجر من أرض إلى أرض، أو إذا خرج إلى حيث لا يدرى أو إذا نزل الحضر وأقام هناك، وترك قومه بالبادية وحضر بعضهم من العراق قال ابن منظور: وبيت امرئ القيس يحتمل هذا جيعاً.

(٣) فقه اللغة وسر العربية: ٣٨٧، ٣٨٨.

(٤) المصدر السابق: ٣٨٨، ٣٨٩

وأما في مجال الأساليب أو الألفاظ التي وجدت في اللغة للمبالغة فقد حدثنا الثعالبي عن المبالغة بزيادة الهاء(١) التي سبق أن رأيناها عند ابن جنى، وعبّر عن مبالغة بعض الأبنية التي ذكرها ابن جنى كفعّل وتفعّل بـ(معنى التكثير)(٢) ولكنه وقف بنا عند أسلوب لغوى يحمل المبالغة في فصل صغير حدثنا فيه عن اشتقاق نعت الشيء من اسمه عند المبالغة فيه فقال: (ذلك من سنن العرب كقولهم: يوم أيوم، وليل أليل، وروض أريض، وأسد أسيد، وصلب صليب، وصديق صدوق، وظل ظليل، وحرز حريز، وَكِنٌّ كنين، وداء دوىّ)(٣).

٣ ــ الشريف المرتضى

من علماء القرن الخامس الهجرى، كان مخلصا للاعتزال، ومتتبعا لبعض المسائل في الحديث الشريف، والقرآن الكريم، يعلل ظاهرها بالمبالغة أو يأوله على تأويلات مختلفة. ومن ثمّ كان تناوله للمبالغة في أماليه عرضا يعمد

إليه عند الحاجة إلى التعليل كوجه من وجوه التأويل المختلفة التي يحاول بها أن يجد للآية القرآنية أوالحديث النبوى الشريف مفهوما عقليا خاليا من التشابه وموافقا للمعاني المنطقية التي سادت في دراسات البيئة الإسلامية بنشوء علم الكلام والجدل ويتضح ذلك في صنيع الشريف المرتضي في تأويل خبر (ما أدرك الناس من كلام النبوة الأولي إذا لم تستحي فأصنع ما شئت) الوارد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول: (وفي هذا الخبر وجوه التأويل ثلاثة:

أحدها: أن يكون معناه: إذا عملت العمل لله جل وعز لا تستحي من الناظرين إليك، ولا تتخوفهم أن ينسبوك فيه إلى الرياء صنعت ما شئت، لأن فكرك فيهم ومراقبتك لهم، يقطعانك عن استيفاء شروط عملك ويمنعانك من القيام بحدوده وحقوقه، وإذا طرحت الفكر توفرت على استيفاء عملك.

(١) المصدر السابق: ٣٥٢ (٢) المصدر السابق: ٣٦٢، ٣٦٤

(٣) المصدر السابق: ٣٧٢

والوجه الثاني: أن من لم يستحي من المعاير والمخازى والفضائح صنع ما شاء، والظاهر ظاهر أمر، والمعنى معنى تغليظ وإنكار مثل قوله تعالى:

« اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ » (١)

وقوله عزوجل

« فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ » (٢)

وهذا نهاية التغليظ والزجر والإخبار عن كبر الذنب في اطراح الحياء، ويجرى مجرى قولهم: بعد أن فعل فلان كذا فليفعل ما يشاء، وبعد أن أقدم على كذا فليقدم على ما شاء والمعنى المبالغة في عظم ما ارتكبه، وقبح ما اقترفه.

والوجه الثالث: أن يكون معنى الخبر إذا تفعل ما تستحي منه فافعل ما شئت، فكأن معنى الخبر إذا تفعل قبيحا فافعل ما شئت، لأنه لا ...

ضروب القبائح إلا والحياء يصاحبه، ومن شأن فاعله إذا قرع به أن يستحي منه فتى جانب الإنسان مايستحي منه من أفعاله فقد جانب سائر القبائح وما عدا القبيح من الأفعال فهو حسن) (٣).

ويتضح مقدار شحذ الذهن في تصيد بعض هذه الأوجه إذ كان الوجهان الأول والثالث مما يتضح التمحل والتكلف في توجيهها، ولقد كان ذلك مظهراً من مظاهر اشتداد الجدل وخصومات المنطق، التي فتت أجزاء الكلمة إلى معايير عقلية، تصرف النظر عن التلقي الكلي للكلام.

والمبالغة التى فسر بها المرتضي هذا الحديث النبوى الشريف، تحمل دلالتها التي وجدت من أجلها في اللغة وهي الدلالة على التناهي في المعني وبلوغ الغاية فيه كما أوضحنا ذلك سابقا. ولم يخرج بها إلى مجاوزة

(١) سورة فصلت: ٤٠ (٢) سورة الكهف: ٢٩

(٣) آمالي المرتضي: ١/ ٧٥، ٧٦

الحقيقة والزيادة علي المعنى كما فعل كثير من النقاد والمتأولين. وكما يفعل هو ذلك إذا وجد أن تلك الدلالة تخالف مذهبهم في التوحيد فمن ذلك تأويله لخبر: (إذا أحب العبد لقائي أحببت لقاءه، وإذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه، وإذا تقرب إليّ شبرا تقربت إليه ذراعا، وإذا تقرب إليّ ذراعا تقربت إليه باعا) حيث قال: فتأويله ظاهر، وهو خارج على مذهب للعرب في مثل هذا الباب معروف، ومعناه إن ذكرني في نفسه جازيته على ذكره لي، وإذا تقرّب إليّ شبرا جازيته على تقرّبه إليّ، وكذلك الخبر إلى آخره، فسمى المجازاة علي الشيء باسمه اتساعا كما قال تعالي:

«وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا» (١)،

«وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ» (٢)،

« ويمكرون ويمكر الله » (٢)

« اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ » (٣). وكما قال الشاعر:

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنجهلَ فوقَ جهلِ الجاهلينا

ونظائر هذا كثيرة في كلام العرب، ولما أراد تعالى المبالغة في وصف مايفعله به من الثواب والمجازاة على تقربه بالكثرة والزيادة، كنى عن ذلك بذكر المسافة المتضاعفة فقال: (باعا، ذراعا) إشارة إلى المعنى من أبلغ الوجوه وأحسنها) (٤).

وقد وقف المرتضي عند قوله تعالى:

« إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ » (٥).

وقوله سبحانه في موضع آخر

---

(١) الشورى: ٤٠

(٢) سورة الأنفال: ٣٠

(٣) سورة البقرة: ١٥

(٤) آمالي المرتضي: ١/٣٢٧

(٥) سورة آل عمران: ٢١

« وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ » (١)

وكان موضع التساؤل أن ظاهر هذا القول يقتضي أن قتلهم قد يكون بحق وجعل تحت مثل هذا التساؤل قوله تعالى:

« وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ » (٢)

وقوله:

« اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا » (٣)

وقوله:

« وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا » (٤)

وقوله تعالى:

«لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا» (٥)

وأجاب عن ذلك بقوله: (إن للعرب فيما جرى هذا المجرى من الكلام عادة معروفة، ومذهبا مشهورا، عند من تصفح كلامهم وفهم عنهم، ومرادهم بذلك المبالغة في النفي وتأكيده، فمن ذلك قولهم: فلان لا يرجي خيره، ليس يريدون أن فيه خيرا لا يرجي وإنما غرضهم أنه لاخير عنده على وجه من الوجوه ومثله: قلما رأيت مثل هذا الرجل وإنما يريدون أن مثله لم يرَ لا قليلا ولا كثيرا وقال امرؤالقيس:

علي لاحبٍ لايُهتَدى بمنارِه إذا سافَهُ العَوْدُ الدّيافيُّ جَرْجَرَا

يصف طريقا، وأراد بقوله: «لا يهتدى بمناره، أنه لا منار له فيهتدى بها» (٦) وبذلك أدخل المرتضي تحت باب المبالغة هذا الأسلوب اللغوى الذى يرى في ظاهره استثناء من النفي الذى يحمله.

(١) سورة آل عمران: ١٨١، النساء: ١٥٥ (٢) سورة المؤمنون: ١١٧

(٣) سورة الرعد: ٢ (٤) سورة البقرة: ٤١. (٥) سورة البقرة: ٢٧٣

(٦) أمالي المرتضي: ١/ ٢٢٨ وفيه: العود: المسن من الأبل، والديافي: منسوب إلي دياف قرية بالشام معروفة، وسافه: شمّة، والجرجرة: مثل الهدير.

٤ — ابن رشيق القيرواني

أما ابن رشيق القيرواني المتوفي سنة ٤٥٦ هـ. فقد كانت وقفته أمام المبالغة وقفة طويلة إذ وقف أمام آراء السابقين بعرضُها ويفصِّل حجَجَها، وأضاف إلى طرق المبالغة طرقا جديدة لم يدخلها السابقون تحت بابها، واجتمع لديه أكبر عدد عرف من مصطلحات المبالغة حتى تلك الفترة من القرن الخامس الهجرى اذ رأينا لديه: المبالغة — الغلو — الإغراق — التبليغ — الإفراط. بل لانكون مجاوزين للحقيقة إذ قلنا: إن مصطلحات المبالغة التي عرفت في البلاغة العربية لم تزد عن هذه المصطلحات.

وابن رشيق لم يعرّف المبالغة وإنما الذى يؤخذ من كلامه أنها درجة أقل

من درجة الغلو، وقد بين اختلاط الدرجتين عند البعض بقوله: (فأما الغلو فهو الذي ينكره من ينكر المبالغة من سائر أنواعها ويقع فيه الاختلاف لاما سواه) (١) ففي رأيه أن الذين أنكروا المبالغة إنما أنكروها لإدخالهم الغلو فيها، بينما المبالغة كما يؤخذ من تعريفه لبعض أنواعها دون درجته إذ أورد منها نوعا سماه التقصي وحدّه بقوله: (وهو بلوغ الشاعر أقصى ما يمكن من وصف الشيء كقول عمرو بن الإيهم التغلبي:

ونكرم جارنا مادام فينا ونتبعه الكرامة حيث كانا

فتقصى بما يمكن أن يقدر عليه فتعاطاه ووصف به قومه) (٢) فالتقصي لايخرج دلالة المبالغة عن التناهي في المعني وبلوغ الغاية فيه. وكذلك كان مثال ترادف الصفات الذى أورده وهو قوله تعالى:

« أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ » (٣)

(١) العمدة: ٢/٥٥ (٢) المصدر السابق: ٢/٥٥

(٣) سورة النور: ٤٠

غير خارج عن هذه الدرجة وإنما فيه (تهويل مع صحة لفظ لا تحيل معنى) (١). وأما الغلو فقد قرنه بالإغراق والإفراط فقال تحت باب الغلو (ومن أسمائه أيضا الإفراط والإغراق) (٢) وسبق أن أشرت إلى سنة كثير من النقاد في ربط الإفراط بالغلو. وقد مرّبنا أيضا اطلاق لفظ الإغراق عند عمر ابن أبي ربيعة على الاستقصاء في شعر الأحوص، وربط الإفراط به عند ثعلب. ولم يزل الإغراق عند ابن رشيق مستعملا كما كان عند هؤلاء بمعناه اللغوى، ولم يستقل بنوع من أنواع المبالغة، أو درجة من درجاتها كما حدث عند المتأخرين. وان كان يظهر من جعله تسمية للغلو عند ابن رشيق بلوغه درجة في البعد عن الحقيقة غير درجة المبالغة.

والغلو كما يرى ابن رشيق مخالف للحقيقة وخارج عن الواجب والمتعارف، وعلل ذلك بأن الله سبحانه وتعالى قد قرن الغلو فيه بالخروج عن الحق(٣)، فقال جل من قائل:

« قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ » (٤)

وللغلو (الإغراق أو الإفراط) عنده درجات ومراتب فهو يقول: (ومن أبيات الغلو للقدماء قول مهلهل:

فلولا الريح أُسمع من بحجر صليل البَيْضِ تقرعُ بالذكور

وقد قيل: انه أكذب بيت قاله العرب، وبين حجر، وهي قصبة اليمامة ــ وبين مكان الوقعة عشرة أيام، وهذا أشد غلوا من قول امرئ القيس في النار، لأن حاسة اليصر أقوى من حاسة السمع وأشد ادراكاً. ومنها قول النابغة في صفة السيف:

تَقُدُّ السلوقيَّ المضاعف نَسْجَه ويوقدن بالصُّفاح نار الحُبَاحِبِ

---

(١) العمدة: ٢/٥٥
(٢) المصدر السابق: ٢/ ٦٠
(٣) المصدر السابق: ٢/ ٦٠، ٦١
(٤) سورة المائدة: ٧٧

وهو دون بيت امرئ القيس في تنور صاحبته النار إفراطا، ودون بيت النابغة قول النمر بن تولب في صفة السيف أيضاً)(١). وقد وقف بنا ابن رشيق على المعاني اللغوية لكل من الغلو والإغراق ليوضح ارتباط ما قصده بالمعنى الاصطلاحي لكل منها فالمعنى اللغوى فقال: (واشتقاق الغلو من المغالاة، ومن غلوة السهم، وهي مدى رميته، يقال: غاليت فلانا مغالاة وغلاء، إذا اختبرتما أيكما أبعد غلوة سهم، ومنه قول النبي عليه الصلاة والسلام: «جرى المذكيات غلاء» وقد جاء في حديث داحس «غلاء» و«غلاب» بالباء أيضا، وإذا قلت غلا السعر غلاء، فانما تريد أنه ارتفع وزاد على ما كان، وكذلك غلت القدر غليا أوغليانا، إنما هو أن يجيش

ماوها ويرتفع، والإغراق أيضا أصله في الرمي، وذلك أن تجذب السهم في الوتر عند النزع حتى تستغرق جميعه بينك وبين حنية القوس، وإنما تفعل ذلك لبعد الغرض الذى ترميه، وهذه التسمية تدل على ما نحوت إليه وأشرت نحوه)(٢).

ومن مصطلحات المبالغة الذى عرف عند المتأخرين وجاء عند ابن رشيق نقلا عن الحاتمي وأصحابه مصطلح التبليغ، ولكنه لم يأخذ معناه الاصطلاحي وإنما بقي دالاً على معناه اللغوى في بلوغ الغاية حيث يقول عن الإيغال (وهو ضرب من المبالغة... إلا أنه في القوافي خاصة لا يعدوها، والحاتمي وأصحابه يسمونه التبليغ، وهو تفعيل من بلوغ الغاية، وذلك يشهد بصحة ما قلته ويدل على ما رتبته)(٣).

وبعد أن عرفنا مصطلحات المبالغة عنده ودلالتها يحسن الوقوف على الأنواع التي وصلت إليها المبالغة عنده، وما أدخله تحتها من أنواع، كما يظهر

(١) العمدة: ٢/٦٢ يقصد قول امرئ القيس:

تنورتها من أذرعات وأهلها ... بيثرب أدنى دارها نظر عال

وقول النمر في السيف:

تظل تحفر عنه إن ضربت به ... بعد الذراعين والساقين والهادى

(٢) المصدر السابق: ٢/ ٦٥ (٣) المصدر السابق: ٢/ ٧٥

ذلك كتابه العمدة الذى تبرز فيه الأنواع التالية:

١ ــ التشبيه.

٢ ــ الاستعارة: وقد أشار إلى ذلك بقوله: (فأما الغلو فهو الذى ينكره من ينكر المبالغة من سائر أنواعها، ويقع فيه الاختلاف لا ما سواه مما بينت، ولو بطلت المبالغة كلها وعيبت لبطل التشبيه، وعيبت الاستعارة إلى كثير من محاسن الكلام) (١).

وكانت المبالغة هي حجته في الرد على الرماني الذى عاب على بعض شعراء عصره قوله:

صدعه صد حده مثل ما الوعد إذا ما اعتبرت صد الوعيد

وقوله :

ولــه غُرَّةٌ كَـلَـوْنِ وِصَـالٍ فَـوْقَـهَـا طُـرَّةٌ كَـلَـونِ صـدود

بحجة أن التشبيه الحسن هو الذى يخرج الأغض إلى الأوضح فيفيد بياناً .

إذ قال : (أما ما شرط في التشبيه فهو الحق الذى لا يدفع ، لا أنه قد حمل على الشاعر فيما أخذ عليه ، إذ كان قصد الشاعر أن يشبه ما يقوم في النفس دليله بأكثر مما هو عليه في الحقيقة ، كأنه أراد المبالغة) (٢) .

وأما في الاستعارة فقد نقل قول أبي الفتح عثمان بن جنى في شرح بيت أبي الطيب المتنبي :

فتى يملأُ الأفعالَ رأياً وحكمةً وبادرةً أحيانَ يرضى ويغضبُ

عندما قال : (الاستعارة لا تكون إلا للمبالغة ، وإلا فهي حقيقة) (٣) وعلق عليه بقوله : (كلام ابن جنى .. حسن في موضعه ، لأن الشيء إذا أعطي وصف نفسه لم يسم استعارة فإذا أعطى وصف غيره سمي استعارة ، إلا أنه لا يجب للشاعر أن يبعد الاستعارة جدا حتى ينافر ، ولا أن يقربها كثيراً حتى يحقق ، ولكن خير الأمور أوساطها) (٤) .

(١) المصدر السابق : ٢/ ٥٥ (٢) المصدر السابق : ١/ ٢٨٧/ ٢٨٨

(٣) المصدر السابق : ١/ ٢٧٠ (٤) المصدر السابق : ١/ ٢٧١

٣ ـ أحد ضروب التتميم : الذى يقول عنه : (وهو التمام أيضاً ، وبعضهم يسمي ضربا منه احتراسا واحتياطاً . ومعنى التتميم : أن يحاول الشاعر معنى ، فلا يدع شيئاً يتم به حسنه إلا أورده ، وأتي به ، إما مبالغة ، وإما احتياطا واحتراسا من التقصير) (١) فهو هنا يصرح بأن بعض التتميم يأتي للمغالغة وأمثلة التتميم التي رأى فيها المبالغة هي قول زهير :

من يلق يوما على علاته هرما يلق السماحةَ منه والندى خُلقا

حيث يقول : «قوله على علاته . مبالغة وتتميم عجيب وقوله سبحانه :

« ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا » (٢)

حيث جعله الأصل في هذا فقال: (فقوله: (على حبه) هو التتميم والمبالغة في قول من قال: (إن الهاء ضمير الطعام) (٣).

ومع أنه جعل أحد ضروب التتميم هنا للمبالغة إلا أنه عاد بعد ذلك فأدخل التتميم كله تحت باب المبالغة فقال مبينا أن ليس كل مبالغة فيها بعد (ألا ترى أن التتميم إذا طلبت حقيقته كان ضرباً من المبالغة، وان ظهر أنه من أنواع الحشو المستحسن) (٤).

وقد ذكر التتميم قدامة بن جعفر (٥)، وأبو هلال العسكرى (٦)، ولكنهما لم يدخلاه تحت باب المبالغة.

٤ ـ **التقصي**: وهو الذى يقول عنه: (فن أحسن المبالغة وأغربها عند الحذاق التقصي، وهو بلوغ الشاعر أقصى ما يمكن من وصف الشيء كقول عمرو بن الأيهم التغلبي:

ونكرم جارنا ما دام فينا ونتبعه الكرامة حيث كانا

---

(١) المصدر السابق: ٢/٥٠
(٢) سورة الإنسان: ٨
(٣) العمدة: ٢/٥١
(٤) المصدر السابق: ٢/٥٤
(٥) نقد الشعر: ١٤٤
(٦) الصناعتين: ٤٠٤

فتقصى بما يمكن أن يقدر عليه فتعاطاه ووصف به قومه) (١)

٥ ـ **ترادف الصفات**: ويقول عنه: (ومن أغربها أيضا ترادف الصفات، وفي ذلك تهويل مع صحة لفظ لا تحيل معنى، كقول الله تعالى.

« أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض » (٢)، (٣)

٦ ـ **الإيغال**: يقول عنه: (وهو ضرب من المبالغة... الا أنه في

القوافي خاصة لا يعددها، والحاتمي وأصحابه يسمونه التبليغ، وهو تفعيل من بلوغ الغاية، وذلك يشهد بصحة ما قلته، ويدل على ما رتبته)(٤) ثم تحدث عن ذكر الأصمعي له في رواية عن الثوري الذى قال: (قلت للأصمعي: من أشعر الناس؟ قال: الذى يجعل المعنى الخسيس بلفظه كبيراً، أو يأتي إلى المعنى الكبير فيجعله خسيساً، أو ينقضى كلامه قبل القافية، فإذا احتاج إليها أفاد بها معنى، قال: قلت: نحو من؟ قال: نحو الأعشى إذ يقول:

كناطح صخرة يوما ليَفلقَها فلم يَضرْها، وأوهى قرنَه الوَعِلُ

فقد تم المثل بقوله: وأوهى قرنه، فلما احتاج إلى القافية قال (الوعل). قال: قلت: وكيف صار الوعل مفضلا على كل ما ينطح؟ قال: لأنه ينحط من قمة الجبل فلا يضيره، قال: قلت: ثم نحو من؟ قال نحو ذى الرمة بقوله:

قفِ العيسَ في أطلال ميَّةَ واسأل رسوما كأخلاقِ الرداءِ المُسَلسَلِ

فتم كلامه، ثم احتاج إلى القافية فقال (المسلسل) فزاد شيئا وقوله:

أظنُّ الذى يُجْدِى عليك سؤالَها دموعاً كتبديدِ الجمان المُفْصَّلِ

فتم كلامه، ثم احتاج إلى القافية فقال «المفصل» فزاد شيئاً أيضاً(٥).

---

(١) العمدة: ٢/ ٥٥ (٢) سورة النور: ٤٠

(٣) العمدة: ٢/ ٥٥ (٤) العمدة: ٢/ ٥٧.

(٥) المصدر السابق: ٢/ ٥٧ وقد وردت القصة بهذا المعنى مع اختلاف في الترتيب في كل من نقد الشعر: ١٦٩، ١٧٠ والصناعتين: ٣٩٥.

ومع أن كلا من قدامة بن جعفر وأبا هلال قد ذكرا الإيغال لم يشيرا إلى أنه نوع من المبالغة، وإن كان تعريفهما له يدخل تحت تعريف المبالغة الذى ذكره قدامة ونقله عنه أبو هلال كما ذكرنا ذلك سابقاً، وأبو هلال العسكرى لا يخص الإيغال بالقوافي كما هو الحال عند قدامة بن جعفر وابن رشيق وإنما ينقله إلى المقاطع في النثر(١)، ويدخله في التتميم فيقول: (ويدخل أكثر هذا الباب في التتميم، وإنما يسمى إيغالا إذا وقع في الفواصل والمقاطع)(٢).

وقد وقف ابن رشيق عند المعنى اللغوى للإيغال ليربط ذلك بالمصطلح فقال: (واشتقاق الإيغال من الابعاد، يقال: أوغل في الأرض، إذا أبعد فيها حكاه ابن دريد، وقال وكل داخل شيء دخول مستعجل فقد أوغل فيه وقال الأصمعي في شرح قول ذى الرمة:

كأنَّ أصواتَ من إيغالهن بنا أواخرِ الميس أصواتُ الفراريجِ

الإيغال: سرعة الدخول في الشيء، يقال أوغل في الأمر إذا دخل فيه بسرعة، فعلى القول الأول كان الشاعر أبعد في المبالغة وذهب فيها كل الذهاب، وعلى القول الثاني كأنه أسرع الدخول في المبالغة بمبادرته هذه القافية)(٣).

٧ ـ **بعض أنواع الحشو:** (وسماه قوم الاتكاء، وذلك أن يكون في حل البيت من الشعر لفظ لا يفيد معنى، وإنما أدخله الشاعر لإقامة الوزن، فإن كان ذلك في القافية فهو استدعاء، وقد يأتي في حشو البيت ما هو زيادة في حسنه وتقوية لمعناه)(٤).

ولا زال ابن رشيق واقعاً تحت التيارين اللذين كانا يتجاذبان المعنى في النقد العربي، وهما تيار الحدود المفترضة للمعنى، وتيار الإبداع الشخصي

(١) الصناعتين: ٣٩٥ وقارن بنقد الشعر ١٦٨، والعمدة: ٢/٥٧.

(٢) الصناعتين: ٣٩٦ (٣) العمدة: ٢/٦٠

(٤) المصدر السابق: ٢/٦٩

والرؤية النفسية للمعنى، فكان ما يؤثر به التيار الثاني ينظر إليه في النقد العربي على أساس أنه زيادة على المعنى المفترض مسبقا، ولكن إلحاح الإبداع وإضافة الرؤية النفسية المتميزة تظل تلح على النقاد حتى يعترفوا بها بطرق مختلفة، كالمبالغة أوالاحتراس، أوالتتميم، أوالإيغال وقد رأينا حنو الثعالبي على الحشو، وجهده في بيان فوائده... ونراه الآن عند ابن رشيق الذى يشرح مقاصد التتميم ويعلل أكثر ما افترض فيه الحشو بالمبالغة وتقوية

المعنى إذ تراه يقول.) ومن مليح التأسيد التمثيل قول ابن مقبل:

إنى أقيد بالمأثور راحلتي   ولا أبالي وإن كنا على سفر

فقوله، أقيد بالمأثور. تمثيل بديع، والمأثور هو السيف الذى فيه أثر وهو الفرند وقوله: ولا أبالي، حشو مليح، أفاد مبالغة عجيبة)(١). ويقول في قول ابن المعتز يصف رخيلا:

صببنا عليها ظالمين سياطنا   وطارت بها أيدٍ سراعٌ وأرجلُ

(وهذا عند جميع الناس من باب الحشو، وهو عندي مبالغة. وكذلك الإيغال)(٢).

وليس أدل على حنوه على هذه اللفظة التي حكمت عليها محكمة النقد العربي بالحشو — كما يظهر من قوله السابق — من عودته إليها مرة أخرى وقوله فيها (فقوله: (ظالمين) حشو أقام به الوزن وبالغ في المعنى أشد مبالغة من جهته، حتى علمنا ضرورة أن إتيانه بهذه اللفظة التي هي حشو في ظاهر الأمر أفضل من تركها، وهذا شبيه بالتتميم)(٣) ومهما كان من دفاع ابن رشيق عن بعض ما حكم عليه بالحشو، فإنه لم يستطع أن يفلت من سيطرة تيار الحدود المفترضة للمعنى، فوقف عند بعض الأبيات، وطرد بعض ألفاظها منها بجنابة الحشو.

---

(١) المصدر السابق: ١/ ٢٧٩   (٢) المصدر السابق: ٢/ ٥٤

(٣) المصدر السابق: ٢/ ٦٩

وتجلت ظاهرة تجاذب التيارين في استثنائه إرادة الشاعر في الحكم بالحشو على بعض الألفاظ مع أن الأولى به وبالنقد العربي النظر إلى هذه الارادة، واستنتاجها من داخل العمل الأدبي، وعدم الحكم على العمل الأدبي عند غيابها. فما يدل على هذه الظاهرة قوله في قول أبي الطيب المتنبي:

إذا اعتل سيف الدولة، اعتلت الأرض ومن فوقها، والبأس والكرم المحض

(فقوله: «والبأس» حشو، لأن قوله «ومن فوقها» دال على الإنس والجن جميعا، والبأس والكرم جميعا، اللهم إلا أن يحمله على تأويلهم في قول الله تعالى:

«فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ» (١).

فأعاد ذكرها وهما من الفاكهة لفضلهما، وقوله تعالى:

«مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ» (٢)،

فإن هذا سائغ وليس بحشو حينئذ) (٣).

وقوله في قول الكلحبة اليربوعي:

إذا المرء لم يغش الكريهة أوشكت ... حبالُ الهوينا بالفتى أن تَقَطَّعَا

(فقوله: «بالفتى» حشو وكان الواجب أن يقول «به» لأن ذكر المرء قد تقدم، إلا أن يريد في قوله بالفتى الزراية، والأطنوزة (٤) فإنه يحتمل) (٥).

---

(١) سورة الرحمن: ٦٨ (٢) سورة البقرة: ٩٨

(٣) العمدة: ٢/ ٧٠

(٤) الأطنوزة من الطنز وهو السخرية وباب فعله نصر قال صاحب المختار «وأظنه مولدا أومعربا» ا. هـ

(٥) العمدة: ٢/ ٧٠

٨ ــ **نفي الشيء بإيجابه:** يقول عنه ابن رشيق (وهذا الباب من المبالغة، وليس بها مختصا إلا أنه من محاسن الكلام فإذا تأملته وجدت باطنه نفيا وظاهره إيجابا. قال امرؤ القيس:

على لاحب لا يهتدى بمناره ... إذا سافَهُ العَوْدُ النباطِيُّ جَرْجَرا

فقوله «لا يهتدى بمناره» لم يرد أن له مناراً لا يهتدى به، ولكن أراد أنه

لا منار له فيهتدى بذلك المنار.

وكذلك قول زهير:

بأرض خلاء لا يُسَدُّ وَصيدُها علـيّ، ومعروفي بها غيرُ منكَرِ

فأثبت لها في اللفظ وصيدا، وإنما أراد ليس لها وصيد فيسد على) (١).

ثم أورد عدة أمثلة أخرى على ذلك قال بعدها: (والشاهد على جميع ما قلته في شرح هذه الأشياء، ما جاء في تفسير قول الله عزّوجل:

« لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا » (٢).

قالوا: ليس يقع منهم سؤال فيقع إلحافا. أى هم لا يسألون ألبتة) (٣).

وسبق أن رأينا أن الشريف المرتضي يفسر مسائل من هذا الأسلوب بالمبالغة.

---

(١) المصدر السابق: ٢/ ٨٠، ٨١ (٢) سورة البقرة: ٢٧٣

(٣) العمدة: ٢/ ٨١، ٨٢

٥ — ابن سنان الخفاجي

من أدباء هذا القرن وشعرائه الذين توفروا على التأليف في البلاغة وتحديد بعض مصطلحاتها مع تمييز المقبول من المرذول في بعض الأنواع البلاغية التي تناولها كالاستعارة والتشبيه، والحشو، والجناس، والتكرار،

والمبالغة.

والذي يهمنا الآن استخدامه لمصطلحات المبالغة وتفريقه بين درجاتها وما أدخله فيها من أنواع.

فأما استخدامه لمصطلحات المبالغة فقد استخدم ثلاثة مصطلحات منها كانت هي الأكثر دورانا في التأليف وهي: المبالغة ــ الغلو ــ الإفراط. وإذا كنا قد رأينا فيما سبق تفريقا بين الغلو والمبالغة فإن هذا الفرق يكاد يلغى عند ابن سنان الخفاجي إلى درجة تحس معها بترادفهما وتناوبهما في كلامه كما يظهر ذلك من قوله: «وأما المبالغة في المعنى والغلو فان الناس مختلفون في حمد الغلو وذمه، فنهم من يختاره ويقول: أحسن الشعر أكذبه،.... ومنهم من يكره الغلو والمبالغة التي تخرج إلى الإحالة، ويختار ما قارب الحقيقة وداني الصحة، ويعيب قول أبي نواس:

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التي لم تخلق

لما في ذلك من الغلو والإفراط الخارج عن الحقيقة، والذي أذهب إليه المذهب الأول في حمد المبالغة والغلو.... وأما المبالغة بغير كاد ــ فكقول أبي العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان.

ونبّالةٍ من بُحتُرٍ لو تعمدوا بليلٍ أناسي النواظر لم يُخْطُوا

وكقول التمير يصف السيف:

تَظَلُّ تحفر عنه إن ضربت به بَعد الذراعين والساقين والهادى

وكقول النابغة:

تَقُدُّ السلوقيَّ المضاعف نسجُه ويوقدن بالصُّفَّاح نار الحباحبِ

وقول ابن هانئ الأندلسي:

أمديرها من حيثُ دارَ لشدّما زاحمتَ تحت ركابه جبريلا»(١)

ومع هذا الترادف وإطلاق اسم المبالغة على أبيات وسمت بالغلو عند السابقين(٢) يلمح من قوله: (وأما استعمال الغلو الخارج الى الاحالة في

النثر فقليل، وأكثر ما يستعمل فيه المبالغة التي تقارب الحقيقة)(٣). أن عنده احساساً بالفرق بين درجتيها مما يجعل الجزم بترادفها تماما لديه أمرا غير ممكن(٤).

وأنواع المبالغة عنده هي:

١ ـ الاستعارة:

لم يصرح ابن سنان بأن هدف الاستعارة المبالغة. ولكن نقله عن الرماني لبعض الاستعارات التي صرّح فيها الرماني بالمبالغة كما سبق أن أشرنا إلى ذلك يبين سيره على السنن نفسه الذى يرفع من شأن الاستعارة بالمبالغة. وتصريحه بأن الاستعارة على ضربين: (قريب مختار، وبعيد مطرح)(٥) يبين أن الاستعارة على درجات في المبالغة عن الحقيقة ويوضح ذلك قوله: (فالقريب المختار ما كان بينه وبين ما استعير له تناسب قوى وشبه واضح، والبعيد المطرح إما أن يكون لبعده مما أستعيرله في الأصل، أولأجل أنه استعارة مبنية على استعارة فتضعف لذلك، والقسمان معا يشملهما وصفي بالبعد. لكن هذا التفصيل يوضح)(٦) والذى يؤكد وسم هذا البعد بالمبالغة أيضا قوله في رده علي القاضي الجرجاني:(وأما قوله ـ يعني القاضي ـ: (إن أبا الطيب يريد أن مباشرة مفرقها شرف، ومجاورته زين ومفخرة، وأن

---

(١) سر الفصاحة: ٢٦٣، ٢٦٤

(٢) مثل بيت التمر الذى رأيناه في كل من نقد الشعر: ٩٢ والصناعتين: ٢٧٣

(٣) سر الفصاحة: ٢٦٣، ٢٦٤

(٤) ممن قال بترادفهما لديه الدكتور محمد إبراهيم موسي في كتابه: الصبغ البديعي في اللغة العربية: ٢١٦

(٥) سر الفصاحة: ١١٠ (٦) المصدر السابق: ١١٠

التحاسد يقع فيه والحسرة تعظم عليه، فلو كان الطيب ذا قلب لسر، كما لوكانت البيض ذوات قلوب لأسفت» فلم يزد على أن فسر مراد أبي الطيب بقوله إن الطيب يسر بمفرق هذه المرأة والبيض تتحسر، والمعنى ظاهر فيه الاخفاء به، وقوله ـ يعني القاضي ـ «إن مراده لو كان الطيب

ذاقلب » ليس بعذر في قوله : (قلوب الطيب) لأن بين قوله : « لو كان الطيب قلب » وبين قوله : « للطيب قلب » فرقا ظاهرا لا يخفي على أحد ، لأن أحدهما قد جعله واجبا والآخر ممتنعا ليس فيه أكثر من الفرض الذى يعلم من فحوى اللفظ أنه لم يقغ ، وليس يخفى على متأمل أن بين قول البحترى :

فلو أن مشتاقا تكلف فوق ما   في طَبْعِه لمشى إليه المنبر

وبينه لو كان قال : « إن المنبر مشى إليك » ميزة بينة ظاهرة ، وهذا الأمر لايستمر في مثله شبهة ، فيحتاج إلى الإسهاب في إيضاحه) (1).

وهذه النظرة يتحكم فيها الواقع الخارجي ومايصح أن يقع فيه وما لا يصح أن يقع دون نظر إلى عبقرية الشاعر في الخلق الأدبي عن طريق اللغة . وقد ارتضى ابن سنان أبيات جاءت فيها استعارة كهذه حمد لصاحبها التصرف باللغة الذى لم يرتضه في هذه الأبيات وذلك في قوله: « وللسرى الموصلي أبيات مرضية في معناها وهي :

أقول لحنان العشى المغردِ   يَهزُّ صفيحَ البارق المتوقدِ
تبسم عن ري البلادِ حبيّه   ولم يبْتسم إلا لإنجازِ موعدِ

ثم بعدها أبيات :

ويا دبْرَها الشرقي لازالَ رائحٌ   يحلّ عقود المزن فيكَ ويفتدى
عليلةَ أنفاسِ الرياحِ كأنما   يُعلّ بماء الوردِ نرجسُها الندِى
وشقَّ جيوبَ الوردِ في شجراته   نسيم متىُ ينظر إلى الماء يَبْردِ

(1) سر الفصاحة : 121 ، 122 وهذه المناقشة حول قول أبي الطيب :

مسرة في قلوب الطيب مفرقها   وحسرة في قلوب البيض والبلب

وفي هذه الأبيات استعارات عدة كل منها مختار : أما حنان العشي المغرد فمعروف ، والعادة جارية باستعارة الحنين والتغريد للغيث ، لأن له صوتا على كل حال ، وكذلك صفيح البارق وأشبه شيء بالبرق لمع

السيوف والتبسم فيه أيضاً ظاهر لضوء برقة في خلاله، وعقود المزن لائقة... وأنفاس الرياح تكاد تكون حقيقة لوضوحه، واستعمال العلة فيها كناية عن الضعف والخفوت وقلة الحركة على وجه التشبيه بالمريض، وجيوب الورد مختار، لأن النسيم إذا أظهره من أكمامه ونشره عن طيبه بعد ذلك كان بمنزلة الجيوب التي تشق، وعبارته عن سرعة برد الماء بالنسيم أنه متى نظر إليه برد مرضية، لأن النظر ليس هو الرؤية وإنما هو ضرب من المقابلة والمواجهة تقع الرؤية بعده، ومثل هذا في النسيم موجود ولائق غير بعيد) (١).

٢ ــ التشبيه:

لقد جعل ابن سنان هدف التشبيه منحصرا في غرضين هما: إيضاح المعنى وبيان المراد والغلو والمبالغة حيث يقول: (والأصل في حسن التشبيه أن يمثل الغائب الخفي الذى لا يعتاد بالظاهر المحسوس المعتاد، فيكون حسن هذا الأجل ايضاح المعنى وبيان المراد، أو يمثل الشيء بما هو أعظم وأحسن وأبلغ منه، فيكون حسن ذلك لأجل الغلو والمبالغة) (٢) وقد مثل للغرض الأول بعدة آيات منها قوله تعالى:

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا » (٣)

وقوله تعالى:

« مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا

(١) سر الفصاحة: ١٢٦ (٢) المصدر السابق: ٢٣٧

(٣) سورة النور: ٣٩

يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ » (١)

وقوله تعالى:

« فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ »،(٢)

وقوله تعالى :

« مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ » ـ (٣)

ومثل للغرض الثاني بقوله تعالى :

« وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ » (٤)

(فإنه شبه الشيء بما هو أعظم منه على وجه المبالغة)(٥)

وقال عن قول النابغة :

فإنك كالليل الذى هو مدركي وإن خِلتُ أن المنتأى عنكْ واسع

(وهذا التشبيه يجمع المقصودين من الظهور والمبالغة، أما الظهور فلأن علم الناس بأن الليل لابد من إدراكه له أظهر من علمهم بأن النعمان لابد من إدراكه له، وأما المبالغة فان تشبيهه بالليل الذى لا يصد دونه حائل أعظم وأفخم وأبلغ في المدح)(٦) وعلى الغرضين وجه التشبيه في قوله تعالى :

« طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ » (٧)

حيث يقول:(فإن قيل: قد مضى في كلامكم أن المشبه به يجب أن يكون معروفا واضحا أبين من الشيء الذى يشبّه، فما تقولون في قوله تعالى في

---

(١) سورة إبراهيم : ١٨
(٢) سورة الرحمن : ٣٧.
(٣) سورة العنكبوت: ٤١
(٤) سورة الرحمن : ٢٤
(٥) سر الفصاحة : ٢٣٨
(٦) المصدر السابق: ١٣٨
(٧) سورة الصافات: ٦٤، ٦٥

شجرة الزّقوم: (إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم * طلعها كأنه رءوس الشياطين) ورءوس الشياطين غير مشاهدة قيل إن الزقوم غيرَ مشاهد

ورءوس الشياطين غيرَ مشاهدة إلا أنه قد استقر في نفوس الناس من قبح الشياطين ما صار بمنزلة المشاهد، كما استقر في نفوسهم من حسن الحور العين ما صار بمنزلة المشاهد، حتى أنهم إذا شبهوا وجها بوجه الحور كان تشبيها صحيحاً، وإن كانت الحور لم تشاهد ولم يستقر في نفوسهم قبح طلع الزقوم كما استقر في نفوسهم قبح رءوس الشياطين فكأن المشبه به أوضح وفي رءوس الشياطين أيضاً من المبالغة في القبح ما ليس في طلع الزقوم، وقد قيل في بعض التفاسير: إن الشياطين هنا الحيات وعلى هذا القول يسقط السؤال لأن الحيات مشاهدة)(١).

٣ ــ الكناية:

ويسميها بالأرداف كما سماها بذلك أبو هلال ويسميها أيضاً بالتتبيع حيث يقول: (ومن نعوت البلاغة والفصاحة أن تراد الدلالة على المعنى، فلا يستعمل اللفظ الخاص الموضوع له في اللغة، بل يؤتى بلفظ يتبع ذلك المعنى ضرورة فيكون في ذكر التابع دلالة على المتبوع، وهذا يسمى الإرداف والتتبيع لأنه يؤتى فيه بلفظ هو ردف اللفظ المخصوص بذلك المعنى وتابعه، والأصل في حسن هذا أنه يقع فيه من المبالغة في الوصف ما لا يكون في نفس اللفظ المخصوص بذلك المعنى، ومثاله قول عمر بن أبي ربيعة:

بعيدة مهوى القرط، إما لنوفل أبوها واما عبد شمس وهاشم

فإنه إنما أراد أن يصف هذه المرأة بطول العنق، فلو عبر عن ذلك باللفظ الموضوع له لقال ــ طويلة العنق ــ فعدل عن ذلك وأتى بلفظ يدل عليه وليس هو الموضوع له، فقال: بعيدة مهوى القرط ــ فدل ببعد مهوى قرطها على طول الجيد، وكان في ذلك من المبالغة ما ليس في قوله ــ طويلة العنق ــ لأن بعد مهوى القرط يدل على طول أكثر من الطول الذى يدل

(١) سر الفصاحة: ٢٤٦

عليه ــ طويلة العنق ــ لأن كل بعيدة مهوى القرط طويلة العنق، وليس كل
طويلة العنق بعيدة مهوى القرط، إذا كان الطول في عنقها يسيرا وهذا

طويلة العنق بعيدة مهوى القرط، إذا كان الشرف في عنقها يسيراً وهذا موضع يجب فهمه)(¹).

وقد شرح بعد ذلك المبالغة في كنايتي امرئ القيس (نؤوم الضحى) و(قيد الأوابد) في قوله:

وَتَضْحَى فتيتُ المسكِ فوقَ فراشِها نؤومُ الضحى لم تنتطق عن تفضلِ

وقوله:

وقد اغتدى والطيرُ في وُكناتِها بِمنجَردٍ قيدِ الأوابدِ هيكلِ

ثم قال: (وأصحاب صناعة البلاغة يذكرون الإرداف، ولا يشرحون العلة في سببه وحسنه من المبالغة التي نبهنا عليها)(²) وقد كان على حق في ذلك فهو أول من أدخل هذا الأسلوب تحت باب المبالغة.

٤ ـ تأكيد المدح بما يشبه الذم:

يقول ابن سنان: (ومن المبالغة قول النابغة الذبياني:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بِهِنّ فلولٌ من قِراعِ الكتائب

وإنما كان هذا الاستثناء من المبالغة في المدح، لأنه قد دل به على أنه لو كان فيهم عيب غيره لذكره، وأنه لم يقصد إلا وصفهم بما فيهم على الحقيقة.

ومنه أيضا قول أبي هفان:

ولا عيب فينا غير أن سماحَنا أضر بنا والبأسُ من كل جانب

فأفنى الردى أعمارَنا غيرَ ظالمٍ وأفنى الندى أموالنا غيرَ عائبِ

أبونا أبٌ لو كان للناس كُلِّهم أبا واحدا أغناهمُ بالمناقبِ)(³)

---

(١) المصدر السابق: ٢٢١ (٢) المصدر السابق: ٢٢٢

(٣) المصدر السابق: ٢٦٥

وقد ذكر هذا الأسلوب ابن رشيق وسماه الاستثناء واشار الى تسمية

عند ابن المعتز فقال: (وابن المعتز يسميه توكيد المدح بما يشبه الذم، وذلك نحو قول النابغة الذبياني:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

فجعل فلول السيف عيبا وهو أوكد في المدح.

وقال النابغة الجعدي:

فتى كملت أخلاقه غير أنه ... جواد فما يبقي من المال باقيا

فاستثنى جوده الذى يستأصل ماله، بعد أن وصفه بالكمال، وبهذا الاستثناء تم وزاد كمالا وتأكد حسنه).(١).

٥ ـ صورة الوهم:

وقد جعل ابن سنان من المبالغة الممتنع (الذى يمكن تصوره في الوهم ولا يمكن وجوده) وكانت إمكانية التصور في الوهم هي الفرق بين المستحيل والممتنع ـ إذ أن المستحيل (هو الذى لا يمكن وجوده ولا تصوره في الوهم) بينما الممتنع يمكن أن يتصور (مثل أن يتصور تركيب أعضاء الحيوان من نوع في نوع آخر منه، كما يتصور يد أسد في جسم إنسان، فإن هذا وإن كان لا يمكن وجوده فإن تصوره في الوهم ممكن) ثم قال: (وقد يصح أن يقع الممتنع فى النظم والنثر على وجه المبالغة، ولا يجوز أن يقع المستحيل البتة فأما قول أبي عبادة:

لما مدحتك وافاني بذاك على ... إضعاف ظني فلم أَظْفَرْ ولم أخب

فليس هذا من المتناقض... ألا ترى آن معناه لم أظفر بنفس ما ظننته لأنك زدت عليه، لكأن ظني لم يصدق، لأنه لو صدق لكان وقع على ما ظننته بعينه من غير زيادة عليه، ولم أخب لأنك قد أعطيتني، ومن أعطى فما خاب، وهذا صحيح واضح)(٢).

---

(١) العمدة: ٤٨ (٢) سر الفصاحة: ٢٣٥.

وقد ذكر ابن سنان كلا من الإيغال والحشو ولكنه لم يدخلهما تحت باب المبالغة.

٦ ـ عبد القاهر الجرجاني

كثر حديث الإمام عبد القاهر عن المبالغة، وبعدها أوقربها من الحقيقة، وتحديد مكان المبالغة في كثير من الأنواع التي أدخلها تحت المبالغة، وسننظر الآن في أسماء المبالغة عنده؟ وهل تتخذ تسمياتها فوارق بين درجاتها، ثم نتناول بعد ذلك الأنواع التي أدخلها في المبالغة.

فأما أسماؤها عنده فهي المبالغة والإغراق والإفراط وتجد هذه الأسماء مترادفة عنده، وينوب بعضها عن بعض وذلك إذا نظرنا إلى قوله تعليقا على بيت أبي الطيب المتنبي:

دون التعانق ناحلين كشكلتي   نَصْبٍ أدَقَّهما وَضَمّ الشاكلِ(١)

«وأما المتنبي فأراك الشيئين في مكان واحد وشدد في الفرق بينها، وذاك أنه لم يعرض لهيئة العناق، ومخالفتها صورة الافتراق، وإنما عمد إلى المبالغة في فرط النحول واقتصر من بيان حال المعانقة على ذكر الضم مطلقا (٢)» مع قوله أيضا حول ذلك البيت: «ولئن كان المتنبي قد زاد على الأول فليس تلك الزيادة من حيث وضع الشبه على تركيب شكلين، ولكن من جهة أخرى، وهي الإغراق في الوصف بالنحول..)(٣) حيث نجده أناب الإغراق مناب ما وسمه بالإفراط والمبالغة. أوقوله: «.... وقولهم إذا أفرطوا: نور الصباح يخفي في ضوء وجهه، أونور الشمس مشروق من جبينه، وما جرى في هذا الأسلوب من وجوه الإغراق والمبالغة»(٤)

وقد يذكرها مقترنة به. من ذلك قوله: «فهذا ليس من جنس ما مضى ــ أعني ما أصله التشبيه ثم أريد التناهي في المبالغة والإغراق والإغراب ...» (٥).

---

(١) الشكلة: أراد الشكلة التي تكون في الإعراب. وضم الشاكل: الكاتب يريد بالضم القرب ولم يرد الضم الذي في الاعراب (التبيان: ٢٥٣/٣).

(٢) أسرار البلاغة: ٥٥/٢ (٣) المصدر السابق: ٥٦/٢.

(٤) المصدر السابق: ٧٥/٢ (٥) المصدر السابق: ١٣٩/٢

ولكن هل يعني هذا الترادف والاقتران عدم وجود فوارق بين درجاتها لديه ؟! لقد كان عبد القاهر يصدر عن هذه الفوارق والدرجات بين أنواع المبالغة التي وضعت من خلال المنظور إلى الواقع الخارجي ... فهو يقول (واعلم أن المعنى في المبالغة ــ وتفسيرنا بقولنا جعل هذا ذاك، وجعله الأسد، وادعى أنه الأسد حقيقة ــ أن المشبه الشيء بالشيء من شأنه أن ينظر إلى الوصف الذى يجمع بين الشيئين، وينفي عن نفسه الفكر فيما سواه جملة. فإذا شبه بالأسد ألقى صورة الشجاعة بين عينيه، وألقى ماعداها فلم ينظر إليه، فإن هو قال: زيد كالأسد كان قد أثبت له حظاً ظاهراً في الشجاعة ولم يخرج عن الاقتصاد، وإذا قال: هو الأسد، تناهى في الدعوى إما قريبا من المحق لفرط بسالة الرجل، وإما متجوزاً في القول فجعله بحيث لاتنقص شجاعته من شجاعة الأسد ولايعدم منها شيئاً ...)(١).

ولعل إيراده هذه المصطلحات مقترنة ومترادفة مع هذه المعرفة بدرجات القول قريباً أوبعداً عن الحقيقة يدلنا على أن الفوارق بين درجاتها لاتعنيه بقدر مايعنيه المعنى الدال عليه عموم المبالغة عنده وعند السابقين من ارتفاع بالحقيقة إلى درجة لاتكاد تبلغها ويستوى لديه إن كان ذلك أغراقا أومبالغة

لكن الذى لايستوى لديه هو بعض أنواع المبالغة وبعض أنواع التخييل فإن كان التخييل لديه جنساً تدخل تحته بعض أنواع المبالغة، فإن هناك أنواعاً منه غير مرضية وينظر إليها عبدالقاهر نظرة شك وارتياب ولإيضاح ذلك نقول: إن التخييل عند عبدالقاهر يتأرجح بين معان عدة وليس أدل على ذلك من قوله: «والذى أريده بالتخييل ههنا: مايثبت فيه الشاعر أمراً هو غير ثابت أصلاً، ويدعي دعوى لاطريق إلى تحصيلها، ويقول قولاً يخدع فيه نفسه ويريها مالاترى ...»(٢).

---

(١) المصدر السابق: ٢/١٠٥ (٢) المصدر السابق: ٢/١٣٦

فكلمة ههنا تشير إلى أن مقصوده بالتخييل ههنا يختلف عن مقصوده به في مواضع أخرى، فهو يجعل التخييل هنا قرين الكذب والخداع، والدعوى التي لاتصح !! وما كان ذلك إلا لأنه يحكم الواقع الخارجي والمنطق العقلي في الشعر. ومن هنا سارع إلى اخراج الاستعارة من هذه النظرة المريبة وذلك لكثرتها في التنزيل: (واعلم أن الاستعارة لاتدخل في قبيل التخييل لأن المستعير لايقصد إلى إثبات معنى اللفظة المستعارة، وإنما يعمد إلى إثبات شبه هناك، فلا يكون مخبره على خلاف خبره وكيف يعرض الشك في أن لامدخل للاستعارة في هذا الفن وهي كثيرة في التنزيل على مالا يخفي: كقوله عزوجل:

« وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا » (١)

ثم لاشبهة في أن ليس المعنى على الاشتعال ظاهراً وإنما المراد إثبات شبهه)(٢).

وكان وسيلة اخراجها من ذلك هو إيجاد العلاقة بين مايظهر في الكلام مخالفة لحكم العقل والواقع، وبين الأصل المفترض للكلام فهو يقول: «أما الاستعارة فإن سبيلها سبيل الكلام المحذوف في أنك إذا رجعت إلى أصله وجدت قائله وهو يثبت أمراً عقلياً صحيحاً ويدعى دعوى لها شبح في العقل...)(٣). وهذا المحذوف هو إثبات الشبه(٤)، وعلى هذا كان الأمر هيناً في اخراج المجاز والاستعارة من تهمة الكذب والبعد عن الحقيقة وخداع العقل لوجود التقدير والعلاقة بين هذه الصور والأصل المفترض للكلام... ولكن هناك أنواعا أخرى من الكلام لاتوجد فيها هذه العلاقات ترى الإمام يعتبرها بعض الأحيان كذبا وتزويقا وخداعا للعقل (وستمر بك ضروب من التخييل هي أظهر أمراً في البعد عن الحقيقة تكشف عن وجهه في أنه خداع العقل وضرب من التزويق، فتزداد استبانة العرض بهذا الفصل،

---

(١) سورة مريم: ٤. (٢) اسرار البلاغة: ٢/ ١٣٥

(٣) المصدر السابق: ٢/ ١٣٦ (٤) المصدر السابق: ٢/ ١٣٥.

وأزيدك حينئذ إن شاء الله كلاماً في الفرق بين ما يدخل في حيز قولهم، خير الشعر أكذبه وبين ما لا يدخل فيه مما يشاركه مما كان كلاماً فيه اتساع وتجوز فاعرفه)[1].

وقد قسم الامام التخييل إلى ضروب عدة:

١ ـ فمنه ما يجيء مصنوعاً قد تلطف فيه واستعين عليه بالرفق والحذق حتى أعطى شبها من الحق وغشى رونقاً من الصدق باحتجاج بخيل وقياس يصنع فيه ويعمل ومثاله قول أبي تمام:

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالي[2]

٢ ـ وأقوى من هذا في أن يظهر حقا وصدقا وهو على التخييل قوله:

الشيب كره وكره أن يفارقني أعجب بشيء على البغضاء مودودُ

هو من حيث الظاهر صدق وحقيقة لأن الإنسان لا يعجبه أن يدركه الشيب فإذا هو أدركه كره أن يفارقه فتراه لذلك ينكره ويكرهه، على أن إرادته أن يدوم له إلا أنك إذا رجعت إلى التحقيق كانت الكراهة والبغضاء لاحقة بالشيب على الحقيقة، فأما كونه مراداً ومودوداً فتخيل فيه وليس بالحق والصدق بل المودود الحياة والبقاء، الا أنه لما كانت العادة جارية بأن زوال رؤية الانسان للشيب زواله عن الدنيا وخروجه منها وكان العيش فيها محببا إلى النفوس صارت محبته لما لا يبقى له حتى الشيب كأنها محبة للشيب)[3].

٣ ـ ومن ذلك صنيعهم إذا أرادوا تفضيل شيء أو نقصه أو مدحه أو ذمه فتعلقوا ببعض ما يشاركه في أوصاف ليست هي سبب الفضيلة والنقيصة وظواهر أمور لا تصحح ما قصدوه من التهجين والتزيين كما تراه

(١) المصدر السابق: ٢/١٣٦

(٢) المصدر السابق: ٢/١٢٩ (٣) المصدر السابق: ٢/١٢٩.

في باب الشيب والشباب كقول البحتري :

وبياضُ البازيِّ أصدقُ حسنا إن تأملت من سوادِ الغرابِ(١)

٤ ـ وهذا نوع آخر وهو دعواهم في الوصف هو خلقة في الشيء وطبيعة أوواجب على الجملة، من حيث هو ـ أن ذلك الوصف حصل له من الممدوح ومنه استفادة، وأصل هذا التشبيه، ثم يتزايد فيبلغ هذا الحد... »(٢)، وجعل منه قول ابن بابك :

ألا يا رياضَ الحَزْنِ من أبرقِ الحمى نسيمُكِ مسروق ووصفك منتَحلْ

حكيت أبا سعد فنشْرُكِ نَشْرُه ولكن له صدق الهوى ولك المَلَلْ

٥ ـ ونوع آخر: وهو أن يدعى في الصفة الثابتة للشيء أنه إنما كان لعلة يضعها الشاعر ويختلقها إما لأمر يرجع إلى تعظيم الممدوح أوتعظيم أمر من الأمور.

فمن الغريب في ذلك معنى بيت فارسي ترجمته :

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته لما رأيت عليها عقد منتطق

فهذا ليس من جنس ما مضي أعني ما أصله التشبيه ثم أريد التناهي في المبالغة والإغراق والإغراب(٣).

ويدخل في هذا الفن قول المتنبي:

لم يحك نائلك السحابُ وإنما حمت به فصبيها الرحضاء(٤)

وجعل من لطيف هذا الجنس قول الصولي :

الريح تحسدني عليك ولم أخلها في العدا

لما هممت بقبلة ردت على الوجه الردا(٥)

---

(١) المصدر السابق : ٢/ ١٢٩، ١٣٠ (٢) المصدر السابق : ١/ ١٣٨

(٣) المصدر السابق: ٢/ ١٣٨، ١٣٩

(٤) المصدر السابق: ٢/ ١٣٩، الرحضاء: العزق المتصبب.

(٥) المصدر السابق: ٢/ ١٤١

٦ ـ وجعل من الطريقة السابقة مع وجه اختلاف قول الشاعر:

فيه ريب الزمان كأن الزمان له عاشق

وأوضح خلافه للنوع الأول بقوله: «إلا أنه لم يضع علة ومعلولا من طريق النص بل أثبت محاربة الزمان في معنى الحبيب ثم جعل دليلا على جواز أن يكون شريكا في عشقه»(١). ويضيف مبينا الفرق بينها (فإن من حكم المحصل ألا ينظر في تلاقي المعاني وتناظرها إلى جمل من الأمور وإلى الاطلاق والعموم، بل ينبغي أن يدقق النظر في ذلك ويراعى التناسب من طريق الخصوص والتفاصيل فأنت في نحو بيت ابن وهيب ـ وحاربني الخ ـ تدعى صفة غير ثابتة إذا هى ثبتت اقتضت مثل العلة التي ذكرها. وفي نحو بيت الريح تذكر صفة ثابتة حاصلة على الحقيقة، ثم تدعى لها علة من عند نفسك وضعا واختراعا)(٢).

٧ ـ ونوع آخر في التعليل «وهو أن يكو للمعنى من المعاني، والفعل من الأفعال علة مشهورة من طريق العادات والطباع، ثم يجيء الشاعر فيمنع أن يكون لتلك العلة المعروفة ويضع له علة أخرى، مثاله قول المتنبي:

ما به قتل أعاديه ولكن يتقي إخلاف ما ترجو الذئاب (٣)

وهذا النوع هو حسن التعليل الذى صرح عبدالقاهر بإفادته المبالغة (واعلم أن هذا لا يكون حتى يكون في استئناف هذه العلة المدعاة فائدة شريفة فيما يتصل بالممدوح أو يكون لها تأثير في الذم كقصد المتنبي ههنا في أن يبالغ في وصفه بالسخاء والجود وأن طبيعة الكرم قد غلبت عليه ومحبته أن يصدق رجاء الراجين وأن يجنبهم الخيبة في آمالهم قد بلغت به هذا الحد فلما علم أنه إذا غدا للحرب غدت

(١) المصدر السابق: ٢/ ١٤١

(٢) المصدر السابق: ٢/ ١٤١، ١٤٢

(٣) المصدر السابق: ٢/ ١٥٨

الذئاب تتوقع أن يتسع عليها الرزق ويخصب لها الوقت من قتلى عداه كره أن يخلفها، وأن يخيب رجاءها ولا يسعفها...)([1]).

ويظهر حسن التعليل ظهورا واضحا في النوع الخامس من هذه الأنواع وأما بقيتها فيظهر فيها بقدر لا يبلغ وضوح ظهوره في هذين النوع ومن هنا رأى الدكتور أحمد إبراهيم موسى أن التعليل يطرد في كل ما مضى([2]).

٨ ـ (وهذا نوع آخر من التخييل وهو يرجع إلى ما مضى من تناسي التشبيه وصرف النفس عن توهمه إلا أن ما مضى معلل) ومثاله قول أبي تمام:

ويصعد حتى يظهر الجهول بأن له حاجةً في السما

فلولا قصده أن ينسى التشبيه ويرفعه بجهده، ويصمم على إنكاره وجحده يجعله صاعدا في السماء من حيث المسافة الكائنة، لما كان لهذا الكلام وجه»([3])

ويضيف الإمام قائلا: «وهكذا الحكم إذا استعاروا اسم الشيء بعينه من نحو شمس أوبدر أوبحر أوأسد فإنهم يبلغون به هذا الحد ويصوغون الكلام صياغات تقضي بأن لا تشبيه هناك ولا استعارة.

ومثاله قوله:

قامت تظللني من الشمس نفس أعز عليّ من نفسي
قامت تظللني ومن عجب شمس تظللني من الشمس([4])

وهذا التقسيم للتخييل ينبيء عن درجاته في القرب من الحقيقة والبعد عنها، ولم يصرح عبد القاهر في الثلاثة الأولى بأنها للمبالغة أويشر إلى ذلك وأما الباقية فقد صرح في بعضها، وأشار في بعضها إلى المبالغة كما هو واضح من حديثه الذى نقلناه في هذه الأنواع.

---

(١) المصدر السابق: ٢/ ١٩٨

(٢) الصبغ البديعي في اللغة العربية: ٢٣٣.

(٣) اسرار البلاغة: ٢/ ١٦٤

(٤) المصدر السابق: ٢/ ١٦٥

ولو تساءلنا عن هدف عبد القاهر من هذا الجهد الذى أضناه في محاولة استقراء هذه الأنواع والتفريق بين درجاتها مع أنه يعلم حق العلم أن (ماشأنه التخييل أمره في عظم شجرته، إذا تؤمل نسبه، وعرفت شعوبه وشعبه.... لايكاد تجيء فيه قسمة تستوعبه وتفصيل يستغرقه)(١) لوجدنا أن قياس الكلام بما يمكن أن يقع في المعقول هو الداعي إلى هذه التقسيمات لإيجاد علائق ووسائط يمكن أن ترد للكلام معقوليته... حتى ولو كانت تلك الوسائط ادعاء، أواختلاقا، أوتعليلا بعد ادعاء، أوتحويل العلة المعروفة إلى علة توجد في الكلام، وكان هذا المطلب من إحساس الإمام بجمال فن اللغة الذى ينطوى في الكثير الأعم على التخييل هو الذى يفسر موقفه من التخييل والمبالغة بين القبول والرفض وهو الذى يجعله حيناً يجعل الاستعارة من التخييل(٢)، وحينا يخرجها منه(٣)، كما سنوضح ذلك إن شاءالله.

أساليب المبالغة عنده:

١ ـ التشبيه:

تحدث الإمام عبد القاهر عن التشبيه وأنواعه ومايفيد المبالغة منه ومالايفيدها. وقد عرّفنا أن التشبيه لايراد به في كل حين إلحاق الناقص بالزائد ومن هنا يستقيم العكس في التشبيهات التي لايراد فيها ذلك (وجملة القول أنه متى لم يعتمد ضرب من المبالغة في اثبات الصفة للشيء والقصد إلى إيهام في الناقص أنه كالزائد واقتصر على الجمع بين الشيئين في مطلق الصورة والشكل واللون أوجمع وصفين على وجه يوجد في الفرع على حد يوجد هو أوقريب منه في الأصل، فإن العكس يستقيم في التشبيه ومتى أريد شيء من ذلك لم يستقم)(٤). واستثنى من ذلك ماإذا كان الشاعر (يقصد على عادة التخييل أن يوهم في الشيء هو قاصر عن نظيره في الصفة أنه زائد عليه في استخفافها واستيجاب أن يجعل أصلا فيها، فيصح

(١) المصدر السابق: ٢/ ١٣٧ (٢) المصدر السابق: ١/ ١٣٩، ٢/ ٩٧
(٣) المصدر السابق: ٢/ ١٣٥ (٤) اسرار البلاغة: ٢/ ٧٤

على موجب دعواه وشوقه إلى أن يجعل الفرع أصلا ، وإن كنا إذا رجعنا إلى التحقيق لم نجد الأمر يستقيم على ظاهر ما يضع اللفظ عليه ، ومثاله قول محمد بن وهيب :

وبدا الصباح كأن غرته   وجه الخليفة حين يمتدح

فهذا على أنه جعل وجه الخليفة كأنه أعرف وأشهر وأتم وأكمل في النور والضياء من الصباح فاستقام له بحكم هذه النية أن يجعل الصباح فرعا ووجه الخليفة أصلاً) (١) .

ثم تحدث عن بلاغة هذا التشبيه المقلوب لما فيه من المبالغة فقال: (... وجهته الساحرة أنه يوقع المبالغة في نفسك من حيث لا تشعر، ويفيدكها من غير أن يظهر ادعاؤه لها ، لأنه وضع كلامه وضع من يقيس على أصل متفق عليه ويزجي الخبر عن أمر مسلم لا حاجة فيه إلى دعوى، ولا إشفاق من خلاف مخالف وإنكار منكر وتجهم معترض ...) (٢) .

ووقف أيضاً عند المبالغة في التشبيه الصريح الذى حذفت منه الأداة ومتى يصرف إلى المبالغة ومتى لا يصرف إليها ؟! فقال :(فان قلت : فلا بد من اصل يرجع إليه في الفرق بين ما يحسن أن يصرف وجهه إلى الاستعارة والمبالغة ، وما لا يحسن ذلك فيه ولا يحببك المعنى إليه ، بل يصد بوجهه عنك متى أردته عليه . فالجواب : أنه لا يمكن أن يقال فيه قول قاطع ، ولكن ههنا نكتة يجب الاعتماد عليها ، والنظر إليها : وهي أن الشبه إذا كان وصفا معروفا في الشيء قد جرى العرف بأن يشبه من أجله به ، وتعورف كونه أصلا فيه يقاس عليه ، كالنور والحسن في الشمس ، أو الاشتهار والظهور وأنها لا تخفي فيها أيضا وكالطيب في المسك والحلاوة في العسل والمرارة في الصاب والشجاعة في الأسد والفيض في البحر والغيث .... وما شاكل ذلك من الأوصاف التي لكل وصف منها جنس هو أصل فيه ، ومقدم في معانيه ــ فاستعارة الاسم في الشيء على معنى ذلك الشبه تجيء سهلة

(١) المصدر السابق : ٢/ ٧٥   (٢) المصدر السابق : ٢/ ٧٥، ٧٦

منقادة، وتقع مألوفة معتادة، وذلك أن هذه الأوصاف من هذه الأسماء قد تعورف على كونها أصولا فيها وأنها أخص ما توجد فيه بها .... ومتى صلحت الاستعارة في شيء فالمبالغة فيه أصلح، وطريقها أوضح، ولسان الحال بها أفصح)(١).

ثم أوضح الامام أن التشبيه مع وجود الأداة لا يصل إلى درجة المبالغة الموجودة مع حذف الأداة قائلا «واعلم أن المعنى في المبالغة — وتفسيرنا بقولنا جعل هذا ذاك وجعله الأسد وادعى أنه الأسد حقيقة — أن المشبه الشيء بالشيء من شأنه أن ينظر إلى الوصف الذى يجمع بين الشيئين وينفي عن نفسه الفكر فيما سواه جملة، فإذا شبه بالأسد ألقى صورة الشجاعة بين عينيه، وألقى ما عداها فلم ينظر إليه فإن هو قال: زيد كالأسد كان قد أثبت له حظا ظاهرا في الشجاعة ولم يخرج عن الاقتصاد، وإذا قال هو الأسد تناهي في الدعوى إما قريبا من الحق لفرط بسالة الرجل، وإما متجوزا في القول فجعله بحيث لا تنقص شجاعته عن شجاعة الأسد ولا يعدم منها شيئا)(٢).

وأما التمثيل فيقصد به عبد القاهر نوعا من التشبيه وهو ما يكون الشبه فيه محصلا بضرب من التأول(٣)، كقولك هذه حجة كالشمس(٤)، وغيره مما لا يمكن ادعاؤه إلا على نوع من المقارنة أوالمجازفة دون التحقيق والقطع من المتشابهات المتأولة التي ينتزعها العقل من الشيء للشيء والتي لا تكون في حد المتشابهات الأصلية الظاهرة لأن الشبه العقلي كاد الشيء به يكون شبيها بالمشبه به(٥).

وهذا الشبه العقلي ربما انتزع من شيء واحد كالمثال السابق، وربما انتزع من عدة أمور يجمع بعضها إلى بعض ثم يستخرج من مجموعها الشبه

---

(١) المصدر السابق: ٢/ ١٠٤، ١٠٥ — (٢) المصدر السابق: ١٠٥
(٣) المصدر السابق: ١/ ١٩٠ — (٤) المصدر السابق: ١/ ١٩٣
(٥) المصدر السابق: ١/ ٢٠٩

فيكون سبيله سبيل الشيئين يخرج أحدها بالآخر حتى تحدث صورة غير ما كان لها في حال الإفراد لا سبيل الشيئين يجمع بينها وتحفظ صورتها ومثاله قوله عز وجل:

«مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً»(١)(٢)

وقد ركز عبد القاهر على التشبيه المركب ورأى أنه الأولى بأن يسمى تمثيلا فقال: (وعلى الجملة فينبغي أن تعلم أن المثل الحقيقي والتشبيه الذى هو الأولى بأن يسمى تمثيلاً — لبعده عن التشبيه الظاهر الصريح — ما تجده لا يحصل لك إلا من جملة من الكلام أو جملتين أو أكثر حتى إن التشبيه كل ما كان أوغل في كونه عقليا محضا كانت الحاجة إلى الجملة أكثر)(٣).

وقد بين عبد القاهر إفادة عموم التمثيل للمبالغة بقوله: (فأما القول في العلة والسبب له كان للتمثيل هذا التأثير وبيان جهته ومأتاه، وما الذى أوجبه واقتضاه فغيرها، وإذا بحثنا عن ذلك وجدنا له أسبابا وعللا كل منها يقتضي أن يفخم المعنى بالتمثيل وينبل ويشرف ويكمل)(٤) وبين أن الأوصاف التي ترد السامع فيها بالتمثيل مع العقل إلى العيان والحس وهي في نفسها معروفة مشهورة صحيحة لا تحتاج إلى الدلالة على أنها هي ممكنة موجودة أم لا فإنها وان غنيت من هذه الجهة عن التمثيل بالمشاهدات والمحسوسات فإنها تفتقر إليه من جهة المقدار، لأن مقاديرها في العقل تختلف وتتفاوت، فقد يقال في الفعل إنه من خال الفائدة على حدود مختلفة في المبالغة والتوسط فكأن التمثيل ميزان القسطاس فلما قال الشاعر: كقابض على الماء خانته فروج الأصابع، أراك كما يقول عبد القاهر: (رؤية لا تشك معها ولا ترتاب أنه بلغ في خيبة ظنه وبوار سعيه إلى أقصى المبالغ، وانتهى فيه إلى أبعد الغايات، حتى لم يحظ مما قل ولا ما كثر)(٥).

(١) سورة الجمعة: ٥
(٢) اسرار البلاغة: ١/ ٢١٠
(٣) المصدر السابق: ١/ ٢١٨
(٤) المصدر السابق: ١/ ٢٣٤
(٥) المصدر السابق: ١/ ٢٣٧، ٢٣٨

وأوضح عبد القاهر أن المبالغة وبيان المقدار غير مقصود في كل حين من التمثيل فقال: (ومما يدلك على أن التمثيل بالمشاهدة يزيد أنسا وإن لم يكن بك حاجة إلى تصحيح المعنى، أوبيان المقدار المبالغة فيه، أنك قد تعبر عن المعنى بالعبارة التي تؤديه وتبالغ وتجتهد حتى لاتدع في النفوس منزعا نحو أن تقول وأنت تصف اليوم بالطول: يوم كأطول مايتوهم وكأنه لاآخر له. وما شاكل ذلك من نحو قوله:

في ليل صول تناهي العرض والطول   كأنما ليله بالحشر موصول

فلا تجد له من الأنس ما تجده لقوله:

* ويوم كظل الرمح قصر طوله *

على أن عبارتك الأولى أشد وأقوى في المبالغة من هذا، فظل الرمح على كل حال متناه تدرك العين نهايته، وأنت قد أخبرت عن اليوم بأنه كأنه لاآخر له)(١)

٢ ــ الاستعارة:

تحدث الإمام عبد القاهر كثيرا عن الاستعارة مبينا معالمها، ومقدسا لبلاغتها لكثرتها في التنزيل، والكلام العربي الفصيح، ومشفقاً عليها من دعوى التخييل في بعض الأحيان ــ كما أشرنا إلى ذلك ــ

والذى يهمنا الآن هو إلحاحه على عنصر المبالغة فيها إلى درجة اقترنت عنده فيها الاستعارة بالمبالغة وذلك كما يظهر من حديثه عن التشبيه الذى ينبغي أن يصرف إلى المبالغة والذى لاينبغي له ذلك حيث قال (فإن قلت: فلابد من أصل يرجع إليه في الفرق بين مايحسن أن يصرف وجهه إلى الاستعارة والمبالغة، وما لايحسن ذلك فيه، ولا يحببك المعنى إليه، بل يصد بوجهه عنك متى أردته عليه)(٢).

---

(١) المصدر السابق: ١/ ٢٦٠، ٢٦١   (٢) المصدر السابق: ٢/ ١٠٤

وقد قسم عبد القاهر الاستعارة إلى نوعين:

١ ــ استعارة غير مفيدة: كاستعمال اسم مختص بجنس معين في غير جنسه نحو وضع المشفر للانسان والمرسن للإنسان كما في قول العجاج:

* وفاحما ومرسنا مسرجا * (١)

وقد أرقت دعوى عدم الفائدة في مثل هذا عبد القاهر أمام أمثلة فرضت الفائدة في نفسها على حسه وذوقه فأخرجها من هذا الضرب مع أنها منه واعترف بفائدتها وإفادتها المبالغة من مثل قول الحطيئة:

قروا جارك العيمان لما جفوته وقلّص عن برد الشراب مشافره

وقول مزرد:

فما رقد الولدان حتى رأيته على البكر يمريه بساق وحافر (٢)

٢ ــ استعارة مفيدة: وأما الاستعارة المفيدة فهي التي يحصل لك باستعارتها (فائدة ومعنى من المعاني وغرض من الأغراض، ولولا مكان تلك الاستعارة لم يحصل لك، وجملة تلك الفائدة، وذلك الغرض التشبيه إلا أن طرقه تختلف حتى تفوت النهاية، ومذاهبه تتشعب حتى لا غاية)(٣)..

وضرب لذلك أمثلة بين فيها أن وجه فائدة الاستعارة هو المبالغة فقال: (ومثاله قولنا: رأيت أسدا ــ وانت تعني رجلا شجاعا ــ وبحرا ــ تريد رجلا جوادا، وبدرا وشمسا تريد إنسانا مضيء الوجه متهللا، وسللت سيفا على العدو ــ تريد رجلا ماضيا في نصرتك أورأيا نافذا وما شاكل ذلك. فقد استعرت اسم «الأسد» للرجل. ومعلوم أنك أفدت بهذه الاستعارة ما لولاها لم يحصل لك، وهو المبالغة في وصف المقصود بالشجاعة، وإيقاعك منه في نفس السامع صورة الأسد في بطشه وإقدامه وبأسه وشدته، وسائر المعاني

(١) المصدر السابق: ١/١٢٣، ١٢٤ (٢) المصدر السابق: ١٣٠ ــ ١٣٢

(٣) المصدر السابق: ١/١٢٦

المركوزة في طبيعته مما يعود إلى الجرأة... وهكذا أفدت باستعارة البحر سعته في الجود وفيض الكف، وبالشمس والبدر ما لهما من الجمال والبهاء والحسن المالئ للعيون والباهر للنواظر)([١]).

وإذا كانت الاستعارة من أجل التشبيه وهو كالغرض فيها، أو كالعلة والسبب في فعلها([٢]). فإن حصوله بها على وجه خاص هو المبالغة، وتبقى المبالغة فيها غرضا وعلة مع الاختصار والإيجاز. يقول عبد القاهر في ذلك (ولكن التشبيه يحصل بالاستعارة على وجه خاص وهو المبالغة، فقولي: «من أجل التشبيه، أردت به من أجل التشبيه على هذا الشرط، وكما أن التشبيه الكائن على وجه المبالغة غرض فيها وعلة، كذلك الاختصار والإيجاز غرض من أغراضها. ألا ترى أنك تفيد بالاسم الواحد الموصوف والصفة والتشبيه والمبالغة لأنك تفيد بقولك: (رأيت أسداً) أنك رأيت شجاعا شبيها بالأسد وإن شبهه به في الشجاعة على أتم ما يكون وأبلغه حتى إنه لا ينقص عن الأسد فيها)([٣]).

٣ ــ الكناية: وقد صرح عبد القاهر بإفادتها المبالغة، وأن هذه الإفادة جاءت عن طريق الإثبات شأنها في ذلك شأن الاستعارة والتمثيل وذلك لأنك (إذا كنيت عن كثرة القِرَى بكثرة رماد القدر كنت قد أثبت كثرة القرى بإثبات شاهدها ودليلها، وما هو علم على وجودها، وذلك لا محالة يكون أبلغ من إثباتها بنفسها، وذلك لأنه يكون سبيله حينئذ سبيل الدعوة تكون مع شاهد)([٤]).

٤ ــ المجاز الحكمي: لقد تحدث الإمام عبد القاهر عن الاستعارة وهي كما يقول مجاز في ذات الكلمة وفي اللفظ نفسه([٥])، وعن افادتها المبالغة. ثم

---

(١) المصدر السابق: ١/١٢٦ (٢) المصدر السابق: ٢/٩٤

(٣) المصدر السابق : ٢/ ٩٥ (٤) دلائل الإعجاز: ٣٤٣

(٥) المصدر السابق : ٣٢٧

ذكر أن في الكلام مجازاً على غير هذا السبيل وهو أن يكون التجوز في حكم يجرى على الكلمة فقط وتكون الكلمة متروكة على ظاهرها ويكون معناها مقصودا في نفسه، ومرادا من غير تورية ولا تعريض مثل قولهم: نهارك صائم، وليلك قائم، ونام ليلي، وتجلى همي، وقوله تعالى(١)(فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ)(٢). وأشار إلى إفادة هذا النوع من المجاز للمبالغة بقوله:(واعلم أن الذى ذكرت لك في المجاز هناك من أن من شأنه أن يفخم عليه المعنى وتحدث فيه النباهة قائم لك مثله ههنا)(٣). وجعل من ذلك قول الخنساء:

ترتع مارتعت حتي إذاادّكرت فإنما هي إقبال وإدبار

وأكد إفادته المبالغة بقوله:(وذاك أنها لم ترد بالإقبال والإدبار غير معناهما فتكون قد تجوّزت في نفس الكلمة وإنما تجوزت في أن جعلتها لكثرة ماتقبل وتدبر ولغلبة ذاك عليها واتصاله بها وأنه لم يكن له حال غيرهما كأنها قد تجسمت من الإقبال والإدبار)(٤).

وفي بعض الأحيان يتغلب الإحساس الأدبي عنده، واحترام كلمة القائل على مراعاة المعقول ورد كل تصرف للقائل في اللغة إلى ما يستسيغه العقل ويستجيزه من حذف أوتعبير بلازم عن ملزوم على عبد القاهر فلا يبالي بذلك كما فعل أمام هذا البيت الذى قال فيه (وان كنا نراهم يذكرونه حيث يذكرون حذف المضاف ويقولون إنه في تقدير «فإنما هي ذات إقبال وإدبار» وذاك لأن المضاف المحذوف من نحو الآية والبيتين يعني قوله تعالى:

« وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ » (٥) ، وقول الشاعر:

وكيف تواصل من أصبحت خلالته كأبي مرحب

(١) سورة البقرة : ١٦ (٢) دلائل الإعجاز : ٢٢٧
(٣) المصدر السابق : ٢٢٨ (٤) المصدر السابق : ٢٣٣
(٥) سورة يوسف : ٨٢

وقول الأعرابي :

حسبت بغام راحلتي عناقا ... وما هي ويب غيرك بالعناق

في سبيل ما يحذف من اللفظ ويراد بالمعنى كمثل أن يحذف خبر المبتدأ لمبتدأ إذا دل عليه إلى سائر ما إذا حذف كان في حكم المنطوق به س الأمر كذلك في بيت الخنساء لأنا إذا جعلنا المعنى فيه الآن كالمعنى نحن قلنا : فإنما هي ذات إقبال وإدبار: أفسدنا الشعر على أنفسنا رجنا إلى شيء معسول، وإلى كلام عامي مرذول)(١).

ويضيف قائلا: (فالوجه أن يكون تقدير المضاف في هذا على معنى أنه كان الكلام قد جيء به على ظاهره ولم يقصد إلى الذى ذكرنا من بالغة والاتساع، وان تجعل الناقة كأنها قد صارت بجملتها إقبالا وإدبارا تى كأنها قد تجسمت منها لكان حقه حينئذ أن يجاء فيه بلفظ الذات قول: إنما هي ذات إقبال وإدبار: فإما أن يكون الشعر الآن موضوعا على دة ذلك وعلى تنزيله منزلة المنطوق به حتى يكون الحال فيه كالحال في حسبت بغام راحلتي عناقا) حين كان المعنى والقصد أن يقول حسبت ام راحلتي بغام عناق فما لا مساغ له عند من كان صحيح الذوق صحيح رفة نسابة للمعاني)(٢).

وسبق لنا أن رأينا أن ابن جنى يعد هذه الصور المجازية من المبالغة.

ـ إفادة بعض طرق القصر المبالغة :

تحدث عبد القاهر عن إفادة بعض طرق القصر المبالغة فذكر أن طريق ا وطريق التعريف يفيدان المبالغة في بعض الأحيان فإنما تفيد المبالغة إذا عى في القصر أنه أمر ظاهر معلوم للجميع كقول الشاعر :

إنما مصعب شهاب من اللـ ـه تجلت عن وجهه الظلماء (٠)

١) دلائل الإعجاز: ٢٣٣، ٢٣٤ (٢) المصدر السابق: ٢٣٤، ٢٣٤

١) المصدر السابق: ٢٥٥

ونصّ على إفادة هذا الطريق للمبالغة عندما قال: (فأما نحو «إنما مصعب شهاب» فيصلح فيه أن نقول: ما مصعب إلا شهاب لأنه ليس من المعلوم على الصحة وإنما ادعى الشاعر فيه أنه كذلك. وإذا كان هذا هكذا جاز أن تقوله بالنفي والإثبات إلا أنك تخرج المدح حينئذ عن أن يكون على حد المبالغة من حيث لايكون قد ادعيت فيه أنه معلوم وأنه بحيث لاينكره منكر ولا يخالف فيه مخالف)(١).

وتأتي المبالغة في طريق التعريف إذا قصرت جنس المعنى على المخبر عنه لقصدك المبالغة وذلك قولك: زيد هو الجواد، وعمرو هو الشجاع: تريد أنه الكامل إلا أنك تخرج الكلام في صورة توهم أن الجود أو الشجاعة لم توجد إلا فيه، وذلك لأنك لم تعتد بما كان من غيره لقصوره عن أن يبلغ الكمال(٢).

٦ ـ إفادة التقديم للمبالغة:

وقد نوه عن ذلك بقوله: (فإن قلت فمن أين وجب أن يكون تقديم ذكر المحدث عنه بالفعل آكد لإثبات ذلك الفعل له، وأن يكون قوله «هما يلبسان المجد» أبلغ في جعلهما يلبسانه من أن يقال: يلبسان المجد. فإن ذلك من أجل أنه لا يؤتى بالاسم معرى من العوامل إلا لحديث قد نوى إسناده إليه)(٣).

والذى يدل على أنه يعني في هذا الموضع بـ(أبلغ) الدلالة على المبالغة و أنه قرن ذلك بما يدل عليها وهو التفخيم حيث قال: (ومن ههنا قالوا: إن الشيء إذا أضمر ثم فسر كان ذلك أفخم له من أن يذكر من غير تقدم إضمار)(٤).

(١) المصدر السابق : ٢٥٦
(٢) المصدر السابق : ٢٣٨
(٣) المصدر السابق : ١٠١
(٤) المصدر السابق : ١٠٢

٧ ـ حسن التعليل :

وقد ذكرناه عند حديثنا عن أنواع التخييل عند الإمام ولاحاجة بنا الآن إلى إعادة القول فيه .

٧ ــ الزمخشري

أما محمود بن عمر الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ هـ. صاحب التفسير المعروف بـ(الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) فقد كانت دلالته على مواطن المبالغة كثيرة بسبب كثرة الآيات القرآنية والأساليب الفصيحة التي يستشهد بها في تفسيره المتمشية مع مفهوم المبالغة عنده.

ومما يجب أن ننبه إليه أن الزمخشري يستخدم لفظ «أبلغ» في كثير من الأحيان بمعنى أكثر مبالغة، والدليل على ذلك قوله في قوله تعالى:

« وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ » (١)،

عن النكرة(٢): (من أوقع النكرات، وأحزّها للمفصل والمعنى، على وجه من وجوه الذهاب، وطريق من طرقه، وفيه إيذان باقتداره، وأنه لا يتغابى عليه شيء إذا أراده، وهو أبلغ في الإيعاد من قوله:

« قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ » (٣)،

فتخصيصه الأبلغية بالإبعاد دليل على ارادته بها المبالغة مما سوغ له وجه المفاضلة بين آيتين من كتاب الله.

وقوله في قوله تعالى:

« لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ » (٤):

(قالوا مثلك لا يبخل، فنفوا البخل عن مثله، وهم يريدون نفيه عن ذاته،

قصدوا المبالغة في ذلك فسلكوا به طريق الكناية لأنهم إذا نفوه عمن يسد مسده وعمن هو أخص أوصافه فقد نفوه عنه ونظيره قولك للعربي : العرب

(١) سورة المؤمنون : ١٨ (٢) الكشاف : ٣/ ١٤١
(٣) سورة الملك : ٣٠ (٤) الشورى : ١١

لا تخفر الذمم ، كان أبلغ من قولك أنت لا تخفر ، ومنه قولهم قد أيفعت لداته ، وبلغت أترابه ، يريدون ايقاعه وبلوغه)(١).

ويتضح مفهوم المبالغة عنده من خلال استعراض المواضع التالية التي تحدث فيها عن المبالغة :

١ ـ قوله في قوله تعالى :

« تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا » (٢)

(تفيض من الدمع كقولك تفيض دمعا ، وهو أبلغ من يفيض دمعها لأن العين جعلت كأن كلها دمع فائض)(٣).

٢ ـ قوله في قوله تعالى : « **قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين** » : (وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل لغرض ، وهو المبالغة في نفي الولد والإطناب فيه ، وألا يترك الناطق به شبهة إلا مضمحلةمع الترجمة عن نفسه بثبات القدم في باب التوحيد ، وذلك أنه علق العبادة بكينونة الولد وهي محال في نفسها ، فكان المعلق بها محالا مثلها ، فهو في صورته إثبات الكينونة والعبادة ، وفي معنى نفيها على أبلغ الوجوه وأقواها »(٤).

ففي هذين الموضعين تجدها تدل على بلوغ الغاية في المعنى واستقصائه والتناهي فيه ، وتجدها في بعض المواضع تدل على مبالغة نسبية أي زيادة في المعنى تتحقق عن طريق صيغة جاء عليها الكلام لا تتحقق في صيغة

أقل منها، وقد لاتعني بلوغ الغاية في المعنى والتناهي فيه، فمن ذلك قوله في قوله تعالى:

---

(١) الكشاف: ٤/١٦٦ (٢) سورة التوبة: ٩٢

(٣) الكشاف: ٢/٢٣٦ (٤) الكشاف: ٤/٢١٠

« يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا » (١)

(هو أبلغ من قولك يخرجون منها)(٢) وقوله في قوله تعالى:

« أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا » (٣)

(جعلت الشرارة للمكان وهي لأهله، وفيه مبالغة ليست في أولئك شر وأضل، لدخوله في باب الكناية التي هي أخت المجاز)(٤) وقوله في قوله تعالى:

« لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ » (٥)

(أراد ليحطمنكم جنود سليمان فجاء بما هو أبلغ، ونحوه عجبت من نفسي ومن إشفاقها)(٦).

وترتبط المبالغة عند الزمخشري بالتوكيد فهي تقترن به وأشار إلى ذلك في مواضع عدة فمن ذلك قوله في قوله تعالى:

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » (٧)

(خطاب لمشركي مكة، ويا حرف وضع في أصله لنداء البعيد صوت يهتف به الرجل بمن يناديه.

وأما نداء القريب فله أي والهمزة، ثم استعمل في مناداة من سها وغفل وإن قرب تنزيلا له منزلة من بعد، فإذا نودي به القريب المفاطن فذلك

للتأكيد المؤذن بأن الخطاب الذى يتلوه معنى به جدا فإن قلت: فما بال الداعي يقول في جؤاره: يارب وهو أقرب إليه من حبل الوريد وأسمع به،

(١) سورة المائدة: ٣٧
(٢) الكشاف: ١/ ٤٢
(٣) سورة الفرقان: ٣٤
(٤) الكشاف: ١/ ٥٠٨
(٥) سوره النمل: ١٨
(٦) الكشاف: ٣/ ٢٨١
(٧) سورة البقرة: ٢١

وأبصر قلت: هو استقصار منه واستبعاد لها من مظان الزلفي... وأى وصلة إلى نداء ما فيه الألف واللام... وهو اسم مبهم مفتقر إلى ما يوضحه ويزيل ابهامه فلا بد أن يردفه اسم جنس أوما يجرى مجراه يتصف به حتى يتضح المقصود بالنداء... وفي هذا التدرج من الإبهام إلى التوضيح ضرب من التأكيد والتشبيه وكلمة التنبيه المقحمة بين الصفة وموصوفها لفائدتين: معاضدة حرف النداء ومكانفته بتأكيد معناه، ووقوعها عوضا مما يستحقه أى من الإضافة. فإن قلت: لم كثر في كتاب الله النداء على هذه الطريقة ما لم يكثر في غيره. قلت لاستقلاله بأوجه من التأكيد وأسباب من المبالغة لأن كل ما نادى الله له عباده من أوامره ونواهيه وعظاته وزواجره ووعده ووعيده واختصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم وغير ذلك مما أنطق به كتابه أمور عظام وخطوب جسام ومعان عليهم أن يتيقظوا لها ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها وهم عنها غافلون فاقتضت الحال أن ينادوا بالآكد الأبلغ) (١).

وقوله في قوله تعالى:

«كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ» (٢).

(فما تقول في كيف حيث كان إنكارا للحال التي يقع عليها كفرهم؟ قلت حال الشيء تابعة لذاته فإذا امتنع ثبوت الذات اتبعه امتناع ثبوت الحال، فكان إنكار حال الكفر لأنها تبيع ذات الكفر، ورديفها إنكاراً لذات الكفر وثباتها على طريق الكناية وذلك أقوى لإنكار الكفر وأبلغ) (٣) فالقوة في الإنكار هي تأكيده في النفس. وإذا قال الزمخشرى عن الكناية إنها هنا

أبلغ وأقوى فقد بين تاكيدها في موضع اخر مما يدل على تقارب مفهوم المعنيين، المبالغة والتوكيد وتناوبهما حيث يقول في قوله تعالى:

« إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ » (٤).

(فأما القراءة بالجمع ففيها وجهان، أحدهما أن يراد المسجد الحرام...

(١) الكشاف : ٦٨/١ (٢) سورة البقرة : ٢٨.

(٣) الكشاف : ٧٧/١ (٤) سورة التوبة : ١٨.

والثاني أن يراد جنس المساجد، وإذا لم يصلحوا لأن يعمروا جنسها دخل تحت ذلك ألا يعمروا المسجد الحرام الذى هو صدر الجنس ومقدمته، وهو آكد، لأن طريقة الكناية كما لو قلت فلان لا يقرأ كتب الله، كنت أنفى لقراءته القرآن من تصريحك بذلك)(١).

وأظن أن الدكتور محمد حسين أبا موسى قد لفت نظره هذا التلاؤم والاقتران بين المعنيين عند الزمخشرى فجاء بهما أيضاً متلاحمين مقترنين عندما تحدث عن عناصر التوكيد عند الزمخشرى حيث يقول: (والمؤكدات كثيرة لا يمكن الإحاطة بها فإن كثيراً من طرق بناء الكلام تعطيه تقوية ووكادة. فالذكر قد يفيد توكيدا، والحذف قد يفيد توكيدا والوصل والفصل، والتكرار، والاعتراض، والالتفات وصور التشبيه والاستعارة وأنواع المجاز والكناية كل هذه وغيرها تفيد أنواعاً من التوكيد والمبالغة في تثبيت المعنى أو نفيه) (٢).

ومن هنا كانت طرق المبالغة عنده متعددة ومتنوعة تعدد وتنوع عناصر بلوغ الغاية في المعنى، والزيادة فيه، وتوكيده وسنشير هنا إلى بعض طرقها ومواضعها من كتابه الكشاف.

١ ــ **التشبيه:** تحدث الزمخشرى في ثنايا تفسيره عن بعض صور التشبيه وإفادتها المبالغة فأشار إلى ذلك في تفسيره لقوله تعالى:

«طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ» (٣)

« طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ » (٣)

حيث يقول: (وشبه رءوس الشياطين دلالة على تناهيه في الكراهة، وقبح المنظر، لأن الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس لاعتقادهم أنه شر محض لا يخلطه خير فيقولون في القبيح الصورة كأنه وجه شيطان، كأنه رأس شيطان، وإذا صوره المصورون جاءوا بصورته على أقبح ما يقدرون

(١) الكشاف: ١٩٨/٢ (٢) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري.

(٣) سورة الصافات: ٦٥.

وأهوله) (١). وقال في قوله تعالى:

« إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ » (٢).

(فتشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير وتمثيل أصواتهم بالنهاق، ثم إخلاء الكلام من لفظ التشبيه، وإخراجه مخرج الاستعارة وإن جعلوا حميرا وصوتهم نهاقا، مبالغة شديدة في الذم والتهجين وإفراط في التثبيط عن رفع الصوت) (٣).

والتشبيه المقلوب كذلك كان عنده طريقا من طرق المبالغة كما نص على ذلك في تفسيره (٤) لقوله تعالى:

« إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ » (٥).

وكذلك كانت القيود في التشبيه عناصر من عناصر المبالغة في المعنى وتوكيده فمن ذلك تفسيره لقوله تعالى:

« مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ » (٦)

حيث يقول: (وشبه بحرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلك عقوبة لهم على معصيتهم لأن الهلاك من سخط أسوأ وأبلغ) (٧) وأشار إلى ذلك أيضاً في تفسيره لقوله تعالى:

« وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ » (٨).

٢ ـ **الاستعارة:** وجرى فيها على سنن من سبقوه في إفادتها المبالغة ونص على أنها أبلغ من التشبيه (٩).

---

(١) الكشاف : ٤٧/٣ (٢) سورة لقمان : ١٩.
(٣) الكشاف : ٢٣٤/٣ (٤) المصدر السابق : ٢٤٥/١.
(٥) سورة البقرة: ٢٧٥ (٦) سورة آل عمران : ١١٧.
(٧) الكشاف : ٣١١/١ (٨) سورة المنافقون: ٤ وانظر الكشاف ٢/٤.
(٩) الكشاف : ١٧٤/١، ١٧٥

٣ ـ **بعض صور التمثيل والتخييل:** ولا يعنينا هنا التفريق بينهما الذى أشار إليه الدكتور محمد حسنين أبوموسى (١). وإنما الذى يعنينا كون بعض هذه الصور تأتي للمبالغة فن ذلك التشبيه في قوله تعالى:

« طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ » (٢)

والتمثيل في قوله تعالى:

« وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا » (٣)

وجعل منه قوله تعالى:

« لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ » (٤)،

حيث يقول: (من باب التخييل: خيل أن من الممتنع المحال أن تجد قوما مؤمنين يوالون المشركين، والغرض به انه لاينبغي أن يكون ذلك، وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال، مبالغة في النهي عنه، والزجر عن ملابسته) (٥)

وكذلك كان تعليق جواب الشرط على ثبوت صحة الشرط المفترض تمثيلاً جيء به لغرض المبالغة إذ يقول في قوله تعالي:

« قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ » (٦)

(وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل لغرض. وهو المبالغة في نفي الولد والاطناب فيه، وألا يترك الناطق به شبهة الا مضمحلة، مع الترجمة عن

نفسه بثبات القدم في باب التوحيد (٧)

وبقي أن نقول إن ما أطلق عليه الحاتمي الغلو من نحو المخاطبة لما لا يعقل أو تكلمه نجده عند الزمخشري واقعاً تحت باب التخييل فمن قولك قوله في قوله

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٤٣٥ ــ ٤٣٩ .
(٢) سورة الصافات : ٦٥ (٣) سورة الأحزاب : ٧٢ .
(٤) المجادلة : ٢٢ .
(٥) الكشاف : ٣٩٦/٤ (٦) سورة الزخرف : ٨١ .
(٧) الكشاف : ٢٠٩/٤، ٢١٠

تعالى :

« فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ » (١)

(ومعنى أمر السماء والأرض بالإتيان وامتثالهما أنه أراد تكوينهما فلم يمتنعا عليه ووجدتا كما أرادهما، وكأنتا في ذلك المأمور المطيع إذا ورد عليه فعل الأمر المطاع وهو من المجاز الذى يسمي التمثيل. ويجوز أن يكون تخييلا، ويبنى الأمر فيه على أن الله تعالى كلم السماء والأرض وقال لهما ائتيا على الطوع لا على الكره، والغرض تصوير أثر قدرته في المقدورات لا غير من غير أن يحقق شيء من الخطاب والجواب، ونحوه قول القائل: قال الجدار للوتد: لم تشقني؟ قال الوتد: اسأل من يدقني فلم يتركني ورائي الحجر الذى ورائي)(٢). ومقارنة الحقيقة في الكلمة الإلهية التي تم بها تكوين الكون بهذه الحكاية المتخيلة في هذا المثال المصطنع أمر فيه كثير من التعطيل وتجنى منطق العقل البشرى على الكتاب الكريم.

٤ ــ **الكناية**: وقد أشار إلى إفادتها المبالغة في كثير من المواضع فمن ذلك تفسيره لقوله تعالى :

« كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ » (٣)

الذى ذكرنا منه سابقا الجزء الخاص بالمبالغة.

وتفسير قوله تعالى :

« إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ » (٤)

وتفسير قوله تعالى :

---

(١) سورة فصلت : ١١.

(٢) الكشاف : ١٤٨/٤

(٣) سورة البقرة : ٢٨ وانظر الكشاف ٩١/١.

(٤) سورة التوبة : ١٨ وانظر الكشاف ١٩٨/٢.

« أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا » (١).

وقد ذكرنا جانب المبالغة الذى ذكره في هاتين الآيتين.

٥ ـــ **المجاز الحكمي:** وأشار إلى إفادته المبالغة في عدة مواضع منها ما ذكره أثناء تفسير قوله تعالى :

« تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا » (٢).

وتفسير قوله تعالى :

« صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا » (٣).

وتفسير قوله تعالى :

« كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ » (٤)

وجماع ذلك ما ذكره في تفسيره لقوله تعالى :

« خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ » (٥)

حيث قال في ذلك : (.... ويجوز أن يستعار الإسناد في نفسه من غير الله فيكون الختم مسندا إلى اسم الله على سبيل المجاز، وهو لغيره حقيقة، تفسير هذا أن للفعل ملابسات شتى يلابس الفاعل، والمفعول به، والمصدر، والزمان

والمكان والسبب، فإسناده إلى الفاعل حقيقة، وقد يسند إلى هذه الأشياء على طريق المجاز المسمى استعارة، وذلك لمضاهاتها للفاعل في ملابسة الفعل كما يضاهي الرجل الأسد في جراءته، فيستعار إليه اسمه، فيقول في المفعول به: عيشة راضية، وماء دافق، وفي عكسه سيل مفعم، وفي المصدر

(١) سورة الفرقان: ٣٤ وانظر الكشاف ٥٠٨/١.
(٢) سورة التوبة: ٩٢ وانظر الكشاف: ٢٣٦/٢.
(٣) سورة البقرة: ٦٩ وانظر الكشاف: ١١٢/١.
(٤) سورة الشعراء: ٢٠٠ وانظر الكشاف: ١٠/٣.
(٥) سورة البقرة: ٧

شعر شاعر، وذيل ذائل، وفي الزمان نهاره صائم، وليله قائم، وفي المكان طريق سائر، ونهر جار... وفي المسبب بني الأمير المدينة)[١]، وعلى هذا الطريق الأخير قال: (فالشيطان هو الخاتم في الحقيقة أوالكافر إلا أن الله سبحانه لما كان هو الذى أقدره ومكنه أسند إليه الختم كما يسند الفعل إلى السبب)[٢].

وهكذا كان كل ما رأى فيه زيادة في توكيد المعنى. أوتقريره، أوأشعار للاهتمام فيه بشيء دون آخر، كل ما كان كذلك أشار الزمخشري إلى إفادته المبالغة فيذكر أن هناك مبالغة في نفي الأخص حيث يقول في قوله تعالى:

« قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ * قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَـٰلَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ » [٣]

(فإن قلت لم قال: ليس بي ضلالة، ولم يقل ضلال كما قالوا؟ قلت: الضلالة أخص من الضلال فكانت أبلغ في نفي الضلال عن نفسه كأنه قال ليس بي شيء من الضلال كما لوقيل لك ألك تمر فقلت مالي تمرة[٤].

ويذكر أن هناك مبالغة في الاستفهام في قوله تعالى:

« فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ » (٥)

حيث يقول عن هذا الاستفهام: (من أبلغ ما ينهى به كأنه قيل قد تلي عليكم ما فيها من أنواع الصوارف والموانع، فهل أنتم من هذه الصوارف منتهون أم أنتم على ما كنتم عليه كأن لم توعظوا ولم تزجروا) (٦).

(١) الكشاف: ٣٩/١، ٤٠   (٢) الكشاف: ٤٠/١.

(٣) سورة الأعراف: ٦١.   (٤) الكشاف: ٨٩/٢، ٩٠

(٥) سورة المائدة: ٩١.   (٦) الكشاف: ٥٢٦/١.

وقد أشار الدكتور محمد سعد حسين أبو موسى إلى رؤية الزمخشرى المبالغة في مثل هذا النوع من الاستفهام (١)

وذكر الزمخشرى أيضاً أن هناك مبالغة في الأمر في وله تعالى:

« لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » (٢)

وقد أشار إلى ذلك الدكتور محمد حسين أبوموسى حيث قال: (ومن معاني صيغة الأمر الدلالة على تناهي السخط من الأمر وذلك إذا كان المأمور به غير مرغوب فيه) (٣) كما — في هذه الآية — ويضيف: (قال الزمخشرى: فان قلت: كيف جاز أن يأمر الله تعالى بالكفر وبأن يعمل العصاة ما شاءوا وهو ناه عن ذلك ومتوعد عليه؟ قلت: هو مجاز عن الخذلان والتخلية وأن ذلك الأمر متسخط إلى غاية، ومثاله أن ترى الرجل قد عزم على أمر وعندك أن ذلك الأمر خطأ، وأنه يؤدى إلى ضرر عظيم، فتبالغ في نصحه واستنزاله عن رأيه، فاذا لم تر منه إلا الإباء والتصميم جردت عليه وقلت أنت وشأنك وافعل ما شئت، فلا تريد بهذا حقيقة الأمر، وكيف والآمر بالشيء مريد له، وأنت شديد الكراهية متحسر، ولكنك كأنك تقول له، فإذ قد أبيت قبول النصيحة، فأنت أهل ليقال لك افعل ما شئت وتبعت عليه، ليتبين لك إذا

فعلت صحة رأي الناصح وفساد رأيك) (٤).

وذكر أيضاً أن هناك مبالغة في النداء مثل قوله تعالى:

«يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (٥).

(١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٢٩٦.

(٢) سورة العنكبوت: ٦٦.

(٣) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٣٠٧.

(٤) المرجع السابق: ٣٠٧، ٣٠٨ وانظر تفسير الكشاف ٣٦٥/٣.

(٥) سورة البقرة: ٢١

وقد نقلنا آنفا كلامه في هذه الآية. وإذا كانت المبالغة قرينة التوكيد، فمن الطبيعي أن تأتي بعض المؤكدات للمبالغة كما أشار إلى ذلك أثناء تفسيره لقوله تعالى:

«وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ» (١)

حيث يقول: (فإن قلت: لم كانت مخاطبتهم المؤمنين بالجملة الفعلية وشياطينهم بالاسمية محققة بأن؟ قلت: ليس ما خاطبوا به المؤمنين جديراً بأقوى الكلامين وأوكدها، لأنهم في ادعاء حدوث الإيمان منهم ونشئه من قبلهم لا في ادعاء أنهم أوحديون في الإيمان غير مشقوق فيه غبارهم، وذلك إما لأن أنفسهم لا تساعدهم عليه إذ ليس من عقائدهم باعث ومحرك. وهكذا كل قول لم يصدر عن أريحية، وصدق رغبة واعتقاد، وإما لأنه لا يروح عنهم لو قالوه على لفظ التوكيد والمبالغة) (٢).

(١) سورة البقرة : ١٤ .

(٢) الكشاف : ١/٥٠

الفصل الثالث

المبالغة عند المتأخرين

تناولت في الفصلين السابقين تطور المبالغة عند العلماء على اختلاف اتجاهاتهم، ما بين لغوى، وناقد، وأديب، ومفسر، ومتكلم، حتى يتبين من ذلك كيف كان مفهومها عندهم، وكيف استفادوا منها في أبحاثهم، وكيف تلونت بأبحاثهم واتجاهاتهم، وسيتناولها البحث الآن عند البلاغيين المتأخرين، وسيكون التناول كما سبق من عرض لمصطلحاتها، وما يدخل تحتها، وكيفية فهمها، تاركا بيان الموقف منها إلى مكان آخر من هذا البحث.

وهذا العصر الذى يضم هؤلاء البلاغيين المتأخرين هو عصر السكاكى ومدرسته وسنقف فيه على ابن الأثير والعلوي، ذلك لأنهما وإن كانا في عصر السكاكي إلا أن لكل منهما وجهة مستقلة في المنهج البلاغي، عن السكاكى ومن لف لفه، لذلك حرص البحث على معرفة مفهوم المبالغة عندهما، وعند مدرسة السكاكى حتى نكون على بينة مما كانت عليه في

مختلف الاتجاهات .

١ ـ ابن الأثير

يمثل ضياء الدين بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧ من الهجرة ، اتجاها نقديا بلاغياً ، يمتزج بالأدب ، وهذا الاتجاه امتداد لاتجاه كثير من النقاد قبله كأبى هلال في القرن الرابع الهجرى ، وابن رشيق ، وابن سنان في القرن الخامس الهجرى .

وقد كان في كتابه المثل السائر أشبه بأبي هلال ، إذ كان يتخذ (في تأليفه النقدى منهجاً قريباً من منهج أبي هلال في الصناعتين ، إذ يقسم الكتاب إلى مقدمة في البيان ، وأدواته بصفة عامة ، ثم يقسم الكلام فيه إلى مثالين أولهما في الصنعة اللفظية ، والثانى في الصنعة المعنوية)(١) .

ومفهوم المبالغة عنده ، ليس فيه كبير اختلاف عن كثير ممن سبقه فلقد جعل من المبالغة التكرير بالمعنى دون اللفظ في مثل قوله تعالى :

« قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا

بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ » (٢)

حيث قال: (فإن البغضاء والعداوة بمعنى واحد، وإنما حسن إيرادهما معا في معرض واحد لتأكيد البراءة بين إبراهيم صلوات الله عليه والذين آمنوا به، وبين الكفار من قومهم حيث لم يؤمنوا بالله وحده، وللمبالغة في اظهار القطيعة والمصارمة)(٣) وإلى مثل ذلك أشار في قوله تعالى:

---

(١) ضياء الدين بن الأثير وجهوده في النقد: ٧٥.

(٢) سورة الممتحنة آية (٤).

(٣) المثل السائر: ١٧٧/٢، ١٧٨ ويلاحظ أن ابن الأثير جعل العداوة والبغضاء بمعنى واحد وليس هما كذلك.

« فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ * فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ »(١)

حيث قال في ذلك: (فقوله «غير يسير» بعد قوله «عسير» من هذا النوع المشار إليه، والا فقد علم أن العسير لا يكون يسيرا، وإنما ذكر ههنا على هذا الوجه، لتعظيم شأن ذلك اليوم في عسره وشدته على الكافرين)(٢) وجعل منها أيضاً التكرير باللفظ في مثل قول أبي الطيب:

ألا يا اسلمى ثم اسلمى ثمت اسلمى ثلاث تحيات وان لم تكلمي

حيث يقول عنه: (وهذا مبالغة في الدعاء لها بالسلامة، وكل هذا يجاء لتقرير المعنى المراد إثباته)(٣).

وهذه الأمثلة واقعة عنده في القسم المفيد من التكرير، الذى علله

بالمبالغة حيث يقول: (واعلم ان المفيد من التكرير ياتي في الكلام تاكيدا له، وتشييدا من أمره وإنما يفعل ذلك للدلالة على العناية بالشيء الذى كررت فيه كلامك، إما مبالغة فى مدحه أوفي ذمه، أوغير ذلك. ولا يأتي إلا في أحد طرفي الشيء المقصود بالذكر، والوسط عار منه، لأن أحد الطرفين هو المقصود بالمبالغة إما بمدح أوذم أوغيرهما، والوسط ليس من شرط المبالغة)(٤) وتحدث كذلك عن المبالغة في الكلمة المفردة عند حديثه عن «قوة اللفظ لقوة المعنى». الذى رأيناه عند ابن جنى ورأينا جذوره عند الخليل وسيبويه فقال: (اعلم أن اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان، ثم نقل إلى وزن آخر أكثر منه، فلابد من أن يتضمن من المعنى أكثر مماتضمنه أولاً، لأن الألفاظ أدلة على المعاني، وأمثلة للإبانة عنها، فإذا زيد في الألفاظ أوجبت القسمة زيادة المعاني، وهذا لانزاع فيه لبيانه، وهذا النوع

(١) سورة المدثر: ٨ ـ ١٠.
(٢) المثل السائر: ١٧٧/٢.
(٣) المصدر السابق: ١٦٢/٢.
(٤) المصدر السابق: ١٥٨/٢.

لا يستعمل إلا في مقام المبالغة)(١). ومثل لذلك بخشن وأخشوشن، وقدر واقتدر، وقال في قوله تعالى:

«فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا»(٢).

(فإن غفارا أبلغ في المغفرة من غافر لأن فعّالا يدل على كثرة صدور الفعل وفاعلا لايدل على الكثرة)(٣) ولقد أشار إلى سبق ابن جني عليه في التنبه إلى هذا(٤).

وفهم ابن الأثير للمبالغة كما يظهر مماسيق يبين لنا أنه يفهمها بمفهومها الأصيل في اللغة. وأنها تجيء للدلالة على بلوغ الغاية، والنهاية فيما يراد قوله.

ولقد صرح ابن الأثير بافادة التشبيه للمبالغة بل إنه ربط جميع أغراضه بها فقال: (والقول السديد في بلاغة التشبيه هو ما أذكره. وهو أن إطلاق من

اطلق قوله في أن من شروط بلاغة التشبيه أن يشبه الأصغر بالأكبر غير سديد، فإن هذا قول غير حاصر للغرض المقصود، لأن التشبيه يأتي تارة في معرض المدح، وتارة في معرض الذم، وتارة في غير معرض مدح ولا ذم وإنما يأتي قصدا للإبانة والإيضاح، ولا يكون تشبيه أصغر بأكبر كما ذهب إليه من ذهب. بل القول الجامع في ذلك أن يقال: إن التشبيه لا يعمد إليه إلا لضرب من المبالغة، فإما أن يكون مدحاً، أوذماً، أوبيانا وإيضاحا ولا يخرج عن هذه المعاني الثلاثة. وإذا كان الأمر كذلك فلابد من تقدير لفظة أفعل، فان لم تقدر فيه لفظة أفعل فليس بتشبيه بليغ، ألا ترى أنا نقول في التشبيه المضمر الأداة (زيد أسد) فقد شبهنا زيداً بأسد الذى هو أشجع منه، فإن لم يكن المشبه به في هذا المقام أشجع من زيد الذى هو المشبه، وإلا كان التشبيه ناقصا إذ لا مبالغة فيه)(٥).

(١) المصدر السابق: ٢/٦٠.
(٢) سورة نوح: ١٠.
(٣) المثل السائر: ٢/٦١.
(٤) المصدر السابق: ٢/٦٠.
(٥) المصدر السابق: ٣٩٦، ٣٩٧.

وابن الأثير الذى استعمل لفظ المبالغة في معناه الأصيل، لا يستخدم هذا اللفظ فيما رأى أنه فيه إسرافا وتجاوزا للحد بل يستخدم في ذلك «الإفراط» الذى قرنه بالغلو وقد سبق أن رأينا مثل ذلك عند أبي هلال والثعالبي، وابن رشيق فهو يقول عن الإفراط: (هو الإسراف وتجاوز الحد، يقال: أفرط في الشيء أسرف وتجاوز الحد)(١) وإذا نقله إلى علم البيان يجعله ضدا للتفريط فيقول: (أما التفريط والإفراط فهما ضدان أحدهما: أن يكون المعنى المضمر في العبارة، دون ما تقتضيه منزلة المعبر عنه. والآخر أن يكون المعنى فوق منزلته)(٢). ومما يدل على تخصيصه الإفراط بما تجاوز الحد أو كان المعنى فيه فوق منزلته عدم إطلاقه على الله سبحانه وتعالى لأنه مهما ذكر به من المعاملات في صفاته فإنه دون ما يستحقه(٣). وأما المبالغة فلأنها لا تصل إلى هذه الدرجة المتجاوزة للنهاية والغاية فقد أطلقها على صفات الله سبحانه وتعالى كما رأينا في أثناء حديثه عن المبالغة في اللفظة

الفردة. ومما حكم عليه بالإفراط والغلو والمغالاة قول عنترة:

وأنا المنيّة في المواطن كلها والطعن مني سابق الآجال

وقال: (وقد يروى بالياء، وكلا المعنيين حسن، إلا أن الياء أكثر غلوا)(4).

وقال عن أبى الطيب المتنبى:

(وقد استعمل أبو الطيب المتنبي هذا القسم في شعره كثيرا، فأحسن في مواضع منه فمن ذلك قوله:

عجاجا تعثر العقبان فيه كأن الجو وعث أوخبار(5)

(1) المصدر السابق: ٣١٦/٢. (٢) المصدر السابق: ٣١٦/٢.

(٣) المصدر السابق: ٣٣٢/٢. (٤) المصدر السابق: ٣٣٢/٢.

(٥) الوعث من الأرض: السهل الكثير الرمل، الخبار: الأرض اللينة (التبيان في شرح الديوان: ١٠٣/٢).

ثم أعاد هذا المعنى في موضع آخر فقال:

عقد سنابكها عليها عثيرّاً لو تبتغي عنقا عليه لأمكنا

وهذا أكثر مغالاة من الأول)(1).

(١) المثل السائر: ٢/٣٣٤، ٢٣٥.

٢ ـ مدرسة التلخيص وشروحه

إن هذه المدرسة التي تبتدئ بالسكاكي، ويمتد بتيارها الخطيب القزويني وشراح التلخيص من بعده لتتحمل مسئولية كبيرة في انحدار البلاغة، إذ إنها ابتداء من السكاكي قد غمست قواعد البلاغة في بحار من العلوم العقلية من منطق وفلسفة وجرت في ذلك إلى غاية بعيدة المدى، كانت أولى الخطوات الواسعة ـ بعد قدامة ـ في النزول بالبلاغة إلى هذا الدرك الشائن الذى هي عليه الآن وقد صادفت هذه الطريقة رواجا عند المتأخرين حتى يخيل إليك وأنت تقرأها أنك أمام عدة علوم قوامها المنطق والفلسفة وعلم الكلام. وما إليها[1]، ويصور لنا الدكتور أحمد إبراهيم موسى ما لقيه البديع وأخواه المعاني والبيان على يد هذه المدرسة بقوله: (فلما كانت أواخر القرن السادس وأوائل

... أواخر القرن السادس وأوائل السابع، أخذ البديع — كزميليه ينحدر رويداً رويدا، إلى هاوية الإسفاف، والانحطاط، ويفقد صبغته الأدبية التي أبرزته في معرض الإشراق والإعجاب، ويتعثر في قيود ضيقة قدها له المنطق والفلسفة، حتى صار هم العلماء تعديد ألوانه والاكتفاء بتحديدها كما تحدد الكلمات اللغوية، وسوق الأمثلة التقليدية التي يتوارثونها لكابر عن كابر حتى أصبحت الكتب الكثيرة التي ألفت فيه بعد السكاكي كأنها كتاب واحد، فمن وقف على أحدها غنى به عما عداه... وقد زاده تعثرا على مر الزمن وقوعه فريسة للشراح والمقررين الذين يرون أن الحذق والتمهر إنما يظهران في العناية، بالجدل الذى لا يفيد، وافتراض الاعتراضات والشبه، ثم الاشتطاط في الإجابة عنها مما قضى على البديع، وذهب بروعته الأدبية وأورده موارد العقم والجمود) [٢].

ومن هنا -فإنا لا نتوقع أن نرى عند هذه المدرسة فهما جديداً للمبالغة، بل على العكس من ذلك نجد عندها تضييقاً لها وحصرا في دائرة الادعاء والكذب والتجوز والاستحالة، إذ خضعت لتقسيم منطقى يربطها بالواقع

(١) الصيغ البديعي: ٢٤٦، ٢٤٧. (٢) المصدر السابق: ٢٤٣.

والعادة إذ عرفها الخطيب بقوله: (والمبالغة أن يدعي لوصف بلوغه في الشدة أو الضعف حداً مستحيلا أو مستبعدا لئلا يظن أنه غير متناه في الشدة أو الضعف) [١] وحصرها في التبليغ والإغراق، والغلو، فقال: (وتنحصر في التبليغ، والإغراق، والغلو لأن المدعى إن كان ممكنا عقلا وعادة فتبليغ كقوله:

فعادى عداء بين ثور ونعجة   دراكا فلم ينضح بما فيغسل

وإن كان ممكنا عقلا لا عادة فإغراق كقوله:

ونكرم جارنا مادام فينا   ونتبعه الكرامة حيث مالا

وهما مقبولان، وإلا فغلو كقوله:

[illegible]

وأخـفـت أهـل الشـرك حـتـى إنـه   لـتـخـافـك النطف التي لم تخلق (٢)

وسنعود إلى مناقشة هذا التقسيم، ومابنى عليه. عندما نتناول المبالغة في البديع بإذن الله، وحصر المبالغة وأنواعها في البديع، وحملها على الادعاء والتجوز جعل أحد أعلام هذه المدرسة وهو البهاء السبكي، يحمل المبالغة في اللفظة المفردة على المجاز ويجعل المبالغة فيها مصطلحا خاصا باللغويين والنحاة فهو يقول: (ماذكر المصنف من المبالغات هو فيما يتعلق بالمركبات) وذكر جماعة المبالغة على وجه يعم المفرد والمركب، فقال الرماني: (المبالغة على ضروب منها: المبالغة في الصفة المعدولة غير الجارية فإنها جاءت على فعلان، وفعّال، وفعول، وفعيل، ومِفْعَل معدول عن فاعل مثل مدعس عن داعس، ومَطْعَن عن طاعن، ومِفعَال مثل مِطْعام) وزاد عبد اللطيف البغدادي في قوانين البلاغة فزاد فيها مفعيل وفعيل، وفَعِل وفُعال في النداء مثل يا لَكِع، ويالُكَاع، قال الجاحظ: (قالوا للفارس شجاع، فإن زاد قليلا

---

(١) الإيضاح ضمن شروح التلخيص: ٣٥٨/٤.

(٢) المصدر السابق: ٣٥٩/٤، ٣٦١.

قالوا: بطل، فإن زاد قالوا: بهمة، فإن زاد قالوا: كميّ، فإن زاد قالوا صنديد، فإن بلغ الغاية قالوا: أليس، وكذلك يجرى الحال في سائر الطبقات مثل الكريم والحليم والبخيل والعالم والجاهل). ويضيف السبكي قائلا: (وقد ذكر الثعالبي في فقه اللغة كثيرا من هذا النوع، ذكر ابن الشجرى من الأمثلة المحولة للمبالغة فَعِل وفعال ومِفعَال، وذكر أيضا مفْعَلان في النداء مثل يا مكذّبان ويا مَكْلَمان وماذكرناه من صيغ المبالغة ليس مقتصرا عليه كما أفهمه كلامها، فإن للعرب أوزانا لاتكاد تستعمل إلا للمبالغة مثل فَعِل وفعيل مثل سكّيت، وفُعَلَة مثل هُمَزَة لُمَزة) (١) ويضيف مخرجا هذه المفردات من المبالغة قائلا: (وأما ذكر هذه الصيغ من أنواع المبالغات ففيه نظر لأن معنى كون هذه الألفاظ للمبالغة أن العرب وضعتها لذلك المعنى

بقيد كونه كثيرا فوضعت العرب راحما ليفيد أصل الرحمة، ووضعت رحيما ليفيد رحمة كثيرة، فرحيم معناه راحم كثيرا فالمعنى المستفاد منه أبلغ من المعنى المستفاد من صيغة راحم، وهذا المعنى ليس هو المذكور في علم البديع، لأن المبالغة في البديع أن تدعى لوصف بلوغة في الشدة والضعف لحد مستحيل أومستبعد ليلعم بذلك أن مبناه في أحدهما فلابد فيه حينئذ من التعبير عن الواقع من تلك الصفة بعبارة موضوعة لأكثر منه على سبيل المجاز، فأنت إذا قلت عن شخص كثير الرحمة هو رحيم. فهذه ليست مبالغة لأنك أخبرت عنه باشتماله على الصفة على الكثرة التي هي موضوع رحيم، كما أنك إذا قلت عنه إنه كثير الرحمة لم تبالغ، وكما أنك إذا قلت عندى ألف ليس فيه مبالغة بالنسبة إلى من قال عندى واحد، ولابد في المبالغة من تجوّز نعم تحسن المبالغة إذا قلت زيد رحيم ولم يكن كثير الرحمة بل أردت أن تبالغ في الرحمة اليسيرة الواقعة منه لغرض من الأغراض، فهذه حينئذ مبالغة، وكذلك إذا قلت عندى ألف رجل، وأردت مائة تعظيما لهم، فقد تبين بذلك أثر هذه الألفاظ ليست موضوعة للمبالغة البديعية، وأن من يطلق عليه المبالغة فذلك بحسب اصطلاح النحاة واللغويين نظرا إلى مادل

(١) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص: ٣٦٧/٤.

عليه بالنسبة إلى مادل عليه مطلق اسم الفاعل فليتأمل)(١).

وقد دعاه هذا المفهوم للمبالغة الذى يقرنها بالادعاء والتزيد أن يقول (سمعت بعض المشايخ يقول إن صفات الله تعالى التي هي على صيغة المبالغة كغفار ورحيم وغفور ومنان كلها مجازات وهي موضوعة للمبالغة، ولامبالغة فيها لأن المبالغة أن يثبت للشيء أكثر مما له، وصفات الله تعالى متناهية في الكمال، لاتمكن المبالغة فيها، والمبالغة أيضا تكون في صفات تقبل الزيادة والنقص وصفات الله تعالى منزهة عن ذلك، وعرضت هذا الكلام على الوالد فاستحسنه، ولا شك أن هذا إنما يأتي تفريعا على أن هذه

الأسماء صفات، فإن قلنا أعلام فلا يرد السؤال، لأن العلم لا يقصد مدلوله الأصلي من مبالغة ولا غيرها، وسمعت بعض أهل العلم يقول، إنما لم يوجد لكثير من الشعراء المسلمين كثير من الشعر يمدحون به رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن الشعر إنما يحسن بالمبالغة، وهي متعذرة في حقه صلى الله عليه وسلم لأن المادحين وإن بذلوا جهدهم لا يصلون إلى قطرة من بحره عليه أفضل الصلاة والسلام) (٢).

ومبنى هذا الكلام يقوم على التنائي عن مفهوم المبالغة الأصلي في الدلالة على الوصول إلى الغاية، والتناهي في أداء المعنى، إلى التجاوز بها عن النهاية والغاية إلى الكذب والادعاء، والإسراف.

(١) المصدر السابق: ٤/٣٦٧، ٣٦٨.   (٢) المصدر السابق: ٤/٣٦٨.

٣ـ الإمام العلوى

وأما أمير المؤمنين يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوى المتوفى سنة ٧٤٥هـ. فنحن ذاكروه هنا، لأنه صاحب بحث مستقل في كتابه الطراز المتضمن لأسرار البلاغة، وحقائق علوم الإعجاز لم يعتمد فيه على المفتاح، وإنما كانت له مصادر أخرى أشار إليها ـ وإن كان بعضها يمثل أصولا لمفتاح العلوم الذى قام عليه التلخيص وشروحه ـ لنرى إلى أى حد وصلت المبالغة عنده؟ هل انحصرت في الادعاء والإفراط والتجوز؟ كما رأينا عند مدرسة التلخيص، أوأنها لا زالت تحمل شيئا من دلالتها الأصلية في بلوغ

الغاية والوصول إلى النهاية كما رأينا عند كثير من العلماء السابقين الذين سبقت الإشارة إليهم ؟!

لقد حاول الإمام العلوى أن يظهر لنا من خلال مقدمة كتابه. أنه يتخذ في التأليف البلاغي منهجا وسطا بين من يخلطون مباحثهم البلاغية بالأدب، وبين من يلخصونها، ويقررون قواعدها، ويحصرون أمثلتها حيث قال عن منهج تينك الفئتين: (فمنهم من بسط كلامه فيه نهاية البسط، وخلط فيه ماليس منه فكان آفته الإملال، ومنهم من أوجز فيه غاية الإيجاز، وحذف منه بعض مقاصده فكان آفته الإخلال) وأشار إلى أنه طالع من الدواوين المؤلفة فيه أربعة كتب هي: المثل السائر للشيخ أبي الفتح نصر بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير.

وكتاب التبيان للشيخ عبد الواحد بن عبد الكريم، وكتاب «النهاية» لابن الخطيب الرازى، وكتاب «المصباح» لابن سراج المالكي

وأشار إلى مكانة الإمام عبد القاهر في علم البيان وأنه أول من أسس من هذا العلم قواعده، وأوضح براهينه، وأظهر فوائده، ورتب أفانينه، وقال عن كتابيه: (وله من المصنفات فيه كتابان، أحدهما لقبه «بدلائل الإعجاز»

والاخر لقبه «بأسرار البلاغة». ولم أقف على شيء منها مع شغفي بحبها، وشدة إعجابي بها، إلا ما نقله العلماء في تعاليقهم منها) (١).

ولقد حمل في كتابه هذا على الذين يخلطون المنطق بعلم البيان قائلا: «فإن موضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة، ومعرفة أساليبها، وهما بمعزل عن المنطق، فلا ينبغي أن يمزج أحدهما بالآخر لاختلاف حقائقهما) (٢).

وأما منهجه في المبالغة فقد كان فيه قريبا من منهج مدرسة التلخيص إذ

عدها من أنواع البديع فيا يتعلق بالفصاحة المعنوية تماما كما فعلت مدرسة التلخيص وعرفها تعريفا مقاربا لتعريفهم قائلا بأنها في مصطلح علماء البيان (هي أن تثبت للشيء وصفا من الأوصاف تقصد فيه الزيادة على غيره، إما على جهة الإمكان، أو التعنت أوالاستحالة) وعندما جاء إلى ذكر أنواعها ربطها بالادعاء كما فعلوا، وقسمها إلى أقسامها الثلاثة عندهم، من تبليغ، وإغراق، وغلو، مستبدلا التبليغ بالمبالغة فقال: «اعلم أن المبالغة ترجع حقيقة أمرها إلى دعوى المتكلم للوصف اشتدادا فيا سبق من أجله على مقدار فوق ما يسلّمه العقل، ويستقربه، ثم ذلك المقدار في نفسه إما أن يكون ممكنا أوغير ممكن، والممكن إما أن يكون واقعا أوغير واقع، فدعوى كون الوصف على مقدار مستبعد يصح وقوعه عادة يسمى مبالغة، ودعوى كون الوصف على مقدار ممكن يمتنع وقوعه عادة، يسمى إغراقا، ودعوى كون الوصف علي مقدار غير ممكن يسمى غلوا)(٣)، ولقد جعل مما يستبعد في العقل ويصح وقوعه قوله تعالى:

« وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا » (٤)

---

(١) الطراز: ١/٣، ٤.
(٢) المصدر السابق: ١/٣٧.
(٣) المصدر السابق: ٣/١٢٥.
(٤) سورة الإسراء: ٢٤.

وقوله عز وجل:

« وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ »(١)

ولست أدرى ما الذى دعاه إلى ربط مفهوم المبالغة بالإدعاء والاستبعاد العقلي — ومن ثمّ إدخال استعارات القرآن الكريم في هذا الحكم — مع أن

في دلالة المبالغة الأصلية في اللغة والتي قال عنها: (وهي مصدر من قولك: بالغت في الشيء مبالغة إذا بلغت أقصى الغرض منه)[٢] مندوحة له عن هذا الحكم الجائر على آى الكتاب العزيز، وقصر بالمبالغة فيها عن الإسراف والإفراط. في حدود أقصى الغرض وغايته، مع أن المبالغة ليست وظيفة الاستعارة الر يدة وليست هي الوظيفة التي نركن إليها، ونستريح من عناء البحث في ا سعارة كما سترى في الفصول القادمة.

وأما ما أدخله تحت المبالغة من أساليب فقد حصره في طرق ثلاث:

الطريقة الأولى:

استعمال اللفظ في غير ما وضع في الأصل وجعل من ذلك الاستعارة، والكناية والتمثيل قال في هذا الطريق (أن يستعمل اللفظ في غير ما وضع له في الأصل أما على جهة الاستعارة أوالكناية، أوالتمثيل.. فإنه إنما استعمل فيها على تلك الأوجه من أجل المبالغة في معناها، فإن قولنا: مررت بالرجل الأسد يخالف قولنا مررت بالرجل الشجاع البالغ في الشجاعة كل مبلغ، وماذاك إلا لما فيه من المبالغة بكونه مجازا)[٣].

---

(١) سورة النحل: ١١٢. (٢) الطراز ١١٦/٣.

(٣) المصدر السابق: ١٢٢/٣.

الطريقة الثانية:

وأما الطريقة الثانية فقال فيها: (أن تُرادِفَ الصفات وتكون متكررة لإعظام حال الموصوف، ورفع شأنه، ومن أجل قصد التهويل في المعنى المقصود وإشادة أمره من مدح أوذم)[١]. وجعل من ذلك قوله تعالى:

« ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ

[illegible]

فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ » (٢)

وعلق بقوله: (فانظر إلى تعديد هذه الجمل، ومجيئها من غير حرف عطف، كيف أفادت المبالغة في حال الموصوف، وأشادت من قدره، ورفعت من حاله وأبانت المقصود على أحسن هيئة) (٣) وإذا علمنا أن هذه الآية تتحدث عن نور الله عز وجل فكيف يكون فيها الرفع من حاله؟ وكان علينا أيضا أن نفهم المبالغة في حاله بمفهوم يخالف مفهومها عنده الذى يجعلها دعوى، ويجعلها مما يستبعد في العقل فنفهمها على حسب مدلولها اللغوى، الذى يدل على بلوغ الغاية في الوصف.

وجعل من ذلك قوله تعالى:

« أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا » (٤)

حيث قال: فتأمل هذه الأوصاف في نعت النور والظلمة، كيف أصابت الحز وطبقت المفصل في تحصيل المقصود، وإظهار المبالغة فيه كما

(١) المصدر السابق: ٣/١٢٢، ١٢٣.

(٢) سورة النور: ٣٥.

(٣) الطراز: ٤/١٢٣.

(٤) سورة النور: ٤٠.

نرى) (١). وعلينا أيضا أن نفهم المبالغة فيها كما فهمناها في الآية الأولى وكما يجب أن نفهما في القرآن الكريم عموما أنها تبلغ بالكلام الغاية في الوصف، والنهاية في المعنى دون تجاوز لذلك إلى الادعاء والإسراف والإفراط وغير ذلك من المسميات الجائرة التي ارتبطت بالمبالغة.

الطريقة الثالثة:

وأما الطريقة الثالثة فهي عنده: (إتمام الكلام بما يوجب حصول المبالغة

فيه، وإكماله به، وهذا كقول من قال يمدح نفسه وقومه:

ونكرم جارنا مادام فينا ونتبعه الكرامة حيث كانا

فإنه لم يكتف بما صدره في أول البيت من مقدار ما هو عليه وقومه من الإحسان إلى الجار والقيام بحقه، وبذل الجهد في المعروف إليه، حتى شفعه بقوله: (ونتبعه الكرامة حيث كانا) مشتملا على زيادتين، الزيادة الأولى لحوق الكرامة له من الاتحاف والإلطاف وكثرة الإحسان والتبجيل، والتعظيم، والزيادة الثانية قوله: «حيث كانا» وأراد به حيث يسير من سائر الجهات من بر أو بحر أو سهل أوجبل فحصول هاتين الزيادتين قد اشتمل على المبالغة فيما ذكرناه)(٢).

وسنناقش مستقبلا إن شاء الله هذا التصور للمعنى، وكيفية الحكم بالزيادة فيه، وهل يصح ذلك أولا؟

---

(١) الطراز: ١٢٣/٣.

(٢) المصدر السابق: ١٢٣/٣.

الباب الثاني
أَساليب المبالغة في البَلاغة العرَبية

الفصل الأول : أساليب المبالغة في علم البيان

الفصل الثانى : أساليب المبالغة في علم المعاني

الفصل الثالث : أساليب المبالغة في علم البديع

الفصل الأول
المبالغة في علم البيان

١ ــ المبالغة في التشبيه

كثرت الدراسات التي قام بها المحدثون لبيان منظور البلاغة العربية والنقد العربي إلى التشبيه وتكاد تجمع هذه الدراسات على أن غالب هذا المنظور يرى أن فكرة التشبيه هي تمثيل شيء بشيء لتقريره وتوضيحه،

أوتوكيده والمبالغة فيه(1) يقول الرماني: (والأظهر الذى يقع فيه البيان بالتشبيه على وجوه: منها إخراج مالا تقع عليه الحاسة إلى ماتقع عليه الحاسة. ومنها إخراج مالم تجربه عادة إلى ماجرت به عادة، ومنها إخراج مالا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة، ومنها إخراج مالا قوة له في الصفة إلى ماله قوة في الصفة)(2) ولقد أعاد أبو هلال العسكرى هذه الأوجه ومثل لها بأمثلة قرآنية تحت قوله: (وأجود التشبيه وأبلغه مايقع على أربعة أوجه).(3) وأضاف إليها قسما آخر أوضحه بقوله: (وقد جاء في أشعار المحدثين تشبيه مايرى العيان بماينال بالفكر وهو رديء، وإن كان بعض الناس يستحسنه لما فيه من اللطافة والدقة وهو مثل قول الشاعر:

وكنت أعزّ عزّا من قنوعٍ يعوضه صفوح من ملول
فصرت أذل من معنى دقيق به فقرٌ إلى فهمٍ جليل

كقول الآخر:

وندمان سقيتُ الراحَ صرفا وأفقُ الليل مرتفعُ السجوفِ
صفت وصفت زجاجتُها عليها كمعنىً دقّ في ذهن لطيفِ

فأخرج ماتقع عليه الحاسة إلى مالا تقع عليه، ومايعرف بالعيان إلى مايعرف بالفكر، ومثله كثير في أشعارهم)(4) والذى دعاه إلى الحكم عليه بالرداءة فكرة التوضيح والإخراج التي رأى أن التشبيه يأتي لها (والتشبيه

(1) انظر مثلا: فلسفة البلاغة: ٧٥ والصورة الأدبية: ٥٦ ـ ٦٤ والصورة الفنية: ٢٣٧.
(2) النكت في إعجاز القرآن: ٨١. (3) الصناعتين: ٢٤٦ ـ ٢٤٨.
(4) الصناعتين: ٢٤٨.

يزيد المعنى وضوحا ويكسبه تأكيدا ولهذا ماأطبق عليه جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه، ولم يستغن أحد منهم عنه)(1) ويقول ابن الأثير عنه وعن صور المجاز الأخرى من استعارة وتمثيل وكناية أن عملها هو (إثبات

الغرض المقصود في نفس السامع بالتخييل والتصوير حتى يكاد ينظر إليه عيانا، ألا ترى أن حقيقة قولنا: زيد أسد هي قولنا: زيد شجاع، لكن الفرق بين القولين في التصويروالتخييل وإثبات الغرض المقصود في نفس السامع لأن قولنا: زيد شجاع لايتخيل منه السامع سوى أنه رجل جرئ، مقدام، فإذا قلنا زيد أسد تخيل عند ذلك صورة الأسد وهيئته، وماعنده من البطش والقوة ودق الفرائس)(٢).

ويقول السكاكي: (المشبه به من حقه أن يكون أعرف بجهة الشبه، وأخص بها وأقوى حالا معها وإلا لم يصح أن يذكر لبيان مقدار المشبه، ولا لبيان إمكان وجوده، ولا لزيادة تقريره.. ولا لإبرازه في معرض التزيين.. أوالتشويه.. أوالاستطراف)(٣) ويقول العلوى: (اعلم أن الغرض من حال التشبيه أن يكون المشبه به أعظم حالا من المشبه في كل أحواله وقد يأتي على العكس كقول من قال:

وبدا الصباح كأن غرته ... وجه الخليفة حين يمتدح

فبالغ حتى جعل المشبه أعلى حالا من المشبه به، في الوضوح والجلاء، لأن الغالب في العادة هو تشبيه بياض الوجه بغرة الفجر، فأما ههنا فعلى العكس من ذلك)(٤).

ومن هنا يبدو للمبالغة دور بارز في وظيفة التشبيه وتفسيره و وهناك قسم من التشبيه خصوه بالمبالغة وجعلوها غرضه وهدفه وهو التشبيه الذى يجعل المشبه به إزاء المشبه دون ربط بأداة أوبيان اشتراك في صفة، وسموا

---

(١) المصدر السابق: ٢٤٩.
(٢) المثل السائر: ٦٣/٢.
(٣) مفتاح العلوم: ١٤٧.
(٤) الطراز: ٣٢٧/٣.

هذا التشبيه بالبليغ نظرا للدرجة التي يحتويها من المبالغة. يقول الإمام عبد القاهر في ذلك:(وها هنا أصل يجب ضبطه وهو أن جعل المشبه به على ضربين أحدهما أن تنزله منزلة الشيء تذكره بأمر قد ثبت له فأنت لاتحتاج

إلى أن تعمل في إثباته وتزجيته. وذلك حيث تسقط ذكر المشبه من الشيئين ولاتذكره بوجه من الوجوه كقولك: رأيت أسدا، والثاني أن تجعل ذلك كالأمر الذى يحتاج إلى أن تعمل في اثباته وتزجيته. وذلك حيث تجرى اسم المشبه به صراحة على المشبه فتقول زيد أسد، وزيد هو الأسد أوتجيء به على وجه يرجع إلى هذا كقولك: إن لقيت به أسدا، وإن لقيته ليلقينك منه الأسد، فأنت في هذا كله تعمل في إثباته كونه أسدا أوالأسد وتضع كلامك له، وأما في الأول فتخرجه مخرج مالا يحتاج فيه إلى إثبات وتقرير. والقياس يقتضى أن يقال في هذا الضرب أعني ما أنت تعمل في إثباته، وتزجيته أنه تشبيه على حد المبالغة ويقتصر على هذا القدر ولا يسمى استعارة)(١). والأساس في هذا التفريق هو قول القاضي عبد العزيز الجرجاني:(وربما جاء من هذا الباب ما يظنه الناس استعارة أوتشبيه أومثل، فقد رأيت بعض أهل الأدب ذكر أنواعا من الاستعارة عدّ فيها قول أبي نواس:

والحب ظهر أنت راكبه فإذا صرفت عنانه انصرفا

ولست أرى هذا وما أشبهه استعارة، وإنما معنى البيت أن الحب مثل ظهر، أوالحب كظهر تديره كيف شئت إذا ملكت عنانه، فهو إما ضرب مثل أوتشبيه شيء بشيء وإنما الاستعارة ما اكتفى فيها بالإسم المستعار عن الأصل، ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها ....)(٢).

ولقد أفاض الإمام عبد القاهر في الاحتجاج والجدل للتفريق بين النوعين مشيرا إلى كلام القاضي الآنف الذكر(٣).

---

(١) دلائل الإعجاز: ٥٣ ، ٥٤.
(٢) الوساطة بين المتنبي وخصومة: ٤١.
(٣) أسرار البلاغة: ٩٩/٨٨/٢.

والذى دعانا إلى ذكر هذا التفريق بينهما الدلالة على أن التشبيه عندهم هو محض مقارنة بين طرفين متمايزين لاشتراك بينهما في الصفة(١) (مرة في

نفسها وحقيقة جنسها، ومرة في حكم لها ومقتضى فالخد يشارك الورد في الحمرة نفسها، ونجدها في الموضعين بحقيقتها، واللفظ يشارك العسل في الحلاوة لا من حيث جنسها بل من جهة حكم وأمر تقتضيه وهو ما يجده الذائق في نفسه من اللذة والحالة التي تحصل في النفس إذا صادفت بحاسة الذوق ما يميل إلى الطبع ويقع منه بالموافقة)(٢). ويضيف في التفريق بين هذين الضربين من الاشتراك في الصفة قائلا: (وأما الضرب الأول فإذا كان المثبت من الشبه في الفرع من جنس المثبت في الأصل ــ الفرع هو المشبه والأصل هو المشبه به ــ كان أصلا بنفسه، وكان ظاهر أمره وباطنه واحدا وكان حاصل جمعك بين الورد والخد أنك وجدت في هذا وذاك حمرة، والجنس لا تتغير حقيقته بأن يوجد في شيئين، وإنما يتصور فيه التفاوت بالكثرة والقلة والضعف والقوة، نحو أن حمرة هذا الشيء أكثر وأشد حمرة من ذلك. وإذا تقررت هذه الجملة حصل من العلم بها أن التشبيه الحقيقي الأصلي هو الضرب الأول، وأن هذا الضرب فرع له ومرتب عليه.... ومعلوم أن هذه القضية إنما توجد على الإطلاق والوجود الحقيقي في الضرب الأول.. وأما الضرب الثاني فإنما يجيء فيه على سبيل التقدير والتنزيل فأما ألا نجد فصلا بين ما يقتضيه العسل في نفس الذائق، وما يحصل باللفظ المرضي والكلام المقبول في نفس السامع فما لا يمكن ادعاؤه إلا على نوع من المقاربة أو المجازفة، فأما على التحقيق والقطع فلا)(٣).

وقد أشار الجاحظ إلى هذه الحدود المتميزة للطرفين بقوله: (وقد يشبه الشعراء والعلماء والبلغاء الإنسان بالقمر والشمس، والغيث والبحر، وبالأسد والسيف وبالحية وبالنجم، ولا يخرجونه بهذه المعاني إلى حد الإنسان، وإذا

---

(١) أسرار البلاغة: ٢٠٢/١ ــ ٢٠٦.
(٢) الصورة الفنية: ٢٠٨.
(٣) المصدر السابق: ٢٠٧/١ ــ ٢٠٩.

ذموا قالوا: هو الكلب والخنزير، وهو القرد والحمار وهو الثور، وهو التيس،
وهو الذئب، وهو العقرب وهو الجعل، وهو القرنبى، ثم لا يدخلون هذه

الأشياء في حدود الناس ولا أسمائهم، ولا يخرجون بذلك الإنسان إلى هذه الحدود وهذه الأسماء. وسموا الجارية غزالا، وسموها أيضا خشفا... وخيزرانا على ذلك المعنى، وصنعوا مثل ذلك بالبروج والكواكب فذكروا الأسد والثور، والحمل والجدى والعقرب والحوت، وسموها بالقوس والسنبلة والميزان وغيرها. وقال في ذلك ابن غسلة الشيباني:

فصحوت والنمري يحسبها   عمّ السماك وخالة النجم

ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (نعمت العمة لكم النخلة خلقت من فضلة طينة آدم) وهذا الكلام صحيح المعنى، لا يعيبه إلا من لا يعرف مجاز الكلام وليس هذا مما يطرد لنا أن نقيسه، وإنما نقدم على ماأقدموا ونحجم عما احجموا وننتهي إلى حيث انتهوا...)(١) فما دام أن الطرفين متمايزان فعملية التشبيه هي إلحاق فرع بأصل كما رأينا عند عبد القاهر مثلا وهذا الإلحاق لايتم إلا لأجل المشابهة في الصفة المشتركة، وبيان مقدار توفر الصفة في الفرع.. ومن ثم كانت الصفة الموجودة في المشبه به نموذجا يرفع المشبه إليه لتوضيح المشبه وتقريره أوتوكيد الصفة فى الفرع والمبالغة فيها. يقول الدكتور مهدى صالح السامرائي: (وفي ضوء فكرة التوضيح وإلحاق الأصغر بالأكبر فهم البلاغيون التشبيه على أنه صورة من صور المبالغة)(٢) وقد فسر الإمام عبد القاهر معنى المبالغة بقوله: (إن المشبه الشيء بالشيء من شأنه أن ينظر إلى إلى الوصف الذى يجمع بين الشيئين وينفي عن نفسه الفكر فيما سواه جملة فإذا شبه بالأسد ألقى صورة الشجاعة بين عينيه وألقى ماعداها فلم ينظر إليه. فإن قال: زيد كالأسد كان قد أثبت له حظا ظاهرا في الشجاعة ولم يخرج عن الاقتصاد. وإذا

---

(١) الحيوان: ١/٢١١، ٢١٢.

(٢) تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية: ٢١٢.

قال هو الأسد تناهى في الدعوى إما قريبا من الحق لفرط بسالة الرجل

وإما متجوزا في القول فجعله لاتنقص شجاعته عن شجاعة الأسد ولا يعدم منها شيئاً)(١). وقد اعترض الدكتور مهدى صالح السامرائي على هذا المفهوم مبينا أنه إذا ألقى المشبه زيدا فى الأسد صورة الشجاعة بين عينيه وغض النظر عما سواها فسيكون حاله حال من يفهم معنى الشجاعة من كلمة «شجاعة» لأنه في هذه الحالة يقطع معنى الشجاعة عن مصدره ـ المشبه به ـ ومصبه ـ المشبه . وإذا قطع معنى الشجاعة عن الطرفين فكيف يتحصل مفهوم المبالغة ؟ ويقول: (الواقع أننا ننظر إلى الشجاعة في التشبيه من خلال صورة الأسد، من خلال لبدته ونيوبه وأظفاره وزئيره.. وفي التشبيه صورتان موجودتان إحداهما تعطي والأخرى تأخذ. وهذا الأخذ والعطاء هو أساس حيوية التشبيه)(٢) وفي الحقيقة أن الدكتور واقع أيضا في حبائل النموذج ولازال يفهم من هذا التشبيه نموذج الشجاعة الذى فهمه عبد القاهر والبلاغيون !!

والذى جنى على التشبيه هذه الجناية وأخضعه لفكرة النموذج والقياس أن بحثه كان في أى عمل فني هو البحث في مثال مجرد تحده حدود الجملة التي تؤخذ مثالا للدرس والتعليم ثم ينطبق مجيئها على العمل الفني على أساس أن اللغة قوالب جاهزة يفرغ فيها الإبداع الفني بينما لا يحدد الكلمة في المجال الفني إلا سياقها الذى قيلت فيه فالشاعر كما يقول جان بول سارتر (أبعد مايكون من استخدام اللغة أداة، وقد اختار طريقه اختيارا لا رجعة فيه. وهو طريق فرضه عليه مسلكه الشعرى في اعتبار الكلمات أشياء في ذاتها وليست بعلامات لمعان... فالناثر دائما وراء كلماته متجاوز لها ليقرب دائما من غايته في حديثه. ولكن الشاعر دون هذه الكلمات لأنها غاية والكلمات للمتحدث خادمة طيعة وللشاعر عصية أبية المراس لم تستأنس

---

(١) أسرار البلاغة: ١٠٥/٢.

(٢) تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية ١١٢.

... فهي على حالها الوصفية، والكلمات للمتحدث اصطلاحات ذات جدوى، وأدوات تبلى قليلا قليلا باستخدامها، ويطرح بها حين لا تعود صالحة للاستعمال، وهي للشاعر أشياء طبيعية تنمو طبيعية في مهدها كالعشب والأشجار)[1].

ولقد قسمت النظرة الجزئية التشبيه على ضوء العلاقة المنطقية بين طرفيه المسند والمسند إليه، بين الإصابة والإفراط والمقاربة والبعد يقول المبرد:

(والعرب تشبه على أربعة أضرب، فتشبيه مفرط، وتشبيه مصيب، وتشبيه مقارب، وتشبيه بعيد يحتاج إلى التفسير ولا يقوم بنفسه وهو أخشن الكلام)[2]. ولكن هذا التقسيم المنطقي للتشبيه على ضوء المقابل الخارجي. وعلى ضوء الدرجة من وجه الشبه بين الأصل والفرع أمر يعفي على عملية الخلق الأدبي ويقصر بالنقد عن بلوغ المستوى الفني للكلام.. إذ إن المقاييس التي يأخذها الناقد من قواعد البلاغة في التشبيه قوانين مستقراة من أمثلة جزئية على ضوء تلك العلاقة المنطقية.. طبقت على كل عمل أدبي فألغت بذلك شخصية القائل، وحجبت النقد عن تقدير الإبداع فيه وإن أبقت على شيء يحمد للقائل فيه إبداعه وابتكاره فإن مرد ذلك الإبداع والابتكار إلى استطراف وغرابة وشحذ ذهن في الحصول على شبه خفي، ومن ذلك نظرتهم إلى قول امرئ القيس:

نظرت إليها والنجومُ كأنها مصابيحُ رهبان تشبُّ لقُفَّال

التي بين الدكتور مصطفى ناصف سطحيتها وقصورها عن سبر أغوار الكلام في سياقه الذى وجد فيه وذلك حيث يقول: (فن مسخ التشبيه بالمبالغة أن تقول إنه شبه النجوم بمصابيح الرهبان لأنها في السحر يضعف نورها كما يضعف نور المصابيح الموقدة ليلها أجمع، وأن القفال يرجعون من الغارات وجه الصبح، فإذا رأوها أول الصبح وقد خمد سناها فكيف كانت أول الليل،

(١) ما الأدب: ١٤، ١٥.

(٢) الكامل: ١٠١/٢.

والصورة بريئة من ذلك كله، فإنها قامت على القران بين القفال من الغزوات والرهبان غلبهم النعاس بعد تعبد ومناجاة، وتقوم على المجاورة بين نار تشب لقفال، ومصابيح توقد لعباد، وتضع النار والمصابيح معاً في مساق واحد، ولا علاقة لهذا الفهم بأن تكون النار أول الليل واضحة وأن تكون النجوم أول الصبح خافتة)(١). ثم يفسر سبب التعلق بهذا التفسير البسيط (المبالغة) بقوله: (لقد كان للجو التعلمي للغة ـ لبعد المسافات بينها وبين الحياة تباعاً ـ آثار هائلة في إفساد فقه المعنى الأدبى، والإخلال بموجبات التفكير في تعقده جريا وراء الساذج الشعبي من التفسير)(٢).

والتفسير بالمبالغة هو الذى يحجبنا عن رؤية الإبداع في مثل قول أبي الطيب المتنبي:

ما أبعد العيب والنقصان عن شرفي أنا الثريا وذان الشيب والهرم (٣)

فلو قلنا من خلال المنطق البلاغى، شبه الشاعر نفسه بالثريا تشبيها بليغا وشبه العيب والنقص بالشيب والهرم تشبيها بليغاً أيضا... وأخذنا نبحث عن وجه الشبه ودرجة الادعاء في التشبيه فإن هذا يحجبنا عن أبعاد أخرى لسياق الكلام يمكن أن نفهمها من سياق القصيدة... فالشاعر في هذه القصيدة معتد بذاته أيّما اعتداد.. فهو يوجد نفسه وسط هذا البلاط المشحون بالغيرة والحقد عليه.. ويقيم لذاته وجودا آخر يرتفع عن هؤلاء ويظل يرتفع حتى يصبح كائنا لا يناله أذى هؤلاء وحسدهم وذلك الإيجاد ينبت نبتا خلال سياق القصيدة فالشاعر في البداية يتحدث بضمير المتكلم:

يا أعدل الخلق إلا في معاملتي فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
أعيذها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

---

(١) الصورة الأدبية: ٦٣. (٢) المصدر السابق: ٦٣.
(٣) التبيان فى شرح الديوان: ٣٧١/٣.

ثم تبرز لنا بعد ذلك ذاته المتفردة المتميزة :

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبي   وأسمعت كلماتي من به صممُ
أنام ملء جفوني عن شواردها   ويسهر الخلقُ جرّاها ويختصم
ومرهفٍ سرت بين الجحفلين به   حتى ضربت وموجَ الموت يلتطم
فالخيل والليل والبيداء تعرفني   والسيف والرمح والقرطاس والقلم
صحبت في الفلوات الوحش منفردا   حتى تعجّب مني القورُ والأكمُ

ثم ترتفع هذه الذات ويتحدث عنها بضمير الجمع « نا »

يا مَن يعز علينا أن نفارقهم   وجد اننا كل شيء بعدكم عدم

بل يسمو بها إلى درجة تقف موقف الند من سيف الدولة :

ما كان اخلقنا منكم بتكرمة   لو أن أمركم من أمرنا أمم

وتصعد هذه الذات في سموها فترتفع إلى مقام أكبر من ذلك بكثير فتصبح كائنا آخر يبهر البشر ويتطلعون إليه فلا يظفرون بمداه ... فيصبح هو الثريا . ولكن هل تبقى الثريا في السياق هي ذلك النجم المرتفع في السماء أوتنبت في السياق نبتا جديداً ؟

في البيت عملية صراع بين العيب والشرف .. العيب أمر مهانة وذلة والشر أمر عز وكرامة ... العيب انحدار وسقوط والشرف ارتفاع وسمو .. الشرف يرتفع إلى الثريا والعيب والنقصان يزرى بمن يلحق به ويشبه ويهرمه .. ونلاحظ عملية إنبات الثريا في السياق نبتا جديدا ونموها نماء آخر إذ لم تعد الثريا هي ذلك النجم المرتفع فى السماء وإنما هي رمز لارتفاع الذات وسموها .. ولم يعد هناك مجال مقارنة بين الشاعر والثريا ، ولم تعد أنا شيئاً منفصلا عن الثريا بحرف تشبيه مقدر .. فالشاعر ارتفع عن العيب والنقصان إلى الشرف وارتفع به الشرف عن الانحدار والسقوط في الثرى إلى الثريا رمز الارتفاع والاستمرار .. بينما بقي العيب والنقصان في انحدارهما

وسقوطها حتى وصلا إلى مرحلة الشيب والهرم، وعلى كل فكلمة الثريا لها حياتها ونشاطها النابعة من داخل سياق القصيدة، ومن داخل سياق البيت ولم تبق منفصلة بمعناها الوضعي المحدد وإنما أوجد بها الشاعر ذاته المتفردة المتميزة التي ظلت في سموها وارتفاعها حتى تعلقت بها كرمز للسمو والارتفاع يقاوم علامات السقوط والانتهاء.

والآن نستطيع أن نشير إلى أن (الصورة التشبيهية ليس المقصود منها مثلا إعطاء مبالغات ذهنية سقيمة، أو كما يعبر البلاغيون بزيادة الصفة في المشبه به، بل إن المطلوب أن تتعانق الصورة وأجزاؤها مع السياق العام الذى يولد علاقة رمزية تشير إلى المتلقي تجاه نقاط تفجر كل واحدة منها طاقات فنية ذات أثارات نفسية خاصة)([1]). وذلك لا يتم إلا إذا عرفنا أن (قيمة التشبيه لا يكتسبها من طرفيه فقط، ولا من وجه الشبه القائم بينها بقدر استمدادها من الموقف الذى يدل عليه السياق ويستدعيه الحس الشعورى المنبت خلال الموقف التعبيرى، كذلك فإن النص اللغوى يضفي حياة على الصورة التشبيهية، ويكسبها ظلالا إيحائية لا يستطيع التشبيه بطرفيه أوبوجهه أن يقوم بها)([2]) ومثل هذه النظرة إلى التشبيه تحترم العمل الأدبي، وتقدر تميّز كل عمل وتفرده، وتخرجه من الدخول تحت أحضان قواعد كلية يقودنا تطبيقها على العمل الأدبى إلى رميه بالمبالغة والتزيد وحصر عمل الأديب في ادراك المشابهة والبحث عنها إما ادعاء أوقريبا من التحقيق والصدق وذلك لأن التشبيه يتجاوز العلاقات المنطقية العامة إلى إحداث علاقات جديدة داخل العمل الأدبي لأنه (لا يعني تحقق معنى واحدا ينقل آليا من المشبه إلى المشبه به بل إنه يولد في الطريق إيحاءات قتالية تظل تناوش طرفي التشبيه وهو يؤدى متصلا بسابقه ولاحقه دورا فنيا في العمل الفني بأكمله)([3]). وهذه الولادة للإيحاءات التي تولد داخل سياق العمل سواء

---

(١) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور: ١٧٥.

(٢) المصدر السابق: ١٧٥، ١٧٦.

(٣) المصدر السابق: ١٧٦.

كانت إيحاءات قتالية أم لا فإن البحث عنها هو الذى يفتح مغاليق العمل الأدبي التي لا يمكن للعلاقة الآلية بين طرفي التشبيه أن تفتحها إذ إن تلك العلاقة تنظر إلى العمل الأدبي على أساس مدى تحقق أخبار المسند عن المسند إليه وإذا نظرنا إلى قول المجنون:

أقول لأصحابي هي الشمس ضوءها قريب ولكنِ في تناولها بعدُ
لقد عارضتنا الريحُ منها بنفحةٍ على كبدى من طيب أرواحها بردُ

على هذا الأساس فإننا لا نستطيع فتح مغاليقه. (وما أهون أمر الشعر إذا حمل على أنه إخبار يراد إبلاغه للسامع وليس فيه من معنى إلا ما يقتضيه التشبيه وطرفاه من مشبه ومشبه به.. وإذا كانت ذلك كذلك فما الداعي إلى قوله «ضوءها قريب ولكن في تناولها بعد»؟ إن كان ذلك للإيضاح قلنا إن ضوء الشمس لا يحتاج إلى إيضاح؛ والأمر حين يراد التدليل على ظهوره يقال إنه واضح كالشمس، ثم ماالوجه في ذكر الريح والنفحة والكبد وما بينها من علاقات أكيدة، أم أن هذه ثرثرة من المجنون لا يؤاخذ عليها؟!)(١).

وهذه الآفاق التي يقودنا إليها مثل هذا الفكر في العمل الفنى لاشك أنها ثرية ولا شك أنها تعيد قراءة الأدب العربي قراءة جديدة، يحيا بها في ضمير الأمة ووجدان شبابها وتقيم حبل الاتصال بين قواعد النقد والعمل الأدبي، ذلك الاتصال الذى قطعته علوم البلاغة، وجعلت العمل الأدبي يخرج من محكمة الناقد الذى يتخذ من قواعد البلاغة مقياسا له متهما بمخالفة العقل والمنطق وسلوك سبيل الخيال والتجوز والتزيد والمبالغة.

فالتشبيه الجارى بكثرة في كلام العرب (حتى لوقال قائل: هو أكثر كلامهم لم يبعد)(٢). لا سبيل له في تراثنا النقدى والبلاغى إلا إلحاق الفرع بالأصل يقول ابن رشيق: (وسبيل التشبيه ـ إذ كانت فائدته إنما هي

(١) التركيب اللغوى للأدب: ١٢٨. (٢) الكامل: ٢/٧٩.

تقريب المشبه من فهم السامع وإيضاحه له ـ أن تشبه الأدون بالأعلى إذا أردت مدحه وتشبه الأعلى بالأدون إذا أردت ذمه، فتقول في المدح: تراب كالمسك وحصى كالياقوت وما أشبه ذلك، فإذا أردت الذم قلت مسك كالمسك والتراب، وياقوت كالزجاج أو كالحصى، لأن المراد في التشبيه ماقدمته من تقريب الصفة، وإفهام السامع، وإن كان ما شابه الشيء من جهة فقد شابهه الآخر منها، إن المتعارف وموضوع التشبيه ماذكرت)(١).

ومن هذه الفكرة أخذوا يرتبون التشبيه في القوة والضعف في درجة المبالغة ومن ثم قسمه الخطيب إلى ثماني مراتب (فالحاصل من مراتب التشبيه في القوة والضعف في المبالغة باعتبار ذكر أركانه كلها أو بعضها ثمان إحداها ذكر الأربعة كقولك زيد كالأسد في الشجاعة ولا قوة لهذه المرتبة، وثانيتها ترك المشبه كقولك كالأسد في الشجاعة أى زيد وهي كالأولى في عدم القوة، وثالثتها ترك كلمة التشبيه كقولك زيد أسد في الشجاعة وفيها نوع قوة، ورابعتها ترك المشبه وكلمة التشبيه كقولك أسد في الشجاعة أى زيد وهي كالثالثة في القوة، وخامستها ترك وجه الشبه كقولك زيد كالأسد وفيها نوع قوة لعموم وجه الشبه من حيث الظاهر، وسادستها ترك المشبه ووجه التشبيه كقولك كالأسد أى زيد وهي كالخامسة، وسابعتها ترك كلمة التشبيه ووجهه كقولك زيد أسد وهي أقوى الجميع، وثامنتها إفراد المشبه به بالذكر كقولك أسد أى زيد وهي كالسابقة)(٢).

والسر في حصر التشبيه في وظائف التوضيح والتقرير، والتوكيد والمبالغة وتقسيمه إلى هذه الدرجات وغيرها من التقسيمات في السلم الوظيفي الذى يؤديه لخدمة معنى مفترض ينطلق من مسلمات سيطرت على النقد العربي نظرت إلى أن المعنى فكرة مجردة ثم تخرج إلى حيز الوجود بصورة يفكر فيها الشاعر ويكد ذهنه فيها لينقل المعنى عن طريقها إلى

(١) العمدة: ٢/٢٩٠.

(٢) الإيضاح ضمن شروط التلخيص: ٣/٣٧٠، ٤٧١.

الآخرين. ومن ثم كان عمل الناقد البحث عن هذه الفكرة التي نقلها الشاعر من خلال التشبيه أوالمجاز.. أوالاستعارة.. بردها إلى ماكانت عليه قبل ذلك، والحديث عن طبيعة إخراجها بطريقة سطحية لا تصل إلى أعماق العمل الأدبي ولا تبرز لنا إبداعه وتفرده.. ولا تبين لنا ماتحمله الكلمة من معطيات، فتجدهم يحصرون الصورة في معني يتفق مع الفرض الذى افترضوه للمعنى قبل إخراجه.. ويجادلون في ذلك جدلا كان يغنيهم عنه التعامل مع الكلمة ككائن حي داخل سياق تتفاعل معه فتحيا به حياة جديدة ويحيا بها حياة جديدة كذلك. ومن ذلك مناقشة الإمام عبد القاهر لقول النابغة:

فإنك كالليل الذى هومدركي   وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

إذ رفض تفسيره على طريقة المبالغة محتجا بأنك (إن حاولت فيه طريقة المبالغة فقلت: فإنك الليل الذى هو مدركي ــ لزمك لا محالة أن تعمد إلى صفة من أجلها تجعله كالشجاعة التي من أجلها جعلت الرجل الأسد فان قلت تلك الصفة الظلمة وأنه قصد شدة سخطه وراعى حال المسخوط عليه، وتوهم أن الدنيا تظلم في عينيه على حسب الحال في المستوحش الشديد الوحشة كما قال:

* أعيدوا صباحي فهو عند الكواعب * (١)

قيل لك: هذا التقدير إن استجزناه، وعملنا عليه فإما نحتمله والكلام على ظاهره، وحرف التشبيه مذكور داخل على الليل كما تراه في البيت، فأما وأنت تريد المبالغة فلا يجيء لك ذلك، لأن الصفات المذكورة لا يواجه بها المدوحون، ولا تستعار الأسماء الدالة عليها إلا بعد أن نتدارك وتقرن إلى أضدادها من الأوصاف المحبوبة كقوله: (أنت الصاب والعسل) ولا تقول وأنت مادح أنت الصاب وتسكت .

ثم يعرض الوجه الذى يراه ويحتج له وعلى من يعترضه قائلا: (فإن

(١) عجزه: وردوا رقادى فهو لحظ الحبائب.

قلت: أفترى أن تأبي هذا التقدير في البيت أيضا حتى يقصر التشبيه على ماتفيده الجملة الجارية في صلة الذى ؟

قلت: فإن ذلك الوجه فيما أظنه فقد جاء في الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم (ليدخلن هذا الدين مادخل عليه الليل) فكما تجرد المعنى للحكم الذى هو الليل من الوصول إلى كل مكان، ولم يكن لاعتبار ما اعتبروه من شبه ظلمته وجه كذلك يجوز أن يتجرد في البيت له ويكون ما ادعوه من الإشارة بظلمة الليل إلى إدراكه له ساخطاً ضرباً من التعمق والتطلب لما لعل الشاعر لم يقصده، وأحسن مايمكن أن ينتصر به لهذا التقدير أن يقال: إن النهار بمنزلة الليل في وصوله إلى كل مكان فما من موضع من الأرض إلا ويدركه كل واحد منهما، فكما أن الكائن في النهار لا يمكنه أن يصير إلى مكان لايكون به ليل كذلك الكائن في الليل لا يجد موضعا لايلحقه فيه نهار، فاختصاصة الليل دليل على أنه قد روى في نفسه فلما علم أن حالة إدراكه وقد هرب منه حالة سخط رأى التمثيل بالليل أولى. ويمكن أن يزاد في نصرته بقوله:

نعمة كالشمس لما طلعت بثت الإشراق في كل بلد

وذاك أنه قصد ههنا نفس ماقصده النابغة في تعميم الأقطار والوصول إلى كل مكان، إلا أن النعمة لما كانت تسر وتؤنس أخذ المثل لها من الشمس، ولو أنه ضرب المثل لوصول النعمة إلى أقاصي البلاد وانتشارها في العباد بالليل ووصوله إلى كل بلد وبلوغه كل أحد، لكان قد أخطأ خطأ فاحشا إلا أن هذا وإن كان يجيء مستويا في الموازنة ففرق بين ماتكره من الشبه وماتحب، لأن الصفة المحبوبة إذا اتصلت بالغرض من التشبيه نالت من العناية بها والمحافظة عليها قريبا مما يناله الغرض نفسه وأما ماليس بمحبوب فيحسن أن تعرض عنها صفحا وتدع الفكر فيها جانبا.

وأما تركه أن يمثل بالنهار وإن كان بمنزلة الليل فيما أرادة فيمكن أن يجاب عنه بأن هذا الخطاب من النابغة كان بالنهار لا محالة، وإذا كان

يكلمه وهو في النهار بعد أن يضرب المثل بإدراك النهار له وكان الظاهر أن يمثل بإدراك الليل الذى إقباله منتظر، وطريانه على النهار متوقع، فكأنه قال وهو في صدر النهار أوآخره: لو سرت عنك لم أجد مكاناً يقيني الطلب منك، ولكان إدراكك لي وإن بعدت واجبا كإدراك هذا الليل المقبل في عقب نهارى هذا إياى، ووصوله إلى أى موضع بلغت من الأرض.

وههنا شيء آخر وهو أن تشبيه النعمة في البيت بالشمس وإن كان من حيث الغرض الخاص وهو الدلالة على العموم فكان الشبه الآخر من كونها مؤنسة للقلوب وملبسة العالم البهجة والبهاء كما تفعل الشمس حاصلا على سبيل العرض وبضرب من التطفل، فإن تجريد التشبيه لهذا الوجه الذى هو الآن تابع وجعله أصلا ومقصودا على الانفراد مألوف معروف كقولنا: نعمتك شمس طالعة وليس كذلك الحكم في الليل)(1).

ولقد حاولت أن أنقل معظم نص عبد القاهر حتى تكون على بينة من مراده الذى نفي فيه بشدة أن يكون في التمثيل بالليل إشارة إلى سخط الممدوح.. ورد على من يقول لذلك حاصرا الغرض من المثيل بالليل في إفادة العموم والشمول.. ولذلك فهو يرى أن العلاقة بين الطرفين علاقة منطقية آلية ومن هنا يتبين لنا وهم الدكتور كمال أبو دويب عندما توهم أن عبد القاهر لم يحصر غرض تشبيه النابغة نفسه بالليل في هذا الغرض وأنه فهم من تشبيه النابغة نفسه بالليل معنى السخط فخصه بالليل.. ولذلك جاءت الصورة تجلو الوجود العاطفي للشاعر وذلك حيث يقول: (في صورة النابغة كما يقول الجرجاني تحقق الوظيفة المعنوية للتعبير «أنت كالنهار» إلى الدرجة ذاتها من الكمال التي يحققها التعبير «أنت كالليل» كلا التعبيرين يقرر أن الملك له القدرة على الوصول إلى كل مكان، وأن الشاعر يدرك استحالة الهرب منه. والنهار في هذا له خصائص الليل ذاتها لكن الصورة «أنت كالنهار» تتحرك على مستوى واحد، مستوى التقرير، ولا تجلو الوجود

(1) أسرار البلاغة: ٢/١٠٨ — ١١٠.

العاطفي للشاعر وأبعاد أحاسيسه لا بإزاء الملك ولا بإزاء النهار، الصورة لا تعكس ما يثيره الموضوعان في عالم الشاعر الداخلي من أحاسيس وما يفرضانه من استجابات، أوما يجسدانه في سياق القصيدة الكلي للشاعر- إنساناً متكاملا له ردة فعله الحيوية للوجود)([1]).

ولقد علق على العبارة (فاختصاصه الليل دليل على أنه قد روى في نفسه فلما علم أن حالة إدراكه وقد هرب منه حالة سخط رأى المثيل بالليل أولى)([2]) الواردة في نص الجرجاني مشيدا بإدراك الجرجاني لفاعليه طرفي الصورة الشعرية وذلك حيث يقول: (للعبارتين في «نفسه» و«حالة إدراكه» دلالات مهمة يجب أن تستقصى، اذ يبدو أنها تؤكدان بطريقة مباشرة، الجذور النفسية للصورة الشعرية، وأصولها النابعة من ذات الفنان الخالق، العاكسة لأبعاد الوجود النفسي والعاطفي الذى يشكل جزءاً حيويا من التجربة الشعرية المتكاملة، ثم إن العبارتين «اختصاصه الليل» و«روى في نفسه» تطرحان بعدا جديدا للتجربة، أمام العقل المكتنه، هو بعد الوعي، وعي الشاعر بالمكونات المتشابكة لتجربته، وبالصورة المثلى لإعطاء هذه الأبعاد تعبيرا شعريا لكن دور الوعي هنا ليس دورا آلياً، ذهنيًّا، جافا، بل دور خلاق يكشف المستوى النفسي للموقف الشعرى في الصورة عن طريق خلق بنية تتداخل فيها العلاقات، وتتبادل الفاعلية بفن يستقى من طبيعة طرفي الصورة المضاءين لا من حيث هما ظواهر فيزيائية معزولة، وإنما من حيث هما مدركات تنفعل بها الذات، الصورة بهذا التحديد تخلق لا تنقل معنى فقط، ولا لتقرر أن (ب) يشبه (جـ) في سياق المجرد، وإنما لتخلق جوا يتسرب فيه تيار داخلي مضيء، جذوره في الاستجابة الإنسانية للعالم)([3]).

---

(١) جدلية الخفاء والتجلي: ٤٢

(٢) أسرار البلاغة: ٢/١٠٩.

(٣) جدلية الخفاء والتجلي: ٤١.

وقد كان يمكن لنا أن نشيد معه بإدراك الجرجاني لهذه العلاقات النابعة من داخل السياق، والمنبتة خلال التعبير، لو أن الجرجاني انتصر لهذا التقدير وأما وأن الجرجاني قد ضرب عنه صفحا فإن ذلك يدل على إهمال الجرجاني لها وإن كان ذلك لا يمنع من معرفته بها وأنها أمر يمكن أن يتجه إليه في النص بدليل أنه أورد هذه الحجة في الانتصار للرأى المعارض لرأيه الذى كان يرى أن في التشبيه بالليل معنى الصلة والسخط والإحاطة، ذلك الرأى الذى فنده عبد القاهر وخص التشبيه بالشمول والعموم فقط.

وفكرة النموذج في التشبيه وإلحاق الفرع بالأصل جعلتهم يلوون عنق الكلام ويحكمون عليه بالقلب والعكس ويفسرونه بالادعاء بأن صفة المشبه به أصبحت أتم في المشبه ولذلك قلب التشبيه، ومن ثم حكموا على قول محمد بن وهيب:

وبدا الصباح كأن غرته وجه الخليفة حين يمتدح

بالعكس . وذلك حين مثل به عبد القاهر للدلالة على أن الشاعر قد يقصد على عادة التخييل أن يوهم في الشيء هو قاصر عن نظيره في الصفة أنه زائد عليه في استحقاقها واستيجاب أن يجعل أصلا فيها، فيصبح على موجب دعواه وشوقه إلى أن يجعل الفرع أصلا وإن كنا إذا رجعنا إلى التحقيق لم نجد الأمر يستقيم على ظاهر ما يضع اللفظ عليه (١) ويفسر ذلك بقوله: «فهذا على أنه جعل وجه الخليفة كأنه أعرف وأشهر وأتم وأكمل في النور والضياء من الصباح فاستقام له بحكم هذه النية أن يجعل الصباح فرعا ووجه الخليفة أصلا »(٢).

ثم يتحدث عن سر بلاغة هذا التشبيه الكامنة في قدر الادعاء والمبالغة فيه وطريقة الإتيان بها قائلا: (واعلم أن هذه الدعوى وإن كنت تراها تشبه قولهم: لا يدرى أوجهه أنور أم الصبح؟ وغرته أضوأ أم البدر؟ وقولهم إذا

---

١) أسرار البلاغة: ٧٥/٢. (٢) المصدر السابق: ٧٥/٢.

أفرطوا: نور الصباح يخفي في ضوء وجهه، أونور الشمس مسروق من جبينه، وماجرى في هذا الأسلوب من وجوه الإغراق والمبالغة، فإن في الطريقة الأولى خلابة وشيئا من السحر، وهو أنه كان يستكثر للصباح أن يشبهه بوجه الخليفة، ويوهم أنه قد احتشد له واجتهد في طلب تشبيه يفهم به أمره، وجهته الساحرة أنه يوقع المبالغة في نفسك من حيث لا تشعر، ويفيدكها من غير أن يظهر ادعاؤه لها، لأنه وضع كلامه وضع من يقيس على أصل متفق عليه. ويزجى الخبر عن أمر مسلم لا حاجة فيه إلى دعوة، ولا إشفاق من خلاف مخالف، وإنكار منكر وتجهم معترض وتهكم قائل: «لم» ومن أين لك ذلك؟ والمعاني إذا وردت على النفس هذا المورد كان لها ضرب من السرور خاص، وحدث بها نوع من الفرح عجيب، فكانت كالنعمة لم تكدرها المنة، والصنيعة لم ينقصها اعتداد المصطنع لها)(١).

وأما البلاغيون بعده فقد ساروا على هذه السنة في فهم البيت ولذلك كان الشاهد عندهم فيه (إيهام أن المشبه أتم من المشبه به، ويسمى التشبيه المقلوب، فإنه قصد إيهام أن وجه الخليفة أتم من الصباح في الوضوح والضياء، وفي قوله حين يمتدح دلالة على اتصاف الممدوح بمعرفة حق المادح، وتعظيم شأنه عند الحاضرين بالإصغاء إليه، والارتياح له وعلى كونه كاملا في الكرم يتصف بالبشر والطلاقة عند استماع المديح)(٢).

وكان داعيهم إلى ذلك النظرة الجزئية في التشبيه، وأخذه على أساس أنه جملة مستقلة في السياق. يرتبط طرفاها برباط النموذج، وإلحاق الفرع بالأصل، إما قريبا من التحقيق وإما ادعاء أومبالغة، ولم يفطنوا إلى أن العمل الفني يقوم على عملية خلق وإعادة لتشكيل الأشياء وامتزاجها من خلال نشاط الكلمة وحيويتها، وتفاعلها في سياقها الذى سيقت فيه.. وعلى ذلك ففي التشبيه خلق لغوى يصهر الطرفين في بوتقة جديدة ولا نستطيع أن

(١) المصدر السابق: ٢/٧٥، ٧٦.
(٢) معاهد التنصيص: ١/١٥٣

نفسر هذه الصورة الجديدة لهما إلا بتأويل مايمكن أن يعطيه كل طرف للآخر وما يأخذه منه، وبتأمل إشعاع كلا الطرفين وتفاعله في سياقه داخل كيان العمل الأدبي... ومن هنا لو نظرنا إلى بيت محمد بن وهيب الحميرى هذا داخل نصه الذى أورده صاحب معاهد التنصيص لخرجنا بتفسير لهذا التشبيه كان يحجب النقد عن رؤيته النظرة الجزئية لجملة التشبيه، وفكرة النموذج وفكرة الادعاء والمبالغة:

لقد ورد هذا البيت في قصيدة للشاعر يقول فيها:

العذر إن أنصفت متضحُ   وشهودُ حبك أدمعٌ سفحُ
وإذا تكلمت العيون على   إعجامها فالسر مفتضح
مهما أبيت معانقي قمرٌ   للحسن فيه مخايل تَضِحُ
نشر الجمال على محاسنه   بِدَعا وأذهَبَ همه الفرحُ
يختال في حُلَلِ الشباب به   مرح وداؤك أنه مَرِحُ
مازال يَلثَمني مُراشفه   وَيعلني الإبريق والقَدَحُ
حتى استرد الليلُ خِلعَتَه   ونشا خِلالَ سوادِه وَضَحُ
وبدا الصباح كأن غُرتَه   وجهُ الخليفة حين يُمتَدحُ
نشرت بك الدنيا محاسِنُها   وتزيّنت بِصفاتِك المدحُ
وكأنما مذ غاب عنك له   بإزاء طرفك عارض سَمحُ
وإذا سلمت فكل حادثة   جلل فلا بؤس ولا ترحُ (١)

فالنص من بدايته تتجلى لنا فيه جدلية بين الخفاء والتجلي، فالعذر يظهر الإنصاف، والأدمع تشهد على الحب الذى تتكلم عنه العيون، وتفصح عنه الجفون النواطق مهما حاول الضمير أن يكن ويستودع، والوجود الذى أقامه الشاعر لنفسه وجود مليء باللهو والمرح يستره فيه ذلك الليل الذى جرد عليه خلعته.. وعاش الشاعر في ذلك الوجود الذى أقامته شاعريته، حتى بدأ الليل

(١) معاهد التنصيص: ١/١٥٣.

في استرداد خلعته تاركاً الشاعر لفضيحة الصباح .. وبدأ الشاعر يفيق ويتعقل : كيف لا وهو أمام صبح مزيل لستر الظلام .. أول ما يخشى فيه الخليفة رمز الشرع القائم بالحدود والرادع عن كل لهو.. وبدأ الخليفة يحتوى وجود الشاعر، فأضحى الخليفة هو كل شيء.. وأضحى يمتزج بالوجود امتزاجا ملأ على الشاعر كل زمانه. فلا غرو إذن أن التبس الصباح بخصائص الخليفة وصفاته، وانتزع غرته.. وجاءه هذا الصباح بهيبة الخليفة وجلاله.. والشاعر لا يهمه من هذا الصباح إلا وجود الخليفة المقيم للحدود والروادع عن كل لهو.. وهذا الوجود الشعرى للخليفة حتم على الشاعر الإفاقة والتعقل والتحول من اللهو إلى الانتقال إلى حياة الجد فوجود الخليفة كان فيه جانبان: جانب حرم الشاعر من الاستمرار في وجوده اللاهي العابث، وجانب حتم عليه امتداد حياة الجد المتمثلة في شخص الخليفة. ولقد نبه الشاعر إلى أن وجود الخليفة هذا الوجود الممتزج بزمان الشاعر هو وجود شاعرى.. أقامه مدح الخليفة.. وأن هذا الوجود هو أفق آخر للخليفة لا يقارن بواقعه الفعلي وذلك حين يقول: «حين يمتدح» ومن هنا يضعف حملهم المعنى على أن ذلك يدل على اتصاف الممدوح بمعرفة حق المادح وتعظيم شأنه عند الحاضرين بالإصغاء إليه والارتياح له، وعلى كونه كاملا في الكرم يتصف بالبشر والطلاقة عند استماع المديح (١)... فذلك غير لائق ألا يتنبه الشاعر إلى وجود تلك الصفة إلا في ساعة المدح فقط.

(١) مختصر السعد ضمن شروح التلخيص: ٤٠٩/٣.

٢ ــ المبالغة في الاستعارة

لقد تناول البحث البناء الاستعارى بالتحليل والتجريد والتنظير سواء أكان ذلك قديما أم حديثا. ولا يعنينا هنا الخوض في تفاصيل تلك الأبحاث إلا بقدر ماتشير إليه من وضع للاستعارة في درجة من درجات المبالغة.

والذى يضع الاستعارة هذا الموضع هو مقابلة الأداء الفني بالواقع الخارجي انطلاقا من مسلمة الوضع التي ناقشناها سابقا، والحكم تبعا لذلك على الاستعارة بالنقل أوالادعاء.

فاذا كان ابن قتيبة يرى أن العرب (تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة إذا كان المسمى بها بسبب من الأخرى أومجاورا لها أومشاكلاً)(١). فإن الجاحظ وأحمد ثعلب وابن المعتز يحددون الاستعارة، ويعرفونها تعريفاً مشابها لتعريف ابن قتيبة أوقريبا منه فالجاحظ يعرفها بأنها (تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه)(٢) وثعلب يقول بأنها (أن يستعار للشيء اسم غيره أومعنى سواه)(٣). وابن المعتز يحدثنا عنها بأنها (استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء قد عرف)(٤).

وتمضى الاستعارة في رحلتها عبر تاريخ النقد العربي حاملة لذلك المفهوم باختلافات يسيرة إذ يقول الأمدى عنها: (وإنما استعارت العرب المعنى لما ليس هو له إذا كان يقاربه أويناسبه أويشبهه في بعض أحواله، أوكان سببا من أسبابه فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشيء الذى استعيرت وملائمة لمعناه)(٥).

والرماني يعرفها بأنها (تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة)(٦).

---

(١) تأويل مشكل القرآن: ١٣٥.

(٢) البيان والتبين: ١٥٣/١.

(٣) قواعد الشعر: ٤٧.	(٤) البديع: ٢.
(٥) الموازنة: ٢٦٦/١.	(٦) النكت: ٨٥.

وأما أبو هلال فيقول: (الاستعارة نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض)(١).

وأما الحاتمي فلم يكن خارجا عن هذه التعاريف عندما يقول: (حقيقة الاستعارة أنها نقل كلمة من شيء قد جعلت له إلى شيء لم تجعل له)(٢).

ويعلق الدكتور جابر عصفور بعد أن أورد هذه التعريفات قائلا: (ولسنا نمضي في حصر تعريفات الاستعارة في القرن الخامس أوماتلاه فهي لا تخرج في جوهرها عن التعريفات السابقة، وإذا كانت هناك فوارق بينها في درجات التحديد والحصر، ولكنها في النهاية تشير إلى شيء واحد وهو أن الاستعارة انتقال في الدلالة لأغراض محددة، وأن هذا الانتقال لا يصح ولا يتم إلا إذا قام على علاقة عقلية صائبة تربط بين الأطراف، وتيسر عملية الانتقال من ظاهر الاستعارة إلى حقيقتها وأصلها)(٣).

وتتضح حقيقة هذا القول بالرجوع إلى تعريف ابن قتيبة والجاحظ وإلى قول الآمدي الذي كان يرى فيه أن العرب إنما استعارت المعنى لما ليس له (إذا كان يقاربه أويناسبه أويشبهه في بعض أحواله، أو كان سببا من أسبابه فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشيء الذي استعيرت له، وملائمة لمعناه)(٤).

وأما الإمام عبد القاهر وهو علم بارز في النقد العربي، وكانت آراؤه محورا لكثير من المفاهيم النقدية التي جاءت بعده فهو يتقبل فكرة النقل في الاستعارة عندما يعرفها بقوله: (اعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون لفظ الأصل في الوضع اللغوي معروفا تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع ثم يستعمله الشاعر أوغير الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلا غير

(١) الصناعتين : ٢٧٤ .
(٢) الرسالة الموضحة : ٢٩ .
(٣) الصورة الفنية : ٢٤٥
(٤) الموازنة : ١/٢٢٦ .

لازم فيكون هناك كالعارية)[١]

وأما العلاقة بين لفظ الأصل في الوضع اللغوى المفترض وبين استعمال الشاعر أوغيره فتنحصر عند الإمام في التشبيه لأجل المبالغة ويسمى النوع الذى توجد فيه هذه العلاقة بالاستعارة المفيدة، ومالم يجد فيه تلك العلاقة فيحكم عليه بعدم الفائدة (وموضع هذا الذى لايفيد نقله حيث يكون اختصاص الاسم بما وضع له من طريق أريد به التوسع في أوضاع اللغة والتفوق في مراعاة دقائق في الفروق في المعاني المدلول عليها : كوضعهم للعضو الواحد أسامي كثيرة بحسب اختلاف أجناس الحيوان، نحو وضع الشفة للإنسان، والمشفر للبعير، والجحفلة للفرس، وما شاكل ذلك من فروق، ربما وجدت في غير لغة العرب، وربما لم توجد. فإذا استعمل الشاعر شيئا منها في غير الجنس الذى وضع له فقد استعاره منه ونقله عن أصله، وجاز به موضعه كقول العجاج :

* وفاحما ومرسنا مسرجا *

يعني أنفاً برق كالسراج، والمرسن في الأصل للحيوان، لأنه الموضع الذى يقع عليه الرسن... فهذا ونحوه لايفيدك شيئا لو لزمت الأصل لم يحصل لك)[٢].

ولكن التحكم في كلام العرب الأقحاح على ضوء لزوم الكلمة لموضع معين يتحتم على القائل ألا يجاوزها إياه إلا بعلاقة منطقية تربط بين الأصل المفترض واللفظ المستعمل. جعل عبد القاهر يعيد النظر في حكمه على هذا النوع ويلتمس الشبه بين الأصل والفرع فيقول :(فاعلم أنك قد تجد الشيء يخلط بالضرب الأول الذى هو استعارة من طريق اللفظ ويعد في قبيله وهو إذا حققت ناظر الضرب الآخر فهو مستعار من جهة المعنى وجار في سبيله .
[illegible]

من ذلك قولهم: (إنه لغليظ الجحافل وغليظ المشافر) وذلك أنه كلام يصدر

(١) أسرار البلاغة: ١/١٢٣ (٢) المصدر السابق: ١٢٣ — ١٢٥

عنهم في مواضع الذم فصار بمنزلة أن يقال: كأن شفته في الغلظ مشفر البعير، وجحفلة الفرس، وعلى ذلك قول الفرزدق:

فلو كنت ضبياً عرفت قرابتي ولكن زنجيا غليظ المشافر

فهذا يتضمن معنى قولك: ولكن زنجيا كأنه جمل لايعرفني ولا يهتدى لشرفي.

وهكذا ينبغي أن يكون القول في قولهم: «أنشب فيه مخالبه» لأن المعنى على أن يجعل له في التعلق بالشيء والاستيلاء عليه حالة كحالة الأسد مع فريسته، والبازى مع صيده وكذا قول الحطيئة:

قروا جارك العيمان لما جفوته وقلص عن برد الشراب مشافره (١)

وأما النوع الآخر المفيد فهو الذى يحصر العلاقة فيه بين الأصل المفترض وبين الاستعمال القائم في الكلام بالتشبيه لأجل المبالغة، ويشرحه لنا بقوله (وأما المفيد فقد بان لك باستعارته فائدة ومعنى من المعاني، وغرض من الأغراض، ولولا مكان تلك الاستعارة لم يحصل لك، وجملة تلك الفائدة، وذلك الغرض، التشبيه، إلا أن طرقه تختلف حتى تفوت النهاية، ومذاهبة تتشعب حتى لا غاية... ومثاله قولنا: رأيت أسدا — وأنت تعني رجلا شجاعا — وبحرا — تريد رجلا جوادا، وبدرا وشمسا تريد إنسانا مضيء الوجه متهللا، وسللت سيفا على العدو — تريد رجلا ماضيا في نصرتك أورأيا نافذا ومما شاكل ذلك، فقد استعرت اسم «أسد» للرجل، ومعلوم أنك أفدت بهذه الاستعارة مالولاها لم يحصل لك، وهو المبالغة في وصف المقصود بالشجاعة، وإيقاعك منه في نفس السامع صورة الأسد في بطشه وإقدامه وبأسه وشدته، وسائر المعاني المذكورة في طبيعته، مما يعود إلى الجرأة.. وهكذا أخذت باستعارة البحر سعته في الجود وفيض الكف،

وبالشمس والبدر مالهما من الجمال والبهاء والحسن المالئ للعيون والباهر للنواظر)(٢).

(١) المصدر السابق: ١٢٩/١ (٢) المصدر السابق: ١٢٦/١.

وتوظيف الاستعارة للمبالغة أمر استقر في تراثنا النقدى والبلاغي أشار إليه الرماني عند حديثه عن عدد من الاستعارات القرآنية فمن ذلك قوله في قوله تعالى:

« إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ » (١)

(حقيقته علا والاستعارة أبلغ لأن طغى علا قاهرا، وهو مبالغة في عظم الحال)(٢).

وقوله في قوله تعالى: (**سنفرغ لكم أيها الثقلان**)(٣) (والله عز وجل لايشغله شأن عن شأن، ولكن هذا أبلغ في الوعيد، وحقيقته سنعمد، إلا أنه لما كان الذى يعمد إلى شيء قد يقصر فيه لشغله بغيره معه، وكان الفارغ له هو البالغ في الغالب مما يجرى به التعارف، دلنا بذلك على المبالغة من الجهة التي هي أعرف عندنا لما كانت بهذه المنزلة، ليقع الزجر بالمبالغة التي هي أعرف عند الخاصة والعامة موقع الحكمة) (٤).

وقال به أبو هلال حيث يقول: (الاستعارة نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض، وذلك الغرض إما أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه، أوتأكيده والمبالغة فيه، أوالإشارة إليه بالقليل من اللفظ، أوتحسين المعرض الذى يبرز فيه)(٥)

وأشار إليه ابن رشيق بقوله: (ولو بطلت المبالغة كلها وعيبت لبطل التشبيه وعيبت الاستعارة) (٦)

وقال أبو الفتح عثمان بن جنى: (الاستعارة لاتكون إلا للمبالغة، وإلا فهي حقيقة)(٧)

كي ... ٨/١ .

(١) سورة الحاقة : ١١ (٢) النكت : ٨٧ . (٣) سورة الرحمن : ٣١ .
(٤) النكت : ٨٨ (٥) الصناعتين : ٢٧٤
(٦) العمدة : ٥٥/٢ . (٧) المصدر السابق : ٢٧٠/١

وقال ابن الخطيب الرازى عن الاستعارة : (إنها ذكر الشيء باسم غيره واثبات مالغيره له لأجل المبالغة في التشبيه)(١).

ويقول الخطيب القزويني معرفا الاستعارة: (وهى ماكانت علاقته تشبيه معناه بما وضع له وقد تقيد بالتحقيقية لتحقق معناها حسا أوعقلا . فيقال إن اللفظ نقل عن مسماه الأصلى فجعل اسما له على سبيل الإعارة للمبالغة في التشبيه)(٢).

وهذه الوظيفة للاستعارة التي أصروا عليها أمر يستقر مع رؤيتهم التي درجوا عليها في نظرتهم إلى التشبيه، فإذا كان التشبيه يقوم على إلحاق فرع بأصل وتكون بالمبالغة تبعاً لدرجة القرب والبعد بين المتشابهين أودرجة الادعاء تبعا لحال ذكر الأداة، والجامع الكلي، فإن في الاستعارة القائمة على فكرة التشبيه إلغاء لفكرة التشبيه فسر في تراثنا النقدى والبلاغي بالادعاء والتناسي وحمل لواء هذا التفسير الإمام عبد القاهر وجاهد في سبيل الانتصار له جهادا يتضح لقارئه معاناته في الدفاع عن هذه الفكرة فهو يقول : (واعلم أنك ترى الناس وكأنهم يرون أنك إذا قلت : رأيت أسدا وأنت تريد التشبيه كنت نقلت لفظ أسد عما وضع له في اللغة واستعملته في معنى غير معناه حتى كأن ليس الاستعارة إلا أن تعمد إلى اسم الشيء فتجعله اسما لشبيهه وحتى كأن لا فصل بين الاستعارة وبين تسمية المطر سماء والنبت غيثا والمزادة راوية، وأشباه ذلك مما يوقع فيه اسم الشيء على ماهو منه بسبب، ويذهبون عما هو مركوز في الطباع من أن المعنى فيها المبالغة، وأن يدعى في الرجل أنه ليس برجل ولكنه أسد بالحقيقة)(٣).

(ويستمر في مناقشة هذه القضية مبينا أن الاستعارة ليست لمجرد النقل

قائلا : وإنه إنما يعار اللفظ من بعد آن يعار المعنى، وأنه لا يشرك في اسم

(١) الطراز: ٢٠١/١.

(٢) الإيضاح ضمن شروح التلخيص: ٤٥/٤ ـ ٤٨.

(٣) دلائل الاعجاز: ٣٣١، ٣٣٢

الأسد إلا من بعد أن يدخل في جنس الأسد لا ترى أحداً يعقل إلا وهو يعرف ذلك إذا رجع إلى نفسه أدني رجوع، ومن أجل أن كان الأمر كذلك رأيت العقلاء كلهم يثبتون القول بأن من شأن الاستعارة أن تكون أبدا أبلغ من الحقيقة)(١).

ويضيف الامام عبد القاهر مبينا أن هذه الأبلغية لا تتحقق مع النظر إلى الاستعارة بأنها ليست إلا مجرد نقل قائلا:(وإلا فإن كان ليس ههنا إلا نقل اسم من شيء إلى شيء فمن أين يجب ليت شعرى أن تكون الاستعارة أبلغ من الحقيقة ويكون لقولنا: رأيت أسدا مزية على قولنا: رأيت شبيها بالأسد، وقد علمنا أنه محال أن يتغير الشيء في نفسه بأن ينقل إليه اسم قد وضع لغيره من بعد أن ألا يراد من معنى ذلك الاسم فيه شيء بوجه من الوجوه بل يجعل كأنه لم يوضع لذلك المعنى الأصل أصلا وفي أى عقل يتصور أن يتيسر معنى شبيها بالأسد بأن يوضع لفظ الأسد عليه وينقل إليه(١).

والإمام عبد القاهر بمسألة الادعاء هذه يحاول أن يقدم لكثير من الاستعارات في الكلام العربي حجة تدافع بها عن نفسها أمام محكمة النظرة العقلية والمنطقية التي لا ترتضى للعمل الفنى أن يعيد تشكيل الواقع بأن يقيم عالما فنيا يعلو على الواقع الخارجي. تلك النظرة التي نظرت إلى مجموعة من استعارات أبي تمام فجعلتها من مرذول الألفاظ وقبيح الاستعارات وأوردت لذلك أمثلة منها قوله:

يا دهر قوم من أخدعيك فقد أضججت هذا الأنام من خرقك

وقوله :

ألا لا يمد الدهر كفا بسيئ إلى مجتدى نصر فيقطع من الزند

والدهر ألأم من شرقت بلؤمه إلا إذا أشرقته بكريم

وقوله :

إذا للبست عار دهر كأنما لياليه من بين الليالي عوارك

---

(١) المصدر السابق: ٣٣٢. (٢) دلائل الاعجاز: ٣٣٢.

وقوله يرثي علاما :

أنزلته الأيام من ظهرها من بعد إثبات رجله في الركاب

وقوله :

كأنني حين جردت الرجاء له عضبا صببت به ماء على الزمن

وقوله يصف فرسا :

وكأن فارسه يصرف إذ بدا في متنه ابنا للصباح الأبلق

وعلقت عليها قائلة: (وأشباه هذا مما إذا تتبعته في شعره وجدته كثيرا، فجعل كما ترى مع غثاثة هذه الألفاظ ـ للدهر أخدعا، ويدا تقطع من الزند، وكأنه يصرع، وجعله يشرق بالكرام.. والليالي كأنها عوارك، والزمان كأنه صب عليه ماء، والفرس كأنه ابن للصباح الأبلق، وهذه استعارات في غاية القباحة والهجانة والغثاثة والبعد من الصواب)(١).

وقد وجد الإمام عبد القاهر في ربطه وظيفة الاستعارة بالادعاء مخرجا لهذه الاستعارات بل أنه أوضح إنه لا يمكن إخراج الاستعارة على زعم النقل في مثل هذه الاستعارات التي أطلق عليها فيا بعد مصطلح الاستعارة المكنية، وذلك حيث يقول:

(واعلم أن في الاستعارة ما لا يتصور تقدير النقل فيه البتة وذلك مثل قول لبيد:

وغداة ريح قد كشفت وقرة إذ أصبحت بيد الشمال زمامها)

مبينا أنه لا خلاف في أن اليد استعارة رادا على من زعم أن لفظ اليد نقل عن شيء إلى شيء بأن ليس المعنى على أنه شبه شيئا باليد فيمكن

أن يزعم أنه نقل لفظ اليد إليه، وإنما المعنى على أنه أراد أن يثبت للشمال في تصريفها الفداه على طبيعتها شبه الإنسان قد أخذ الشيء يقلبه ويصرفه كيف يريد فلما أثبت لها مثل فعل الانسان باليد استعار لها اليد)(٢).

(١) الموازنة: ١ / ٢٦١ - ٢٦٥ (٢) دلائل الاعجاز: ٣٣٤

وقد طبّق لنا الإمام هذه النظرة على بيت الحماسة:

إذ هزه في عظم قرن تهللت نواجذ أفواه المنايا الضواحك

قائلا: (فإنه لما جعل المنايا تضحك جعل لها الأفواه والنواجذ التي يكون الضحك فيها...)

فأنت الآن لا تستطيع أن تزعم في بيت الحماسة أنه استعار لفظ النواجذ ولفظ الأفواه، لأن ذلك يوجب المحال، وهو أن يكون في المنايا شيء قد شبه بالنواجذ وشيء قد شبه بالأفواه، فليس إلا أن نقول إنه لما ادعى أن المنايا تسرُّ وتستبشر إذا هو هز السيف وجعلها لسرورها بذلك تضحك أراد أن يبالغ في الأمر فجعلها في صورة من يضحك حتى تبدو نواجذه من شدة السرور)(١).

وتظل فكرة الادعاء في الاستعارة للمبالغة التي حمل لواءها الامام عبد القاهر حاملة للشك والريب واحتمال الكذب في الاستعارة على الرغم من أن الإمام حاول أن يدفع عنها ذلك ببيان أن القصد من الاستعارة إثبات الشبه (واعلم أن الاستعارة لا تدخل في قبيل التخييل لأن المستعير لا يقصد إلى إثبات معنى اللفظة المستعارة وإنما يعمد إلى إثبات شبه هناك فلا يكون مخبره على خلاف خبره، وكيف يعرض الشك في أن لا مدخل للاستعارة في هذا الفن وهي كثيرة التنزيل على مالا يخفى كقوله عز وجل: **(واشتعل الرأس شيباً)** ثم لا شبهة في أن ليس المعنى على إثبات الاشتعال ظاهرا وإنما المراد إثبات شبهه)(٢). ولقد سبق أن بينا تناقض الإمام عبد القاهر

في ذلك.

أما في النقد الحديث فقد تجاوز البناء الاستعارى هذه الوظيفة وذلك لأن النظرة إلى الاستعارة في النقد الحديث نظرت إليها في ذاتها وفي ضوء استعمالها وسياقها الذي نمت فيه واعتبرتها عنصرا أساسيا يعتمد عليه العمل الأدبي

(١) دلائل الاعجاز: ٣٣٥. (٢) أسرار البلاغة: ١٢٥/٢.

ويخلقه بواسطة اللغة انطلاقا من أن محور عمل الأديب هو اللغة التي يتصرف فيها على قدر عمق رؤيته، واستبصاره للأشياء. فتراه يقيم علاقات بين المتباعدات. ويقيم وجودا للأشياء يختلف عن وجودها الخارجي وماذلك إلا لأنها أصبحت من ذاته، تستمد قيمتها من رؤيته التي تدخل في تكوينها العناصر الباعثة سواء أكانت عناصر انفعالية أم ثقافية (فإذا كانت القصيدة استعارة كبرى وإذا كانت كل صورها وأدواتها الشعرية تعتمد على تغير المعنى وتصحيح الانحراف المقصود فما هي وظيفة كل ذلك؟ لماذا نقوم بتغيير المعنى ولا نسمي الأشياء بأسمائها؟ لماذا يتحدث الشاعر عن «المنجل الذهبي» ويقصد القمر؟

والإجابة عن هذه التساؤلات تكمن في التناقص أو التنافر القائم بين المعنيين المعنى الفكرى، والمعنى الإيحائي العاطفي. فكلاهما لا يتعايش مع الآخر في نفس الوعي والضمير، وليس بوسع الدال أن يؤدى دلالتين متنافرتين في نفس الوقت، ولهذا فإن الشعر يقوم بما أطلق عليه «حركة الالتفات» يقطع الحبل الأصلي الذى يصل بين الدال والفكرة كي يضع مكانه الانفعال، أوالإحساس، يحاصر نظام الدلالة القديم ليجعل من الممكن تشغيل النظام الجديد، وبهذا فإن الشعر ليس مجرد شيء مختلف عن النثر، بل هو ضد النثر، وليست الاستعارة مجرد تغيير في المعنى ولكنها نسخ له وسخط لمعالمه، فالكلمة الشعرية تتضمن موت اللغة وبعثها في آن واحد، وليس بوسع الشاعر أن يسمى الأشياء بأسمائها ولا أن يقول «قمرا» وحسب لأن هذه الكلمة تثير فينا وفي ضمائرنا حالة باردة محايدة، ولكنا كي تثير

صورة وجدانية لابد أن تلجأ إلى الحيلة الشعرية إلى انتهاك قوانين اللغة العادية، ولابد للشاعر إذن أن يقول عن القمر إنه «منجل ذهبي في حقل النجوم» فيبتعد عن قوانين اللغة التي لاتسمح بتلافي هذه الكلمات على هذا الشكل ليؤدى وظيفته الشعرية الحميمة) (١).

---

(١) نظرية البنائية في النقد الأدبي: ٢٨٠.

وتحليل الاستعارة والبحث عن اركانها مستعار. ومستعار له، وعلاقة المشابهة بينها أمر يميت عمل الشاعر، ويلغى شاعريته لأنه يردنا عن لغة الشاعر المبدعة الخلاقة إلى اللغة العادية الإيصالية التي يتجاوزها الشاعر في اللحظة التي نعد عمله شعريا ومن هذا المنطلق يقول الدكتور صلاح فضل (ينطلق النقاد عادة من مبدأ عام إذ يفترضون أن كل قصيدة لها معنى عام ويتصورون مهمتهم على أنها اكتشاف هذا المعنى فإذا قرءوا لأحد الشعراء بيتا يقول:

* فوق السطح الهادئ تدرج الحمائم *

أدركوا من قرائن القصيدة أنه يعني بالسطح البحر، وبالحمائم المراكب، وهم على حق في ذلك فمن يفهم غير هذا يخون الشاعر، لكن هذا المعنى انسياب المراكب فوق الماء الهادئ ـ ليس شعريا في حد ذاته بدليل أننا يمكن أن نؤديه بعبارة نثرية عادية كما فعلنا. ويبدأ الشعر في اللحظة التي نسمي فيها البحر سطحا والمراكب حمائم، عندئذ يحدث اعتداء وجرح لشفرة اللغة، أى انحراف عن الاستخدام العادى هذا الانحراف هو الذى كانت تسميه البلاغة القديمة استعارة، وهو وحده الآن الموضوع الحقيقي لدراسة الشعر)(١).

وبغض النضر عن اختلافنا معه في تسمية هذا الانحراف بالاستعارة ـ إذ ليست الاستعارة إلا جزءا من صور هذا الانحراف الذى تختلف تسمياته في

البلاغة العربية بمصطلحات تدخل تحت اسم المجاز ـ فهو يحق في إشارته
إلى أن نقد الشعر يجب أن يبدأ من اللحظة التي تتكون فيها الكلمة الشاعرة، ويكون العمل النقدى متجها إليها وإلى البحث عن سر الخلق اللغوى والإبداع الشعرى فيها عن طريق النظر إلى تفاعل الكلمة مع السياق ذلك التفاعل القائم على الأخذ والعطاء، والذى لا يقتصر على النظر إلى السياق في ترابطه الذهني المنطقي، وذلك لأن (أمر التفاعل بين الحدود

---

(١) المصدر السابق: ٢٧٧.

لا ينجلي تماما، إلا بالتفرقة بين التركيب العضوى، والتركيب المنطقي، فالتركيب المنطقي موصوف بالآلية، أجزاؤه مستقلة والعلاقات بين هذه الأجزاء إضافية بحيث لا يتأثر الجزء والعلاقة بين هذه الأجزاء بالنظم الكلي الذى يدخلان فيه، أما التركيب الفني العضوى فيعني أن علاقة الجزء بالجزء تتضمن في ذاتها علاقة الجزء بكل التعبير فعناصر الاستعارة لا معنى لها إلا من حيث ارتباطها بذلك المجموع الذى تخلقه بوساطة ما بينها من تفاعل، وبعبارة أخرى يقتضي الفهم العضوى لبنية الاستعارة أن نقول: إن الاستعارة تقدم إلينا حدودا لا وجود كاملا لها في خارج التعبير الذى أنتجته هي نفسها)(١).

وهذه الفكرة في التفرقة بين التركيبين هي التي جعلت الدكتور مصطفى ناصف يقول أيضاً: (ومن ثم كان تفسير المجاز أمرا محفوفا بالصعاب، ولا يمكن أن يأخذ إلا جهة واحدة ويمثل لذلك بالفرق بين «أبواب الحياة الحديدية» و«أبواب المنتزه الحديدية» فالأبواب الحديدية جزء من المنتزه، والعلاقة بينها ثابته لا تتغير على حين أن العبارة المجازية إذا أخذت مأخذ التفاعل بين جميع أجزائها تبين لنا فكرة الحياة في مشهد الأبواب الحديدية، والأبواب الحديدية في مشهد الحياة، ويحسب اختلاف وجهتي النظر الممكنتين إلى العبارة تتأثر الحياة بفكرة الأبواب الحديدية، وتتأثر الأبواب الحديدية بفكرة الحياة تارة أخرى. وإذا نظرنا إلى الطرفين، كل في مقام الآخر، غدا التشبه الحقيقي معنى أنتجه التفاعل بين الحدين اللذين يشكلان معا المشبه به، فالمشبه نوع

من الحياة يمكن أن نتلهى به في مواجهة الأبواب الحديدية ونوع من الأبواب الحديدية خليق بالتأمل في مواجهة الحياة)(٢).

وهذه الوظيفة التي اكتشفها النقد الحديث في الاستعارة، والتي ترتفع على المعنى المعروف لكليهما لخلق وحدة جديدة معقدة أمر قد يفضّ مشكلة الاستعارة بالكناية التي يرتد فيها البلاغيون إلى معنى المشابهة، ثم يضطرون

(١) الصورة الأدبية: ١٤٢ (٢) المصدر السابق: ١٤٣

إلى أن يفترضوا أن المستعار حذف ورمز إليه بشيء من لوازمه يقول الدكتور مصطفى ناصف فلسنا في هذا النموذج أمام مشابهة مكنية... ذلك لأننا لانميل إلى أن تكون المنية في بيت أبي ذؤيب المشهور، مشبهة بالسبع في اغتيال النفوس، ولا نميل إلى أن المنية هي السبع بادعاء السبعية لها وإنكار أن تكون شيئا آخر غير السبع، ولن نرى أن المكنية هي التشبيه المضمر في النفس المرموز إليه باثبات لازم المشبه به للمشبه (وهذا الإثبات هو الاستعارة التخييلية) المقام أيسر من ذلك، فالاستعارة لا علاقة لها مباشرة بالسبع والمشابهة وإنما هي العالم الخيالي الذى يعيش فيه الشاعر، ويؤثره على التخيلات الساذجة الأولى التي قال بها كولردج، فقد أعيد تنظيم الإحساس بالمنية والسبع وأعطى لهذين العنصرين وظيفة جديدة، بل ربما يستحيل افتراس المنية نفسه عنصرا آخر متميزا من ذاك السبع نفسه. وقد غاب عن أذهان محللي الاستعارة أن العناصر التي يتناولها الشاعر بالتفكيك، وإعادة التركيب تصبح فعلا في الاستعارة جديدةو وأن هذه الجدة المتخيلة هي مصدر ما في الاستعارة من روعة)(١) وذلك لأن (الخيال في الاستعارة حين يستعين ببعض العناصر الحسية إنما يريد من وراء ذلك غاية أخرى هي التسامي عليها وخلق مقولة أوعالم خيالي ثانٍ بديل ،منها)(٢).

وماعسى أن يكون مصير المبالغة في الاستعارة بعد رفض فكرة تحليل الاستعارة الى مكوناتها المفترضة، والدعوة الى التعامل معها كوجود جديد

ليس له مقابل خارجي ؟

إن المبالغة تجاوز لواقع أوعادة، ويتم ذلك بداهة بمقارنة الوجود بالواقع والعادة، ولكننا مادمنا قد رفضنا رفضاً قاطعا فض الاستعارة وتحويلها إلى مايزعم أنه مكوناتها على ضوء أن الاستعارة اختصار لتشبيه، وأنها عدول عن حقيقة أصلية، فلا مجال للحكم على الاستعارة بالمبالغة وتجاوز الواقع والعادة ووضعها

(١) الصورة الأدبية : ١٣٧ ، ١٣٨ (٢) المصدر السابق : ١٣٨ .

في قفص الاتهام والدفاع عنها بإخراجها وتبرئتها من تهمة الكذب وذلك لأن (الاستعارة عملية خلق جديد في اللغة، ولغة داخل اللغة، فيما تقيمه من علاقات جديدة بين الكلمات. وبها تحدث إذابة لعناصر الواقع ليعاد تركيبها من جديد، وهي في هذا التركيب الجديد كأنها منحت تجانسا كانت تفتقده، وهي بذلك تبث حياة داخل الحياة التي نعرف أنماطها الرتيبة، وهي بذلك تضيف وجودا جديدا، أى تزيد الوجود الذى نعرفه، هذا الوجود الذى تخلقه علاقات الكلمات بواسطة تشكيلات لغوية عن طريق تمثيل جديد له)(١) .

(١) فلسفة البلاغة : ١٥٧ .

٣ــ المبالغة في الكناية

إن تقديم استعراض تاريخي لتعريف الأسلوب الكنائي وتطوره أمر لا يهم هذا البحث (١)، وإنما الذى يهمه أن النظرة الغالبة إلى الكناية في تراثنا النقدى والبلاغي تنظر إليها على أنها دلالة إشارية تفهم لازما لمعنى الكلام مهملة لدلالة الألفاظ التي يحملها ذلك التركيب اللغوى .

فالإمام عبد القاهر يعرفها بقوله : (والمراد بالكناية ههنا أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومئ به إليه، ويجعله دليلا عليه، مثال ذلك قولهم : «هو طويل النجاد» يريدون طويل القامة «وكثير رماد القدر» يعنون كثير القِرَى، وفي المرأة «نؤوم الضحى» والمراد أنها مترفة مخدومة لها من يكفيها أمرها فقد أرادوا في هذا كله كما ترى معنى ثم لم يذكروه بلفظة الخاص به، ولكنهم توصلوا إليه بذكر معنى آخر من شأنه أن يردفه في الوجود وأن يكون إذا كان، أفلا ترى أن القامة إذا طالت طال النجاد؟ وإذا كثر القرى كثر رماد القدر؟ وإذا كانت المرأة مترفة لها من يكفيها أمرها ردف ذلك أن تنام إلى الضحى؟) (٢) ويعرفها السكاكي بقوله:(الكناية هي ترك التصريح بذكره إلى ذكر ما يلزمه لينتقل من المذكور

إلى المتروك كما تقول فلان طويل النجاد وليتنقل منه إلى ماهو ملزومه وهو طول القامة، وكما تقول: فلانة نؤوم الضحى لينتقل منه إلى ماهو ملزومه — وهو كونها مخدومة غير محتاجة إلى السعي بنفسها في إصلاح المهمات)(٣) ويعرفها الخطيب القزويني بقوله: (الكناية لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ كقولك فلان طويل النجاد أى طويل القامة وفلانة نؤوم الضحى أى مرفهة مخدومة غير محتاجة إلى السعي بنفسها في إصلاح المهمات)(٤).

(١) لقد كفانا مؤنة ذلك الدكتور محمود السيد شيخون في كتابه: الأسلوب الكنائي.

(٢) دلائل الاعجاز: ٢ (٣) مفتاح العلوم: ١٧٠. (٤) الايضاح: ١٨٣

وأما إفادتها المبالغة فقد أشار إليها الإمام عبد القاهر عندما قال: (اعلم أن سبيلك أولا أن تعلم أن ليست المزية التي تثبتها لهذه الأجناس على الكلام المتروك على ظاهره، والمبالغة التي تدعى لها في أنفس المعاني التي يقصد المتكلم إليها بخبره ولكنها في طريق إثباته لها، وتقريره إياها)(١) بعدقوله: (قد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح والتعريض أوقع من التصريح، وأن للاستعارة مزية وفضلا، وأن المجاز أبدا أبلغ من الحقيقة)(٢). ويقول مفسراً هذا الشأن في الكناية: (تفسير هذا أن ليس المعنى إذا قلنا: «إن الكناية أبلغ من التصريح» إنك لما كنيت عن المعنى زدت في ذاته، بل المعنى أنك زدت في إثباته فجعلته أبلغ وآكد في قولهم: جم الرماد. أنه دل على قرى أكثر بل إنك أثبت له القِرَى الكثير من وجه هو أبلغ وأوجبته إيجابا هو أشد وادعيته دعوى أنت بها أنطق، وبصحتها أوثق)(٣)، ويضيف قائلا: (وإذ قد عرفت مكان هذه المزية والمبالغة التي لاتزال تسمع بها وأنها في الإثبات دون المثبت فإن لها في كل واحد من هذه الأجناس — الكناية — الاستعارة — المجاز — سببا وعلة. فأما الكناية فإن السبب في أن كان للإثبات بها مزية لاتكون للتصريح أن كل عاقل يعلم إذا رجع إلى نفسه أن إثبات الصفة بإثبات دليلها. وإيجابها

بما هو شاهد في وجودها، اكد وابلغ في الدعوى من ان تجيء إليها فتثبتها هكذا ساذجا غفلا، وذلك أنك لا تدعى شاهد الصفة ودليلها إلا والأمر ظاهر معروف وبحيث لا يشك فيه ولا يظن بالمخبر التجوز والغلط)(٤).

وأفادة الكناية للمبالغة أمر أشار إليه أيضا الزركشي حيث ذكر أن من فوائد الكناية (قصد المبالغة في التشنيع كقوله تعالى حكاية عن اليهود ـ لعنهم الله ـ:

« وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ » (٥).

(١) دلائل الاعجاز: ٥٦. (٢) المصدر السابق: ٥٥

(٣) المصدر السابق: ٥٦، ٥٧. (٤) دلائل الاعجاز: ٥٧، ٥٨ (٥) سورة المائدة: ٦٤.

فإن الغل كناية عن البخل وقوله تعالى:

« بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ » (١)،

كناية عن كرمه)(٢).

وابن حجة الحموى عندما تحدث عن قول ليلى الأخيلية:

ومخرق عنه القميص تخاله وسط البيوت من الحياء سقيما

فقال: (كنت عن الإفراط في الجود بخرق القميص لجذب العفاة له عند ازدحامهم عليه لأخذ العطاء)(٣).

ولازم الكناية هذا الذى التفتوا إليه، وجعلوا من وظائفها المبالغة في الدلالة عليه أمر استحوذ على اهتمامهم، وكفاهم مؤونة البحث في الدلالة اللغوية لهذه التراكيب وكأنها ليست إلا مجرد أصوات تشير إلى لازمها المتعين.

ولقد اتخذت هذه التراكيب عبر التراث النقدى والبلاغي صفة الثبوت والديمومة وكانت معرفة اللازم والوسائط الذهنية بين التركيب وبين اللازم،

وأن الكناية جاءت للدلالة عليه من طريق هو أبلغ وآكد هي الغاية في البحث في هذه التراكيب الكنائية مع أن هذا اللازم ليس إلا معرضا ومناسبة كلية من المناسبات التي قيلت فيها هذه التراكيب.

فـ «بعيدة مهوى القرط» اتخذوها رمزا وكناية عن طول العنق. وهذا التركيب جاء في قول عمر بن أبي ربيعة:

بعيدة مهوى القرط، إما لنوفل أبوها، وإما عبد شمس وهاشم

وقال عنه قدامة بن جعفر: (وإنما أراد الشاعر أن يصف طول الجيد فلم

---

(١) سورة المائدة: ٦٤ (٢) البرهان في علوم القرآن: ٢/٣٠٨.

(٣) خزانة الأدب: ٤٤٠.

يذكره بلفظه الخاص به، بل أتى بمعنى هو تابع لطول الجيد، وهو بعد مهوى القرط)(١).

وقال أبو هلال العسكري (فأراد أن يصف طول عنقها، فأتى بما دل عليه من بعد مهوى القرط، وبعد مهوى القرط ردف لطول العنق)(٢).

ولكن الدارس لدلالة التركيب اللغوية وسياق التركيب في البيت والنص يمكن أن يجد فيه بعدا آخر يسمو على طول العنق ويتجاوزه. ذلك أن البيت ورد في قصيدة عمر بن أبي ربيعة التي يقول فيها:

رأيت بجنب الخيف هندا فراقني لها جيدُ ريمٍ زينتهُ الصرائمُ

وذو أشر عذب، كأن نباته جنى أقحوان نبتُه متناعِمُ

نظرت إليها بالمحصب من منى ولي نظر لولا التحرج عارِمُ

فقلتُ أشمس، أم مصابيح بيعة بدت لك تحت السجف أم أنت حالمُ

مهفهفة غراء، صفر وشاحها وفي المرطِ منها أهيل متراكمُ

بعيدة مهوى القرط، إما لنوفل أبوها، وإما عبد شمس وهاشمُ

ومد عليها السجف يوم لقيتها على عجل تباعها والخوادمُ

فلم أستطعها غير أن قد بدا لنا   عشية لاحت كفها والمعاصم
معاصم لم تضرب على البهم بالضحى   عصاها ووجه لم تلحه السمائم (٣)

فالشاعر منذ البداية يقيم للمرأة وجودا في شعره يختلف عن وجودها الواقعي ومقارنة ذلك الوجود بالواقع يخرج لنا هذا النص في صور مبعثرة، وممزقة.

ولقد كانت المرأة في الشعر العربي عالم قداسة، وخصب، ونماء، وفي هذه

---

(١) نقد الشعر: ١٥٨   (٢) الصناعتين: ٣٦٢.

(٣) ديوان عمر بن أبي ربيعة: الأشر: حدة ورقة في أطراف الأسنان ومنه قيل: ثغر مؤشر، وإنما يكون ذلك في أسنان الأحداث وتفعله المرأة الكبيرة بتشبه بأولئك (لسان العرب: أشر)ـ المرط: كساء من خز أوصوف أو كتان وقيل هو الثوب الأخضر وجمعه مروق (لسان العرب: مرط).

القصيدة يتجسد ذلك بصور شتي، يراها الشاعر في مكان مقدس، ويلفت نظره منها الجيد، ذلك الجيد الذى لم يعد جيد امرأة جميلة، فحسب، وإنما أصبح جيد حيوان له في الشعر العربي مكانته، التي ربما استمدها من تقديس الجاهليين له. ويلفت نظره كذلك فاها الذى لم يعد ثغرا حاويا لأسنان جميلة، وذا رائحة طيبة فحسب. بل يزيد على ذلك بأن أصبح رمزا للعطاء والخصب.

ولقد انبعث هذا الوجود في جو قداسة الزمان والمكان، الذى ارتبط بهيبة وجلال لهذه المرأة... وتأثر بهذا الوجود واقع الشاعر الحسي فتحرج نظره العارم وأصبح في عجز عن الجمال القدسي الذى ارتفعت إليه، وفي عجز عن تحديد موقفه هل هو فى موقف تكون النظرة فيه واقعية، أم أنه في عالم الأحلام:

نظرت إليها بالمحصب من منى   ولي نظر لولا التحرج عارم
فقلت أشمس، أم مصابيح بيعة   بدت لك تحت السجف أم أنت حالم

أننا نعفي على رؤية هذا العالم القدسى لوقلنا إنه أراد تشبيهها بالشمس أومصابيح البيعة في الضياء والإشراق ونعفى على علامة التشكك «أم» التي

تحمل لنا انفصال المرأة عن وجودها الواقعي، وابتعادها عنه إلى ذلك العالم القدسي. مما جعل الشاعر يظهر لنا معاناته، وحيرته في تصور ذلك العالم، لأنه أبقى نفسه في واقعه ذو النظرة العارمة التي يقاومها التحرج، والجلال، والهيبة تلك الهيبة التي تستمدها من نسبها العريق:

بعيدة مهوى القرط، إما لنوفل أبوها، وإما عبد شمس وهاشم

وإذا حصرنا فائدة الكناية (بعيدة مهوى القرط) في الدلالة على طول العنق عفينا على دلالة الألفاظ وحياتها داخل السياق.

فهنا لفظة «بعيدة» وهنا «القرط» وهنا «نوفل» و«عبد شمس» و«هاشم» وهذه الأسماء تشترك في العزة والحظوة لديها، فـ«نوفل» و«عبد شمس» و«هاشم» أسماء لها بعد في النسب عريق، وهذا القرط في أذنها

يحظى لديها بأن يستقر في مكان عال، يستمد علوه من علو النسب والمهابة والجلال التي صبغها الشاعر عليها.

لقد أقامها الشاعر في وجود يرفع رأسها، ويمد عنقها، فهي المتبوعة المخدومة التي مد عليها الغطاء، وأخفى عن ناظر الشاعر هذه العوالم من القدسية والجلال، والجمال، فلم يستطع أن يظفر بها لأنها مرت عندما نظر إلى وجهها كالحلم، ولم يستطع أن يتأملها، ولم يبق من ذلك الوجود إلا مايراه من كفها ومعاصمها، تلك المعاصم التي لا تزال في حرز من عراقة الحسب والنسب، عن أن تضرب بها على المبهم أوتقوم بما يفيد السواد.

وهكذا يتضح لنا أن تحليل الكناية دون إهمال لمدلولات ألفاظها داخل السياق، يعطي لهذه الكناية حياة جديدة غير تلك التي كانت لها عندما انتزعت من سياقها التي قيلت فيه، وأخذت كقوالب جاهزة لا يتغير مدلولها مهما تغيرت النصوص.

وليس معنى ذلك أنها تتجزد عن مدلولها، ولكن ذلك المدلول ليس هو كل شيء

لأن ألفاظها لها حركة ووجود داخل كل نص يختلف عن حركتها ووجودها في أى نص آخر.

معنى «أبلغ» في قولهم: المجاز أبلغ من الحقيقة:

قبل أن نختتم هذا الفصل يجدر بنا أن نتبين ما الذى يعنيه العلماء بقولهم: (المجاز أبلغ من الحقيقة، والكناية أبلغ من التصريح، والتمثيل أبلغ من غيره).

وإجابة هذا السؤال تتضح بالرجوع إلى ماسبق أن ذكرناه عن دلالة «أبلغ» عند كثير من العلماء، فلقد رأينا أنها في بعض النصوص ترتبط بالمبالغة وتفسر بها أو بمعناها (١)، وفي بعضها الآخر تأتي في مجال التفاضل بين كلمتين مفردتين كقولهم قدير أبلغ من قادر(٢).

وقد أتت أيضا في مجال التفاضل بين آية وأخرى(٣)، ومع أن صياغة أفعل التفضيل لاتأتي من الرباعي إلا على رأى الأخفش والمبرد الذى ذكره ابن يعيش فقال: (وكان أبو الحسن الأخفش يجيز أفعل من كذا، من كل فعل ثلاثي لحقته زوائد، قلت أو كثرت، كاستفعل، وافتعل، وانفعل، لأن

أصلها ثلاثة أحرف، قال: وإنما قالوا: [illegible]

ثلاثي الأصل، وهذا المعنى موجود في انطلق ونحوه مما فيه زيادة، وتابعة أبو العباس المبرد...)[4] يرجح أن تكون «أبلغ» في كل ما مر ذكره تقتضي المبالغة. بل إنها فسرت بذلك في الموضع الأول، وأما ترجيح اقتضائها المبالغة في الموضعين الآخرين، فإنه لا وجه لأن تفضل كلمة أختها مجردة عن السياق إلا بأن تكون إحداها تدل على زيادة في المعنى عن أختها. ومن هنا سموا بعض هذه الصيغ بصيغ المبالغة.

وأما في الموضع الآخر فإن تنزيه الكتاب الكريم والإيمان بإعجاز كل آية منه يقتضينا أن نرجح انصراف «أبلغ» في هذه المفاضلة، بين الآيات

(١) انظر ديوان المعاني ١٢٢/١، ١١٢/٢، ١١٠/٢ وحديثنا عن دلالة «أبلغ» عند أبي هلال فيما تقدم من هذا البحث..

(٢) انظر المحتسب: ١٣٤/٢، والخصائص: ٢٦٧/٣، والمثل السائر: ٦٠/٢.

(٣) انظر الكشاف: ١٤١/٣ والصناعتين. (٤) شرح المفصل: ٩٢/٦.

عند النقاد إلى كونها منصرفة للدلالة على المبالغة لأنه لا يمكن أن نأتي بآية من سورة ونفضلها على آية في سورة أخرى بغير ذلك كأن نقول إن هذه الآية أوفى بلاغة، أو أفصح حيث إن لكل سورة سياقها الخاص. بل إن في السورة الواحدة سياقات مختلفة. ثم إن أولئك النقاد كانوا يأتون بأبلغ إذا جاءت في المفاضلة بين الآيات — كما رأينا في الباب الأول — مجردة أو يخصونها بالأبلغية في الغرض، ولا يقرنونها بأي شيء آخر يمكننا أن نستنتج منه أنهم يريدون تفضيل آية في البلاغة على آية..

ولذلك تصرف «أبلغ» في هذه المواضع إلى المبالغة سواء كان ذلك عن طريق صياغة «أفعل» التفضيل من الرباعي، على رأي الأخفش والمبرد، أو كان ذلك عن طريق صياغة أفعل التفضيل من بلغ بمعنى وصل وانتهى، فتكون أبلغ وصولا ونهاية في المعنى فهي لذلك تحمل المبالغة عن هذا الطريق، وذلك لأن من معاني بلغ الوصول والنهاية كما رأينا عند أبي هلال العسكري[1]، وكما نراه الآن في قول ابن منظور: (بلغ الشيء [illegible]

(بلغ الشيء يبلغ بلوغا، وبلاغا وصل وانتهى، وأبلغه هو إبلاغا، وبلغه تبليغا، وقول أبي قيس بن الأسلت:

قالت: ولم تقصد لقيل الخنى مهلا فقد أبلغت أسماعي

إنما هو من ذلك، أي قد انتهيت فيه، وأنعمت)(٢) وقوله: (وبلغ انتهى)(٣) وإذا جئنا إلى مانحن بصدده من معنى أبلغية المجاز، والكناية، والاستعارة وجدنا الامام عبد القاهر يقول:(قد أجمع الجميع على أن الكناية، أبلغ من الإفصاح، والتعريض، أوقع من التصريح، وأن للاستعارة مزية وفضلا. وأن المجاز أبدا أبلغ من الحقيقة. إلا أن ذلك وإن كان معلوما على الجملة، فإنه لاتطمئن نفس العاقل في كل مايطلب العلم به حتى يبلغ به

(١) الصناعتين: ١٢

(٢) لسان العرب: بلغ.

(٣) لسان العرب: بلغ

غايته، وحتى يغلغل الفكر إلى زواياه)(١). ويضيف قائلا:(اعلم أن سبيلك أولا أنْ تعلم أن ليست المزية التي تتبعها لهذه الأجناس على الكلام المتروك على ظاهره، والمبالغة، التي تدعى لها في أنفس المعاني التي يقصد المتكلم إليها بخبره لكنها في طريق إثباته لها، وتقريره إياها)(٥). فهو هنا لايفسر «أبلغ» بالمبالغة، وإنما يجعل المبالغة جزءا وميزة من مزايا هذه الأجناس التي أصبحت بها «أبلغ» ممايدل على أن مدلول «أبلغ» هنا أكثر سعة لتشمل المبالغة، والتقرير، والتوكيد وماشابه ذلك مماجعله من مزايا هذه الأجناس.

وبالمبالغة شرح ابن يعقوب المغربي قول الخطيب القزويني:(أطبق البلغاء على أن المجاز والكناية أبلغ من الحقيقة والتصريح) حيث قال:(أبلغ أى أكثر مبالغة في إثبات المقصود)(٣)، وقال الدسوقي في ذلك:(قيل عليه أن أبلغ إن كان مأخوذا من بلغ بضم اللام بلاغة، ففيه أن البلاغة لا يوصف

بها المفرد، والكناية كلمة مفردة والمجاز قد يكون كلمة، وأيضا الحال إن اقتضى الحقيقة كانت البلاغة في الإتيان بها، ولا عبرة بغيرها من كناية أو مجاز، وإن اقتضى المجاز والكناية كانت البلاغة في الإتيان بما ذكر، ولا عبرة بالحقيقة، وإن كان مأخوذا من بالغ مبالغة ففيه أن أفعل التفضيل لا يصاغ من الرباعي. وقد يجاب باختيار الأول وأن المراد البلاغة اللغوية وهي الحسن فقوله أبلغ من الحقيقة أى أفضل وأحسن منها، ويصح إرادة الثاني بناء على مذهب الأخفش والمبرد المجوزين لصوغ أفعل التفضيل من الرباعي، والمعنى أكثر مبالغة في إثبات المقصود)(٤). وقد رأينا فيما سبق أنه يجوز أن يكون من بلغ بمعنى وصل وانتهى فيكون أبلغ وصولا في تأدية المعنى المراد.

ولقد جعلها البهاء السبكي من بلغ بالفتح فقال:(قولنا في هذا الفصل

(١) دلائل الاعجاز: ٥٥، ٥٦. (٢) المصدر السابق: ٥٦

(٣) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص: ٢٧٥/٤.

(٤) حاشية الدسوقي على شرح السعد ضمن شروح التلخيص: ٢٧٥/٤.

كله الكناية والمجاز أبلغ هو بالمعنى اللغوى كقولنا:فعيل أبلغ من فاعل، وليس من البلاغة المصطلح عليها في هذا العلم لأمرين أحدهما: أن تلك لاتكون في المفرد، ولا شك أن المجاز والكناية يكونان مفردين غالبا. نعم ماذهب إليه عبد القاهر من أن الأبلغية في الإثبات يمشي معه في تسمية ذلك بلاغة بالاصطلاح. الثاني: أن أبلغ أفعل تفضيل فإذا حملت على المعنى اللغوى كان على بابه من التفضيل لأن الحقيقة بالغة للمقصود بكل حال، فالمجاز أبلغ منها، فإذا حملناه على الاصطلاح كان من بلغ بالضم وهو دليل على حصول البلاغة بالحقيقة، وليس كذلك لأن الحقيقة المجردة لا بلاغة فيها، فلا يكون من بلغ بالضم بل من بلغ بالفتح)(١).

وإذا كانت البلاغة العربية لها اهتمام كبير بالمخاطب، وايصال المعنى إليه، وتبليغه اياه. فتلح كثيرا على التقرير والتوكيد، والإثبات، فإن ذلك

يرجح أن تكون «أبلغ» إذا كانت مطلقة مأخوذة من البلاغ (وهو الاسم من الابلاغ والتبليغ. وهما الإيصال، وفي الحديث: «كل رافعة رفعت علينا من البلاغ»)(٢). فلذلك يكون معناها آكد، وأشد تقريراً، وإثباتا وإيصالاً للمعنى، ونفاذا له قال في القاموس: (وأمر الله بلغ أى بالغ نافذ يبلغ أين أريد به)(٢). على ذلك جاء القول: (اللهم سمع لا بلغ وسمعا لا بلغا أى نسمع به ولا يتم أويقوله من سمع خبرا لا يعجبه)(٢). ولذلك قال أبو هلال العسكرى: (فسميت البلاغة بلاغة لأنها تنهى المعنى إلى قلب السامع فيفهمه)(٣).

ومن هنا تكون «أبلغ» أفعل تفضيل على ذلك، ويلاحظ أن معرفة المفاضلة في الإيصال، والإثبات، والتقرير، والتوكيد، ترتبط بالكلام إذا كان مركبا، وأما إذا كانت المفاضلة بين كلمتين مفردتين مثل قولهم: فعيل

(١) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص: ٢٨١/٤.

(٢) القاموس المحيط: بلغ وانظر المادة نفسها في لسان العرب وتهذيب اللغة.

(٣) الصناعتين: ١٢.

أبلغ من فاعل، فإن المفاضلة تنصرف إلى الزيادة في المعنى عن طريق بلوغ النهاية فيه، وتكون هنا إما على بابها بمعنى انتهى أومأخوذة من «بالغ» كما سبق أن أشرنا إلى ذلك.

ويبقى علينا بعد ذلك أن نعرف مالذى يقصده الإمام عبد القاهر عندما ناقش أبلغية هذه الأجناس؟ ولمعرفة ذلك علينا أن نعرض من كلامه مانعتقد أنه يعطينا تكاملا للقضية التي طرحها، فهو يقول: (قد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح، والتعريض أوقع من التصريح، وأن للاستعارة مزية وفضلا، وأن المجاز أبدا أبلغ من الحقيقة. إلا أن ذلك وإن كان معلوما على الجملة فإنه لا تطمئن نفس العاقل في كل مايطلب العلم به حتى يبلغ فيه غايته، وحتى يغلغل الفكر إلى زواياه وحتى لا يبقى عليه موضع شبهة ومكان مسألة)(١).

فهو هنا كما تلاحظ لا ينفي عنها الأبلغية وإنما يريد أن يؤكد ذلك ويقرره، ويدفع كل شبهة تشكك فيه، ثم يقول: (اعلم أن سبيلك أولا أن تعلم أن ليست المزية التي تثبتها لهذه الأجناس على الكلام المتروك على ظاهره، والمبالغة التي تدعى لها في أنفس المعاني التي يقصد المتكلم إليها بخبره، ولكنها في طريق إثباته لها وتقريره إياها)(٢). وهنا نراه يجعل من أبلغية هذه الأجناس ومزاياها: المبالغة ولكنه لا يجعلها في المثبت بل في طريقة الإثبات يقول في تفسير ذلك: (تفسير هذا أن ليس المعنى إذا قلنا: «إن الكناية أبلغ من التصريح» أنك لما كنيت عن المعنى زدت في ذاته، بل المعنى إنك زدت في إثباته فجعلته أبلغ وآكد وأشد، فليست المزية في قولهم جمُّ الرماد، أنه دل على قِرًى أكثر، بل إنك أثبت له القرى الكثير من وجه هو أبلغ، وأوجبته إيجابا هو أشد، وادعيته دعوى أنت بها أنطق وبصحتها أوثق.

(١) دلائل الاعجاز: ٥٠، ٥٦

(٢) المصدر السابق: ٥٧.

وكذلك ليست المزية التي تراها لقولك: «رأيت أسدا» على قولك «رأيت رجلا لا يتميز عن الأسد في شجاعته وجرأته» أنك أفدت في الأول زيادة في مساواته الأسد، بل إنك أفدت تأكيدا وتشديدا وقوة في إثباتك له هذه المساواة وفي تقريرك لها فليس تأثير الاستعارة إذن في ذات المعنى وحيقته، بل في إيجابه والحكم به)(١) ثم يشرح السبب في كل ذلك فيقول: (وإذ قد عرفت مكان هذه المزية والمبالغة التي لا تزال تسمع بها وأنها في الإثبات دون المثبت، فإن لها في كل واحد من هذه الأجناس سببا وعلة. أما الكناية فإنّ السبب في أن كان للإثبات بها مزية لا تكون للتصريح أن كل عاقل يعلم — إذا رجع إلى نفسه — أن إثبات الصفة بإثبات دليلها، وإيجابها بما هو شاهد في وجودها، آكد وأبلغ في الدعوى من أن تجيء إليها فتثبتها هكذا ساذجا غفلا، وذلك أنك لا تدعي شاهد الصفة ودليلها إلا

والأمر ظاهر معروف وبحيث لا يشك فيه ولا يظن بالمخبر التجوز والغلط.

وأما الاستعارة فسبب ماترى لها من المزية والفخامة أنك إذا قلت: رأيت أسدا، كنت قد تلطفت لما أردت إثباته له من فرط الشجاعة حتى جعلتها كالشيء الذى يجب له الثبوت والحصول، وكالأمر الذى نصب له دليل يقطع بوجوده، وذلك أنه إذا كان أسدا فواجب أن تكون له تلك الشجاعة العظيمة، وكالمستحيل أو الممتنع أن يعرى عنها وإذا صرحت بالتشبيه فقلت: رأيت رجلا كالأسد كنت قد أثبتها إثبات الشيء يترجح بين أن يكون وبين ألا يكون، ولم يكن من حديث الوجوب في شيء.

وحكم التمثيل حكم الاستعارة سواء، فإنك إذا قلت: (أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى، فأوجبت له الصورة التي يقطع معها بالتحير والتردد كان أبلغ لا محالة من أن تجرى على الظاهر فتقول: قد جعلت تردد في أمرك فأنت كمن يقول: أخرج ولا أخرج، فيقدم رجلا ويؤخر أخرى)(٢).

---

(١) المصدر السابق: ٥٦، ٥٧.   (٢) المصدر السابق: ٥٧، ٥٨

واعترض الخطيب القزويني على عبد القاهر في ذلك فقال: (ولقائل أن يقول قد تقدم أن الاستعارة أصلها التشبيه، وأن الأصل في وجه الشبه أن يكون في المشبه به أتم منه في المشبه، وأظهر فقولنا: رأيت أسدا يفيد للمرء شجاعة أتم مما يفيدها قولنا: رأيت رجلا كالأسد لأن الأول يفيد شجاعة الأسد والثاني شجاعة دون شجاعة الأسد) وأجاب عن ذلك بقوله: (ويمكن أن يجاب عنه بحمل كلام الشيخ على أن السبب في كل صورة ليس هو ذلك لا أن ذلك ليس بسبب في شيء أصلا)(١). وإذا عرفنا أنّ الإمام عبد القاهر قد أورد هذا الاعتراض وأجاب عليه كما أشار إلى ذلك الدكتور محمد أبو موسى(٢) فإن إجابته هي القاطعة في بيان مراده والمغنية لنا عن النظر في إجابات الخطيب وشراحه.

قال الإمام عبد القاهر موردا الاعتراض ومجيبا: (واعلم أنه قد يهجس في نفس الإنسان شيء يظن من أجله أنه ينبغي أن يكون الحكم في المزية التي تحدث بالاستعارة أنها تحدث في المثبت دون الإثبات. وذلك أن تقول: إنا إذا نظرنا إلى الاستعارة وجدناها أينما كانت أبلغ من أجل أنها تدل على قوة الشبه، وأنه قد تناهى إلى أن صار المشبه لا يتميز عن المشبه به في المعنى الذى من أجله شبه به، وإذا كان كذلك كانت المزية الحادثة بها حادثة في الشبه، وإذا كانت حادثة في الشبه كانت في المثبت دون الإثبات. والجواب عن ذلك أن يقال: إن الاستعارة لعمرى تقتضي قوة الشبه، وكونه بحيث لا يتميز المشبه عن المشبه به، ولكن ليس ذاك سبب المزية، وذلك لأنه لو كان ذاك سبب المزية لكان ينبغي إذا جئت به صريحا فقلت: رأيت رجلا مساويا للأسد في الشجاعة، وبحيث لولا صورته لظننت أنك رأيت أسدا. وما شاكل ذلك من ضروب المبالغة أن تجد لكلامك المزية التي تجدها لقولك: رأيت أسدا، وليس يخفى على عاقل أن ذلك لا يكون) (٣).

---

(١) الإيضاح ضمن شروح التلخيص: ٢٧٧/٤

(٢) أنظر التصوير البياني: ٤٣٥ ــ ٤٣٧

(٣) دلائل الاعجاز: ٣٤٤.

وإجابة الإمام عبد القاهر هذه لا تنفي المبالغة عن هذه الأجناس، ولكنها ليست هي السبب الوحيد في أبلغيتها، وإنما تتعاضد مع ما رأى أن هذه الأجناس تحمله من التقرير، والتوكيد، والإثبات في تكوين أبلغية كل منها، وهذا أمر يحمد للإمام عبد القاهر إذ أنه لم يجعل وظيفة هذه الأجناس ومزاياها في المبالغة، وكان يجدر بمن تلاه أن يتابع هذه الفكرة، ويبحث في أسباب أبلغيتها وألا يقتصر فيها على المبالغة أو ما كان الإمام عبد القاهر يدور فيه، فكما أن الإمام اجتهد، فعلينا أن نجتهد وليس ضروريا أن يوافق اجتهادنا اجتهاد الإمام عبد القاهر الذى سن لنا في كتابيه الاجتهاد في اكتناه أسرار البلاغة والإعجاز، وعدم الاكتفاء بمتابعة السابقين.

لقد راعت بلاغة هذه الأساليب الإمام عبد القاهر فرأى أن الأمر فيها لو كان يقتصر على المبالغة لكان ينبغي في أسلوب استعارة (رأيت أسداً) مثلا إذا جئت به صريحا فقلت: رأيت رجلا مساويا للأسد في الشجاعة بحيث لولا صورته لظننت أنك رأيت أسدا وماشاكل ذلك من ضروب المبالغة أن تجد لكلامك المزية التي تجدها لقولك (رأيت أسداً)، ولقد بين أن ذلك لا يخفى على عاقل لا يكون. وحيث إن عبد القاهر يرى أن كل جنس من هذه الأجناس يصور معنى سابقا عليه، وأن ليس للفظ تأثير في المعنى إيجادا ولا زيادة، أقام هذه الصور مقام البينات التي لا دور لها إلا تأكيد المعنى وإثباته، إذ ليس لها كما يقول: (تأثير في ذات المعنى وحقيقته، بل في إيجابه والحكم به)(١).

ولقد اعترض عليه البهاء السبكي في جعل هذه الصور مقام البينات، وتعليل وجودها بالإثبات والتوكيد فقال: (ماذكره الشيخ مخالف لاتفاقهم على أن المجاز والكناية أبلغ من الحقيقة، ولو كان كما قال لما كانت الكناية والمجاز أبلغ، بل كان الأبلغ هو إثبات التشبيه وأما قوله إن التأكيد إنما هو لتأكيد التشبيه ففيه نظر، لأن تأكيد التشبيه

(١) المصدر السابق: ٥٧.

إنما يكون بما يرد على الجملة من أن واللام مثلا، والتأكيد في الاستعارة إنما وقع في لفظ مفرد والتأكيد يكون لمعناه كما أن المبالغة في قولك رحيم لتحويل صيغته من فاعل إنما كان لزيادة الرحمة لا لتأكيد إثباتها، وأما قوله: إن الكناية ليست أبلغ من التصريح في المعنى، فيمكن الذهاب إليه وأن يقال: ليس كثير الرماد يدل على كرم لا يدل عليه كثير القرى ثم كثرة القرى ليست المكنى عنه، بل المكنى عنه الكرم، وكثرة القرى من جملة الوسائط بين المكنى عنه والمكنى به، وأما قوله: إن التأكيد فيه للتشبيه فممنوع على نحو منع ماقبله، وأما قوله: تأكيد الإثبات في رأيت الأسد، فكأن مراده إثبات وقوع الرؤية على الأسد، وإلا فتأكيد الإثبات يكون في إثبات

المسند للمسند إليه فكان حقه أن يمثل بجاءني أسد،وأما تمثيله بقولك زيد والأسد سواء فقد يقال هذا المثال أخص من المدعى فإن زيداً أوالأسد سواء من قبيل التشابه المستدعى لاستواء الطرفين لا من قبيل التشبيه المستدعي لرجحان المشبه به فلا يلزم من ثبوت التساوى بين التشابه والاستعارة إن سلمناه ثبوت التساوى بين التشبيه والاستعارة مطلقا كما ادعاه بل الذى يظهر أن التشابه أبلغ من الاستعارة لأن في الاستعارة أصلا وفرعا وليس ذلك في التشابه، وأما قوله: إنه إثبات الشيء ببينة فقد يقال: إن هذا لا تحقيق له وينبغي أن يقال: ادعاء الشيء ببينة، وحينئذ يتضح، أما قولنا إثبات الشيء ببينة مع جعلنا التأكيد إنما هو للإثبات، فليس في إخباره بكثرة الرماد إثبات كثرة الرماد المستلزم للكرم)(١).

وعقب البهاء السبكي على ذلك بقوله:(وبعد أن كتبت هذا الإشكال رأيت الإمام فخر الدين وقع عليه، فحمدت الله تعالى، ثم عقبه الإمام فخر الدين باعتراض ثان، وهو أن الاستدلال بوجود اللازم على الملزوم باطل لأن الحياة لازمة للعلم، ولا يمكن الاستدلال بوجود الحياة على وجود العلم، وفيما قاله نظر، وجوابه أن المراد اللازم المساوى ولا مانع من الاستدلال به بمعنى

(١) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص: ٤/٢٧٨ — ٢٨٠.

المعرف ولهذه الشبهة قال المصنف: إن الانتقال في الكناية من الملزوم إلى اللازم)(١).

وإذا كان هذا الجدل يضعنا أمام رياح الشك التي كانت تهب على ماجعلوه من بلاغة هذه الأجناس التي آمنوا ببلاغتها، وجرى الكلام فيها مجرى الأمثال فقالوا: المجاز أبلغ من الحقيقة، والكناية أبلغ من التصريح، فأى بلاغة تبقى لها بعد ذلك ؟؟

إن هذه الرياح لم تكن لتهب على مافي هذه الأجناس من بلاغة، لو

ويشكون في شأنها، ولو اتخذوا كلاً منها منفصلاً عما تصوروه المقابل الحرفي له، إن بلاغة هذه الأجناس كما سبق أن أشرنا يكمن في التركيب اللفظي لكل منها الذى تتفاعل فيه كل لفظة بما تحمل من معانيها الكامنة فيها ـ التي لا تفتقر لدليل خارجي ـ مع التركيب الذى يتفاعل مع السياق ليحقق الوجود اللغوى، الذى يريده مبدع العمل الفني.

ولكنهم لأنهم تصوروا أن كل جنس من هذه الأجناس عبارة عن صورة لإخراج معنى سابق عليها، لذلك كانت كل بلاغة لها عندهم تعتمد على رابط يربطها بذلك المعنى، كالتوكيد والإثبات، والتوضيح، والمبالغة

وحيث إنهم كانوا يشكون في هذه الأشياء فعلينا بعدهم أن نتجاوز ما كانوا يدورون فيه. وأن ننظر إلى هذه الأجناس في ظل وجودها المستقل عن أى معادل حرفي ومقابل خارجي له، وبذلك نتجاوز فكرة إقامة هذه الأجناس مقام البينات (فقول القائل: فلان كريم أوشجاع لا يفتقر إلى دليل حتى يقال إنه كثير الرماد أوإنه كالأسد إذ ليس المقام مقام إنكار يستدعي البينات، وإنما هو مقام تصديق بما يقال بناء على التسليم بحكم اللغة، ومن لم يسلم بذلك لا يجدى معه الكلام، ولو اقترن بألف دليل لأن شأنه شأن الجاهل، باللغة ومعاني الألفاظ والكلام من حيث إنه عمل

(١) المصدر السابق: ٤/٢٨٠.

إنساني لا يصح إلا مع التسليم بالمضامين التي يشتمل عليها لأنها من قيم الثقافة التي لا تستقيم بغيرها اللغة، ومعنى الألفاظ كامن فيها لا يفتقر إلى دليل من جهة العقل، ودلالة اللفظ على المعنى ليست دلالة خارجية كدلالة الدخان على النار، والسحاب على المطر بل هي دلالة داخلية، يحملها اللفظ في طياته ولا تحتاج إلى بينات من الخارج.

ولو أخذت الدلالة من جهة المركبات، لانتفت الحاجة إلى اللزوم والانتقال)([1]).

(١) فلسفة المجاز: ١٧٣.

الفصل الثاني
المبالغة فى علم المعانى

١ ــ المبالغة في الإطناب

لقد شاع في تراثنا النقدي والبلاغي فكرة «صياغة المعنى» تلك الفكرة التي تفترض للمعنى وجودا سابقا على التلفظ به، وسنتعرض بالدراسة لهذه الفكرة في فصل لاحق من هذا البحث حيث سنتابع تطورها، وما ترتب عليها، ونتعرف على دورها الرئيسي في شيوع التعليل بالمبالغة. والذى يعنينا هنا أن فكرة وجود المعنى قبل اللفظ جعلتهم يفترضون أن لهذا المعنى حدودا ثم ينظرون بعد ذلك في الألفاظ المعبرة عنه هل جاءت موجزة أومساوية

للمعنى أو أن فيها زيادة عن المعنى المفترض سموها إطنابا أو أنها جاءت قاصرة عن أدائه. ولكن ما هو القياس الذى ساروا عليه في تحديد المعنى المفترض ؟؟

يقول السكاكي: (أما الإيجاز والإطناب فلكونهما نسبيين لا يتيسر الكلام فيهما إلا بترك التحقيق والبناء على شيء عرفي مثل جعل كلام الأوساط على مجرى متعارفهم في التأدية للمعاني فيما بينهم، ولا بد من الاعتراف بذلك مقيسا عليه ولنسمه متعارف الأوساط وأنه في باب البلاغة لا يحمد منهم ولا يذم، فالإيجاز هو أداء المقصود من الكلام بأقل من عبارات متعارف الأوساط والإطناب هو أداؤه بأكثر من عباراتهم سواء كانت القلة أو الكثرة راجعة إلى الجمل أو إلى غير الجمل)(١). ويشرح التفتازاني متعارف الأوساط (بأنه متعارف الذين ليسوا في مرتبة البلاغة ولا في غاية الفهاهة أى كلام في مجرى عرفهم في تأدية المعاني عند المعاملات والمحاورات)(٢) وقريب من هذا شرح ابن يعقوب المغربي له إذ يقول: (وهو متعارف) أى المتعامل به في عرف الأوساط من الناس وهم الذين ليسوا في غاية البلاغة ولا في غاية الفهاهة وهي العي والعجز في الكلام ويشرح (مجرى عرفهم في تأدية المعاني) بقوله: (أى عند جريانهم على عادتهم في تأدية المعاني التي تعرض لهم الحاجة إلى تأديتها في الحوادث اليومية)(٣).

(١) مفتاح العلوم: ١٢٠ (٢) مختصر السعد ضمن شروح التلخيص: ١٦٢/٣.
(٣) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ١٦٢/٣.

ومتعارف الأوساط هذا يرى خلل القياس عليه السكاكي نفسه وذلك حين يقول: (ثم إن الاختصار لكونه من الأمور النسبية يرجع في بيان دعواه إلى ما سبق تارة وإلى كون المقام خليقاً بأبسط مما ذكر تارة أخرى)(١) ويعلق الخطيب على هذا بقوله: (وفيه نظر لأن كون الشيء نسبيا لا يقتضى ألا يتيسر الكلام فيه إلا بترك التحقيق والبناء على شيء عرفي ثم البناء على متعارف الأوساط والبسط الذى يكون المقصود جديرا به رد إلى جهالة

فكيف يصلح للتعريف، والأقرب أن يقال المقبول من طرق التعبير عن المعنى هو تأدية أصل المراد بلفظ مساو له أوناقص عنه واف أوزائد عنه لفائدة)([2]).

وتجادل شراح التلخيص حول اعتراض الخطيب هل يرد على السكاكي أولا ؟؟

ولا يهمنا الآن استعراض ذلك الجدل وإنما الذى يهمنا هو أن المسألة هي رد إلى جهالة من أساسها إذ إنها ليست إلا افتراضا لا وجود له.. وإلا فما هو المعنى للكلام الذى يؤخذ من أوساط الناس الذين حددهم الشراح بأنهم هم الذي ليسوا في غاية البلاغة ولا في غاية الفهاهة مع أن الكلام الذى نحن بصدده ليس بكلامهم. ولا يمكن لنا أن نفترض الأصل المراد الذى يقول به الخطيب عندما يقول والأقرب أن يقال: المقبول من طرق التعبير هو تأدية أصل المراد بلفظ مساو له أوناقص عنه واف أوزائد عنه لفائدة) لأن المراد ليس هو إلا مدلول كلام القائل برمته.

ولكن الأصل المراد الذى افترضوه والمعنى المحدود في أذهانهم هو الذى مزق أوصال الكلام الذى أخذوا بمصطلحاتهم وتقسيمهم لأجزائه يرومون توصيله وإلحاق بعضه ببعض، فهذا حشو مفيد وذاك حشو غير مفيد، وهذا تتميم وذاك تكميل، وهذا تذييل، وذاك إيغال، وهذه زيادة المقصود منها المبالغة

(٤) مفتاح العلوم: ١٢٤.

(٢) الإيضاح ضمن شروح التلخيص: ١٦٦/٣ — ١٧٠.

وتلك زيادة المقصود منها الإيضاح، ولقد كان العمل الأدبي في غنى عن هذا التمزيق والترقيع لو أخذوه مأخذ الوحدة المتكاملة التي لا يغني بعضها عن بعض، والتي تتفاعل جزئياتها لتخلق مستوى فنيا لا يخضع للتقطيع والتوصيل ولقد كانت المبالغة مشجبا من المشاجب التي علقوا عليها هذه الزيادات التي يرونها في الإطناب، ولو بحثنا مدلول هذه المادة اللغوى الذى يعرضه لنا الفيروز ابادى فيقول: (وطنبه تطنيبا مدّ بأطنابه وشده، والذئب غوى

وبالمكان: أقام.. وأطنب الريح اشتدت في غبار، والإبل: اتبع بعضها بعضا في السير والنهر بعد ذهابه والرجل أتى بالبلاغة في الوصف مدحا كان أوذما) ([1]). لوجدنا أن من مدلولاتها الشد والتثبيت والاندفاع فهي انطلاق لقوة وليست إلحاقاً لها أوتكميلا... ومن ثم فإنهم لو أخذوا بهذا المدلول اللغوى في الدلالة الاصطلاحية لكان الإطناب انطلاقا لقوة الكلام وامتدادا ولكنهم أخذوها بأنها الزيادة على الأصل المراد لفائدة.

وإذا كان تعريف المبالغة في أول تحديد اصطلاحي لها يقول:(وهي أن يذكر الشاعر حالا من الأحوال في شعر لووقف عليها لأجزأه ذلك في الغرض الذى قصده، فلايقف حتى يزيد في معنى ماذكره من تلك الحال مايكون أبلغ في ماقصد)([2]). فهو يلتقى مع مفهوم الإطناب الذى عرضناه عند المتأخرين. ومن صور الإطناب التي جاءت عندهم للمبالغة مايلي:

ـ الإيغال :

وهو أن يأتي الشاعر بالمعنى في البيت تاما من غير أن يكون للقافية في ماذكره صنع ثم يأتي بها لحاجة الشعر فيزيد بمعناه في تجويد ماذكره من المعنى في البيت كما قال امرؤ القيس:

كأن عيونَ الوَحشِ حولَ خبَائِنا   وأرْحُلِنَا الجَزْعَ الذى لم يُثَقَّبِ

فقد أتى امرؤ القيس على التشبيه كاملا قبل القافية، وذلك أن عيون وحش شبيهة به ثم لما جاء بالقافية بها في الوصف ووكده وهو قوله:« الذى

---

(1) القاموس المحيط: أطنب.   (2) نقد الشعر: ١٤٦

لم يثقب» فإن عيون الوحش غير مثقبة وهي بالجزع الذى لم يثقب أدخل في التشبيه ([1]). وهذا هو تعريف قدامة بن جعفر له وقد أورد رأيا للأصمعي في ذلك عرضه بقوله: (ومما يدل على أن المعاني قد كانت في نفوس الناس قديما أن أبا العباس محمد بن يزيد النحوى. قال: حدثني التوزى، قال: قلت للأصمعي: من أشعر الناس؟ فقال: من أتي إلى المعنى الخسيس

فيجعله بلفظه كبيرا او إلى الكبير فيجعله بلفظه خسيسا اوينقضي كلامه قبل القافية، فإذا احتاج إليها أفاد بها معنى، قال: قلت نحو من؟ قال: نحو ذي الرمة حيث يقول:

قف العيسَ في أطلالِ ميّة فاسأل رسوما كأخلاقِ الرداءِ المسلسل

فتم كلامه قبل المسلسل ثم قال المسلسل فزاد شيئاً ثم قال:

أظن الذى يجدى عليك سؤالها دموعاً كتبديد الجمان المفصل

فتم كلامه ثم احتاج إلى القافية فقال «المفصل» فزاد شيئا، قال قلت: ونحوه من؟ قال: الأعشى حيث قال:

كناطحٍ صخرةٍ يوماً ليَفْلِقَهَا فلم يُضِرْهَا وأوهي قرنَه الوَعِلُ

فتم مثله إلى قوله «قرنه» ثم احتاج إلى القافية فقال «الوعل» مفضلا على كل ما ينطح، قال: كيف؟ قال: لأنه ينحت من قلة الجبل على قرنه فلا يضره) (٢).

ويستمر مفهوم النقاد للإيغال على هذا الفهم، إلا أن أبا هلال العسكرى يعمم التعريف ليشمل النثر فيقول: (وهو أن تستوفي معنى الكلام قبل البلوغ إلى مقطعه، ثم تأتي بالمقطع فتزيد معنى آخر يزيد به وضوحا وشرحا وتوكيدا وحسنا، وأصل الكلمة من قولهم: أوغل في الأمر إذا أبعد الذهاب فيه)(٣)، ومثّل على وجوده في النثر بقول بعض الكتاب: (نبو

(١) نقد الشعر: ١٦٨.
(٢) نقد الشعر: ١٦٩، ١٧٠.
(٣) الصناعتين: ٣٩٥

الطرف من الوزير دليل على تغير الحال عنده، ولا صبر على الجفاء ممن عود الله منه البر، وقد استدللت بإزالة الوزير إياى عن المحل الذى كان يحلنيه لتطوله على ما سوّت له ظنا بنفسي، وما أخاف عتبا لأني لم أجن ذنبا، فإن رأى الوزير أن يقومني لنفسي، ويدلني على ما يريد مني فعل) وعلق على ذلك بقوله: (فتم كلامه عند قوله يقومني) ثم جاء بالمقطع وهو قوله:

«لنفسي» فزاد معنى)(١). وبعد أن يورد عددا من الأمثلة يقول: (ويدخل أكثر هذا الباب في التتميم وإنما يسمى إيغالا إذا وقع في الفواصل والمقاطع)(٢) وعلى هذا يسير الإمام العلوى عندما يعرفه بقوله: (وهو في مصطلح علماء البيان عبارة عن الإتيان في مقطع البيت وعجزه أوفي الفقرة الواحدة بنعت لما قبله مفيد للتأكيد والزيادة فيه)(٣).

ويسير فهم الإيغال عند البلاغيين المتأخرين على هذا النحو فالخطيب يعرفه بقوله: (وأما بالإيغال ــ أى الزيادة في الإطناب ــ واختلف في معناه فقيل هو ختم البيت بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها كزيادة المبالغة في قول الخنساء:

وإنَّ صَخراً لتَأتَمّ الهداةُ بِه　　كأنَّهُ عَلَمٌ في رَأسِهِ نَارُ

وكتحقيق التشبيه في قول امرئ القيس:

كأن عيون الوحشِ حَولَ خبائِنا　　وأرْحلِنا الجَزْعَ الذى لم يُثَقَّبِ (٤)

وتحقيق التشبيه شرحه ابن يعقوب المغربي بما يفيد أنه زيادة في تحقيق التساوى على المبالغة المفهومة من التشبيه حيث يقول: (وأما تحقيق التشبيه فيرجع إلى زيادة ما يحقق التساوى بين المشبه والمشبه به حتى كأنهما شيء واحد لظهور الوجه فيهما بتمامه بسبب ذلك المزيد فصار من ظهوره فيهما كأنه حقيقتهما وما سواه عوارض من غير إشعار بكون المشبه به غاية في الوجه لعدم

(١) المصدر السابق: ٣٩٥، ٣٩٦.　　(٢) المصدر السابق: ٣٩٦
(٣) الطراز: ١٣٠/٣.
(٤) الإيضاح ضمن شروح التلخيص ٢٢٠/٣ ــ ٢٢٢.

قصد تعظيم الوجه في المشبه به ليجر ذلك إلى عظمته في المشبه)(١) وعن عدم اختصاصه بالنظم يقول الخطيب وقيل لا يختص بالنظم ومثل بقوله تعالى:

« اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ » (٢)، (٣)

ووافقه الشراح على ذلك. وممن حصره في الشعر ابن رشيق حيث يقول: (وهو ضرب من المبالغة... إلا أنه في القوافي خاصة لا يعدوها، والحاتمي وأصحابه يسمونه التبليغ، وهو تفعيل من بلوغ الغاية، وذلك يشهد بصحة ما قلته ويدل على ما رتبته)(٤).

ولقد كان مدلول الكلام الذى تحمله هذه الجزئيات مع غيرها في السياق شبحا يخيف هؤلاء المزقين لأوصال الكلام، فهم يخشون أن يفهم منها معنى لا يمكنهم الحكم بزيادته فتراهم يوردون ما يتوقعون أن يرد عليهم، ويجيبون عليه بحجج أقل ما يقال فيها أنها إعفاء لبعض جزئيات الكلام من دلالتها الفعلية، وإلحاقها بالجزء الذى يظنون أن الكلام تم عنده فمن ذلك الاعتراض الذى أورده ابن يعقوب المغربي على كون الإيغال من الإطناب وذلك حيث يقول: (وههنا أمران لا بد من التنبيه عليها أحدهما أن زيادة قوله: (الذى لم يثقب) وقوله: (في رأسه نار) لإفادة معنى كل منها على أنه وصف لما قبله كسائر النعوت التي تزاد معانيها، وليس معنى كل منها مستفادا مما قبله، فإن كان الإتيان بالنعت عند الحاجة إليه مساواة فهذان منه وإلا لزم كون النعت إطنابا إن كان لفائدة أو تطويلا إن لم يكن بل ويلزم كون سائر الفضلات كذلك. والآخر أنه على تقدير كونها ليس من المساواة فـفادهما ينبغي أن يبين وجه كونه من المعاني لا البديع فإن تحقيق التشبيه مثلا إنما يتبادر منه زيادة الحسن في معنى الكلام وطرافته فهو

(١) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص: ٢٢٢/٣ (٢) سورة يس: ٢١.
(٣) الإيضاح ضمن شروح التلخيص: ٢٢٤/٣. (٤) العمدة: ٥٧/٢

بالبديع أجدر، ويقال مثله في المبالغة في التشبية)(١) ويجيب عن الاعتراض الأول بقوله: (إن النعت وشبهه من سائر الفضلات إن أتى للمعنى الذى وضع له فقط ويكون مدرجا للأوساط من الناس كان مساواة وإن أتى به

لمقتضيات الأحوال كالمبالغة في التشبيه المناسبة في قوله في رأسه نار كان إطنابا ولا نسلم أن ما أتى به للإطناب يجب أن يكون مستفادا مما قبله بل إذا أتى بالشيء لمعناه وفيه دقة لمقام مناسبة لا يأتي به لأجلها الأوساط من الناس وإنما يتفطن له البلغاء أهل الفطنة وقُصِدَ الإتيان به لذلك كان إطنابا ولو أوجبنا في الإطناب أن يكون معناه مدلولا لما قبله خرج كثير مما أوردوه في هذا الباب عن معنى الإطناب[٢]. والإتيان بالشيء بمعناه وفيه دقة لمقام مناسبة لا يتنبه لها إلا البلغاء وأهل الفطنة وقصد الإتيان بها ينافي معنى الايغال الذى لا يأتي إلا لنكتة يتم المعنى بدونها.

ورد على الاعتراض الثاني بقوله: (والجواب عن الثاني أن مناسبة المبالغة للمقام ظاهرة لأنها زيادة في مدح المرثى، وذلك مناسبة لرثائه وزيادة التوجع عليه، وأما تحقيق التشبيه فحسن الكلام به وظرافته يناسب مقام المفاخرة والإرباء على الأتراب في الشعر والنثر ويناسب مقام إمالة النفوس لمدح الشاعر أو الناثر على شعره ونثره. فمن هذا الوجه وما يشبهه يكون من المعاني وبه يعلم أن البديعيات إذا قصد بها مناسبة الأحوال التي أوردت لأجلها عادت معاني والمعاني إذا ذهل عن تلك المناسبات فيها وأتى بها لظرافتها فقط كانت بديعيات)[٣].

ومادام يصر على إلحاقها بالمعاني وفصلها عن البديع الذى جرده المتأخرون من الدلالة الذاتية وجعلوه حلية وزينة كما هو واضح في هذا الاعتراض والرد عليه مثلا. فمن أين تأتى له الحكم بزيادة هذا المعنى ؟؟

(١) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص: ٣/٢٢٣، ٢٢٤.

(٢) المصدر السابق: ٣/٢٢٤.

(٣) المصدر السابق: ٣/٢٢٤

ذلك الحكم الذى توقف عنه البهاء السبكي في الحكم به على بيت الخنساء وبيت امرئ القيس وذلك حيث يقول عن الأول: (قلت: وفيه نظر لأن الإطناب تأدية المراد بزيادة لفظ والمراد من التشبيه بعلم قوقه نار غير المراد

من التشبيه بالعلم فقط فلم يحصل بقولها فوقه نار إطناب ولو كان هذا إطنابا لكان ذكر الصفة المُخْرِجَة في قولك أكرم رجلا عالما إطنابا إلا أن يقال لم يرد إلا مطلق الهداية وفيه بُعد...)(١) ويقول عن الثاني: (قلت: وفيه النظر السابق فإن المعنى لا يتم بدونه لأن الذى لم يثقب لم يتم المعنى بدونها لأنها مقصودة في التشبيه أويقال أريد بقوله الجزع غير المثقب فيكون قسما من الإيضاح بعد الإبهام لاقسيما، ثم نقول: ليس إيضاحا بعد إبهام لأن الايضاح بعد الإبهام أن يقصد الإبهام أولا يقصد ثم يقصد الإيضاح لغرض الإبراز في صورتين وهذا أريد بالجزع فيه غير المثقب ثم اقتصر عليه فكان إيجازا فلما قال لم يثقب صار مساواة)(٢) وما جدلهم في ذلك إلا لأن القياس الذى قاسوا عليه هذه الحدود الثلاثة المساواة والإيجاز والإطناب غير واضح وغير محدد؟ ثم إن دلالات الكلام التي تشع من جميع جزئيات السياق تأبى أن تنحصر في جزئية وتكون البقية الباقية إلحاقا لها. فتارة يجذبهم هذا الإشعاع إلى نفي الإيغال أوالإطناب وتارة يجذبهم تحديدهم المساواة بأنها (متعارف أوساط الناس الذين لا يطلب منهم رعاية مقتضيات الأحوال من اللطائف والاعتبارات)(٣) إلى الحكم في الكلام الذى آمنوا بإعجازه بأن فيه إطنابا وإيغالا ففي قوله تعالى:

« وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ * ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ » (٤)

قالوا: (المقصود حث السامعين على الاتباع ففي وصفهم بالثاني زيادة مبالغة

(١) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص ٣/٣٢١.
(٢) عروسي الأفراح ضمن شروح التلخيص: ٣/٢٢٣، ٢٢٤.
(٣) شروح التلخيص: ٣/١٦٢.
(٤) سورة يس: ٢٠، ٢١.

على اتباع الناس لهم من ذكر كونهم مرسلين)(١) ويقول ابن يعقوب المغربي فيها: فقوله: (وهم مهتدون) مما يتم المعنى بدونه للعلم والقطع بأن

الرسل المأمور باتباعهم مهتدون ولكن فيه زيادة حث على الاتباع وزيادة ترغيب في الرسل من جهة التصريح بوصف هداهم فإن التصريح بالوصف المقتضى للاتباع فيه مزيد التأثير على ذكره ضمنا وزيادة الحث على الاتباع لا تخفى مناسبته بل نقول: إن قوله: (اتبعوا من لا يسألكم أجرا) من هذا المعنى للعلم بأن الرسول لا يسأل أجرا فيكون إطنابا لنكتة الحث المذكور) فيالها من معرفة بأسرار لغة وإعجاز القرآن الكريم تفصل قوله تعالى: (وهم مهتدون) عن سياق الآية، بل تفصل الآية بكاملها وتجعل قوله تعالى: (اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون) من قبل الإطناب ؟؟

وإذا كان السبكي قد أخرج بيت الخنساء من الإيغال كما سبق أن رأينا، فإن دلالات الكلام قد أبت عليه إلا أن يؤمن بها، وحقا ما قال فإن «فوقه نار» تعطى للكلام دلالة أقل ما يقال فيها إيحاؤها بدلالة الخير والكرم التي لا تنفك الخنساء عن وصف أخيها بها، ومعروفة عادات العرب في الكرم حيث يشبون النار في الأماكن المرتفعة ليراها السائرون ويأتون لمواطن القرى.. فالنار مرتبطة بالكرم... ثم إن المتأمل لشعر الخنساء يرى فيه الإلحاح على وصف أخيها بالإشراق والضياء.. ولربما كان ذلك لقداسة النور عند العرب الذى ينبعث من معظم مقدساتهم التي كانوا يقدسونها (النار ـــ الشمس ـــ القمر) فهي تقول فيه:

جَهمُ المُحيّا تضيء الليلَ صورتُه آباؤه من طوال السَّمْك أحرارُ(٢)

تقول أيضا:

جَمٌّ فواضله، تندى أنامِلُه كالبدر يجلو ولا يخفى على السارى(٣)

(١) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص: ٢٢٤/٣.

(٢) ديوان الخنساء: ٥٠ (٣) المصدر السابق: ٧٥.

ومما يدل على ربطها وجه أخيها بالشمس لما يرون فيها من قداسة قولها:

أبيضُ أبلجُ وجهُهُ كالشمس فى خير البَشَر(١)

ثم إن صخرا أصبح عندها رمزا للفضائل التي أشرقت بها الدنيا في حياته ثم لما مات عادت الدنيا عندها غامضة مظلمة:

واذكره إذا ما الأرض أمست   هجولا لم تلمع بالوميض

وبعد هذا يحق لنا أن نقول: إنَّ صخرا لا يستمد من العَلَم وضوحه فقط بل يستمد أيضا علوه.. وقداسته.. وخيره.. وإذا كان الأمر كذلك كانت (فوق رأسه نار)، ذات دلالة عميقة في البيت يفترض فيها أن تعرج بالناقد على البحث عن دلالة النار عند العرب، وارتباطها بالضياء.. والبحث عن السر في وصف العظماء بالإشراق وربطهم بالكواكب والشمس والقمر بدلا من أن نعفي الكلمة من دلالتها ونقول: إن المعنى تم بدونها أو أن المعنى الذى أضافته لا يقصد به إلا المبالغة في إيضاح القصد من التشبيه فهم يعتبرون تشبيهه بالعلم يكفي لوضوح العلم والاهتداء إليه ثم جاءت «فوق رأسه نار» فبالغت في ذلك أشد مبالغة. ولكن القوم كان يحجمهم عن البحث في مدلول الكلام فكرة المعنى المقصود، أو المعنى الأصلي المفترض، فإذا تم ما افترضوه كان باقى الكلام إطنابا، وانساق القوم وراء هذا الافتراض، ومزقوا أوصال الكلام ووضعوا مصطلحات لتسميتها حسب درجتها في إفادة المعنى المقصود... وليتهم اقتصروا في هذا التمزيق على كلام البشر، ولم يتجاوزوا ذلك إلى الكتاب الكريم... إن افتراضهم للمعنى جعلهم يؤمنون بصحة تقسيماتهم ولم يبالوا بتطبيقها على الآيات، بل هم يجدون ذلك فخرا للقرآن لأن ذلك موجود في كلام العرب، والقرآن نزل بلغة العرب وعليه فإن تلك التسميات توجد في القرآن. فن ذلك حكم بعضهم على قوله تعالى: (وهم مهتدون) في قوله تعالى:

---

(١) المصدر السابق: ٦٣.

« وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ »

اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ » (١)

بالإيغال بل إن بعضهم جعل الآية الثانية بكاملها وهي قوله تعالى: **(اتبعوا من لم يسألكم أجرا وهم مهتدون)** من قبيل الإطناب وهؤلاء يكفينا في الرد عليهم خمس عشرة آية في كتاب الله تنفي عن الرسل سؤالهم الأجر من أحد إلا من الله سبحانه وتعالى منها قوله تعالى:

« قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ » (٢)

وقوله تعالى:

« أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ » (٣).

وقوله تعالى على لسان رسل عدة في سورة الشعراء:

« وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ » (٤)،

أما قوله تعالى «وهم مهتدون» الذى عده بعضهم كما أسلفنا من قبيل الإيغال، فإنا نقول لهم: من أين لكم الحكم بتمام المعنى قبل هذه الفقرة من الآية؟؟ وهل كنتم على علم بأن المعنى يقتصر على جزئيات من الآية تم دون هذه الفقرة؟؟ ومهما كانت الإجابة فإنها لا تعدو أن تكون قائمة على فرض لا يمكن أن يوجد الدليل على صحته.

وإذا كانت الآية قد وصفت الرسل بالاهتداء فإن الهداية هي محور رسالة الرسل قال تعالى:

---

(١) سورة يس: ٢٩، ٢١

(٢) سورة الشورى: ٢٣.

(٢) سورة الطور: ٤٠.

(٤) سورة الشعراء الآيات: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠.

« هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق » (١)

وقال تعالى :

« شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ » (٢)

وقال تعالى :

« الٓمٓ * ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ » (٣)

ولقد كان الصراع بين الحق والباطل في بعض مظاهره صراع حول الطريق الذي يظن أنه الهداية قال تعالى :

« فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ » (٤)

لذلك جاء الآيات تبين اختصاصه سبحانه وتعالى للهداية التي سمى دلالة الرسل وأوليائه عليها وتبيينهم طريقها هداية فمع أنه سبحانه وتعالى يقول :

---

(١) سورة الفتح ٢٨ وسورة الصف : ٩
(٢) سورة البقرة : ١٨٥ .
(٣) سورة آل عمران : ١ ــ ٤
(٤) سورة الاعراف : ٣٠ .

« إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ » (١).

ويقول أيضاً :

« مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا » (٢)

يقول عن رسوله صلى الله عليه وسلم :

« وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ » (٣)

ويقول: (وممن خلقنا أمةٌ يهدون بالحق وبه يعدلون). (٤)

وجاءت الآيات أيضا تنفي الهدى عن الضالين الذين يحسبون أنهم مهتدون قال تعالى :

« أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ » (٥)

وقال جل وعز :

« قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ » (٦)

وقال سبحانه :

« وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ » (٧)

وجاءت كذلك تصف رسله وعباده وأولياءه بالهداية والذين ظن الكافرون

---

(١) سورة القصص : ٥٦
(٢) سورة الكهف : ١٧
(٣) سورة الشورى : ٥٢
(٤) سورة الأعراف : ١٨
(٥) سورة البقرة : ١٦
(٦) سورة الأنعام : ١٤٠
(٧) سورة يونس : ٤٥

والذين في قلوبهم مرض أنهم ضالون ومن هذه الآيات قوله تعالى :

« ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ » (١)

وقوله تعالى :

« أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ » (٢)

ومثل هذه الآية التي نحن بصددها والتي جاءت في موقف جدل بين رجل مؤمن وقوم مكذبين معاندين ... رجل اعتقد أن الرسل مهتدون فأتبعهم وحاج قومه بذلك، أولئك القوم الذين كذبوا الرسل وتطيروا بهم .

٢ ـ التتميم :

وهو صورة من صور الزيادات التي تصوروها عن المعنى المراد، ولعلك تلاحظ في هذه التسمية الدلالة على اقتطاع الجزئية التي ينطبق عليها هذا المصطلح عندهم، ثم إلحاقها بعد إيجاد شرعية لها في الكلام باسم التتميم... ولقد كان التتميم عند بعضهم يهدف إلى المبالغة في الكلام في بعض الأحيان... وما ذلك إلا لأنه في نظرهم صلة ملحقة بالكلام تصوروا انفصاله عن معنى الكلام ولذلك أخذوا يوجدون الشرعية لوجوده تلك الشرعية التي تتخذ مبررا من المبالغة... أو الاحتراس... أو الصيانة عن الخطأ كما سنرى .

وقد كانت بداية الدلالة الاصطلاحية له عند قدامة بن جعفر الذى عرفه بقوله : (وهو أن يذكر الشاعر المعنى فلا يدع من الأحوال التي تتم بها صحته وتكمل معها جودته شيئا إلا أتى به)(٣). وذكر له عدة أمثلة تختلط بالحشو والتكميل عند بعضهم .

---

(١) سورة الأنعام : ٨٢ (٢) سورة البقرة : ١٥٧
(٣) نقد الشعر : ١٤٤

وأما أبو هلال العسكرى فقد ذكره مع التتميم وعرفها تعريفا واحدا بقوله: (وهو أن توفي المعنى حظه من الجودة، وتعطيه نصيبه من الصحة، ثم لاتغادر معنى يكون فيه تمامه إلا تورده أولفظا يكون فيه توكيده إلا ذكره)(1).

أما ابن رشيق فقد قال عنه: (وهو التمام أيضا، و بعضهم يسمى ضربا منه احتراسا واحتياطا، ومعنى التتميم: أن يحاول الشاعر معنى، فلا يدع شيئا يتم به حسنه إلا أورده وأتى به)(2). ثم ذكر أسباب الإتيان به وأنه يأتي (إما مبالغة وإما احتياطا أواحتراسا من التقصير وذكر من التتميم الذى جاء للمبالغة قول زهير:

مَنْ يَلْقَ يوماً على علاتِهِ هَرِما   يَلقَ السماحةَ منه والندى خُلقَا

وعلق عليه بقوله: (على علاته ــ مبالغة وتتميم عجيب).

ثم قال والأصل في هذا قول الله عز وجل:

« وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا » (3)

قوله: (على حبه) هو التتميم والمبالغة في قول من قال: إن الهاء ضمير الطعام، وإن كان كناية عن الله تعالى خرج المعنى عن هذا الباب (4).

أما الإمام العلوى فيقول عنه: (وهو تفعيل من قولهم: تممه إذا أكمله، وهو في مصطلح علماء البيان عبارة عن تقييد بفضلة لقصد المبالغة، أوللصيانة عن احتمال الخطأ أولتقويم الوزن فهذا تقرير معناه في مراد علماء البلاغة، ثم يرد على أوجه ثلاثة إما للمبالغة، وإما للصيانة، وإما لإقامة الزنه على حد ما ذكرناه في شرح ماهيته ويقول عن القصد الأول (أن

---

(1) الصناعتين: ٤٠٤.

(2) العمدة: ٢/ ٥٠.

(3) سورة الإنسان: ٨

(4) العمدة: ٢/ ٥٠، ٥١.

يكون واردا على جهة المبالغة بأن تكون الفائدة في تلك الفضلة أينما هي المبالغة لا غير ومثاله قول زهير:

من يلق يوما على علاته هرما يلق السماحة منه والندى خلقا

فقوله (على علاته) تتميم للمبالغة، فوقعت في غاية الحسن والرشاقة كما ترى، والمراد بقوله (على علاته) أى على حالاته وقوله يمدح هرما أيضا:

* إن الكريم على علاته هرم *

فهذه اللفظة حصل من أجلها مبالغة في المدح لاتخفى)(١)، وقد فرق بينه وبين التكميل الذى عرفه بقوله (وهو افعال، من أكمل الشيء إذا حصله على حالة لا زيادة عليها في تمامه، وهو في مصطلح علماء البيان مقول على أن تذكر شيئا من أفانين الكلام، فترى في إفادته المدح كأنه ناقص لكونه موهما بعيب من جهة دلالة مفهومه فتأتي بجملة فتكمله بها تكون رافعة لذلك العيب المتوهم)(٢). وضرب له أمثلة منها قول كعب بن سعد الغنوى:

حليم إذا ما الحلم زين أهله مع الحلم في عين العدو مَهيبُ

وقال عن التفرقة بينه وبين التتميم: (والتفرقة بين الإكمال والتتميم ظاهرة مع كونهما مشتركين في أنهما إنما زيدا من أجل رفع الوهم عن تخيل ما يحط من المدح ويسقطه، وحاصلها من جهة اللفظ ومن جهة المعنى: أما من جهة اللفظ فهو أن التتميم إنما يقال في شيء نقص ثم تمم بغيره، بخلاف الإكمال، فإنه تام لا ينتقص منه شيء خلا أنه أكمل بغيره، فصار الأول بالزيادة تاما وصار الثانى بالزيادة كاملا، وأما من جهة المعنى فهو أن التتميم إنما يذكر من أجل رفع احتمال متوهم، فلهذا افترقا، فالإتمام

(١) الطراز: ١٠٤/٣ (٢) المصدر السابق: ١٠٨/٣، ١٠٩.

يرفع الخطأ مما ليس ذما، والإكمال يرفع الذم المتوهم إذا لم يذكر، فهذا تقرير ما يمكن من التفرقة بينها)(١).

أما القزويني فقد فرق بين التتميم والتكميل وعرف التتميم بقوله: (وهو أن يؤتى في كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضله تفيد نكتة كالمبالغة في قوله تعالى:

« وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا » (٢)

والضمير للطعام أى مع اشتهائه والحاجة إليه ونحوه:

« وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ » (٣)

وكـذا:

« لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ » (٤)

وعن الفضيل بن عياض: على حب الله فلا يكون مما نحن فيه وفي قول الشاعر:

إني على ما ترين من كبري   أعرف من أين تؤكل الكتف

وفي قول زهير:

من يلق يوما على علاته هرما   يلق السماحة منه والندى خلقا(٥)

وقال عن التكميل: (ويسمى بالاحتراس أيضا، وهو أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه ومثل له بقول طرفة:

فسقى ديارك غير مفسدها   صوب الربيع وديمة تهمى

---

(١) المصدر السابق: ٣/١١٠، ١١١.
(٢) سورة الإنسان: ٨.
(٣) سورة البقرة: ١٧٧
(٤) سورة آل عمران: ٩٣.
(٥) الإيضاح ضمن شروح التلخيص: ٣/٢٣٥، ٢٣٦.

وقول الآخر :

لو أن عزّة خاصمت شمسَ الضحى في الحسنِ عند موفق لقضى لها

وقول ابن المعتز:

صببنا عليها ظالمين سياطَنا فطارتْ بها أيدٍ سراعٌ وأرجلُ

وبقوله تعالى :

« فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ » (١)، (٢).

ولا يهمنا الآن هذا التفريق بينهما وكون الأمثلة يتناوبها الوصفان في مسيرة تراثنا النقدى والبلاغي وإنما الذى يهمنا الآن هل ما ارتأوه من تمام أصل المعنى دون هذه الزيادة التي تسمى بالتكميل حينا وبالتتميم حينا آخر. أمر مسلم لهم ؟؟

ولننظر الآن لنرى كيف ناقش القوم القضية، وهل كان لهم رأى استقروا عليه ؟!

والمتأمل لنقاشهم واعتراضاتهم يرى فصلهم بين شيئين يجب أن يكونا شيئا واحدا إذ فصلوا بين قصد المتكلم والمراد من الكلام، ونلحظ ذلك في المناقشات التي دارت حول قول الخطيب السابق، فالفضلة يبين لنا ابن يعقوب المغربى أن المقصود بها هنا الفضلة النحوية التي لا تكون ركنا في الكلام وذلك حيث يقول شارحا لها: (وهو ماليس أحد المسندين من الفضلات المعلومة كالمفعول والحال والمجرور والتمييز، وليس المراد ما يتم أصل المعنى بدونه حتى تدخل الجملة الزائدة على أصل المراد كما قيل) ويعلل بأن ذلك ليس المراد لسببين أحدهما: أن كون الشيء مما يتم أصل المعنى

(١ ، ٢) سورة المائدة : ٥٤ الإيضاح ضمن شروح التلخيص: ٢٣١ ، ٢٣٣ .

(٣) مواهب الفتاح: ٢٣٥/٣

بدونه ونعني متعارف الأوساط لا يختص اشتراطه بالتتميم فتى كان هو المراد بالفضلة كانت مستدركة لأن كلام الإطناب كله أتي فيه بفضله بهذا الاعتبار)([1]). وأما السبب الثاني فقد جاء توجيها وتبريرا لصنيع الخطيب لأنه جعل من التتميم قوله تعالى: (**لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون**) إذ يقول دفاعا عنه: (فقوله: مما تحبون ليس فضلة بهذا الاعتبار. لأن الإنفاق مما يحبون الذى هو المقصود بالحصر لا يتم أصل المراد بدونه إذ لا يصح أن يقال حيث أريد هذا المعنى حتى تنفقوا فقط دون مما تحبون فتعين أن مراده بالفضلة بعض هذه الفضلات ولا شك أن مما تحبون بعضها لأنه مجرور)([2]) ولقد شعر ابن يعقوب بالمأزق الذى وقع فيه وذلك لأنه إذا كان موافقا كما أسلفنا على أن التتميم هو من ضمن ما يتم أصل المعنى بدونه كبقية أقسام الإطناب فكيف تكون هذه الآية منه بعد أن بين لنا أن (مما تحبون) لا يتم أصل المراد بدونه ؟؟ ولذلك قال: (ولكن هذا الوجه لا يخلو عن بحث لأنه إذا لم يجعل مما تحبون مما يتم أصل المعنى بدونه لم يكن إطنابا أصلا فيكون التمثيل به فاسداً من أصله فلا يستشهد به)([3]).

ولكن صاحبنا عز عليه أن يخطئ وصاحبه، ويزعزع ثقته في أقسام الكلام التي افترضوها وهي الإيجاز، والإطناب، والمساواة، فهو إذ يبين أن الإطناب لا يصح في هذه الآية إلا عن طريق الادعاء بأن أصل المعنى حتى تنفقوا كما يتضح من قوله: (فيجب حيث جعل اطنابا أن يدعى أن أصل المعنى حتى تنفقوا أى يقع منكم إنفاق)([4]). فهو من هذا يلتمس وجها تصح معه زيادة «مما تحبون» غير مبال بمقصود الكلام واحتياجه إليها حيث يقول: (وزيادة مما تحبون ولو كان باعتبار القصد محتاجا إليه لا تكون من المساواة لأن ما زيد لأجله من النكتة لا يدركها الأوساط وقد تقدم أن ذلك هو مناط الإطناب، وإنما قلنا إن المقصود به أمر لا يدركه ويراعيه إلا البلغاء

---

(1) المصدر السابق: ٣/٢٣٥.

(2) المصدر السابق: ٣/٢٣٥

(3) المصدر السابق: ٣/٢٣٥.

(4) المصدر السابق: ٣/٢٣٥.

لأن فيه الإشارة إلى أن نيل البر لا يكون إلا بغلبة النفس، وتحميلها المشاق بالإنفاق من المحبوب المشتهى بخلاف مطلق الإنفاق ولو كان فيه أجر لا يبلغ هذا المعنى)[1] وبعد ذلك يقرر هذه الحقيقة القائمة على فصل المعنى الأصلي عن مقصود الكلام ومراد المتكلم حيث يقول: (وبه يعلم أن كون الشيء مقصودا في الكلام بحيث لا يتم المراد من حيث إنه مراد للمتكلم إلا به لا ينافي كونه إطنابا)[2] ولقد كان الفصل بينها أمرا واضحا في مسألة الإطناب وذلك حيث تبين لنا أن عندهم في الإطناب مستويين للكلام. المستوى الأول هو المعنى الأصلي وهو متعارف الأوساط أو القصد الذى يرومونه هم من الكلام. والمستوى الثاني وهو النكتة التي جاء الإطناب لأجلها وهي الأمر الذى لا يدركه ولا يراعيه إلا البلغاء.

ولم يكن البهاء السبكي بأسعد حظا من ابن يعقوب المغربي في حل هذا الإشكال القائم على تقسيم الكلام البليغ وتمزيقه بل إن هذا الأخير يظهر لديه عدم استقرار هذه المصطلحات والتسميات فبعد أن شرح قول الخطيب بقوله (التتميم أن يؤتى في كلام لا يوهم غير المراد بفضله تفيد نكتة كالمبالغة في نحو قوله سبحانه وتعالى: (**ويطعمون الطعام على حبه**) في وجه أى مع حبه والضمير للطعام أى مع اشتهائه وكذلك (**وآتى المال على حبه**) وقيل المراد على حب الله فلا يكون مما نحن فيه لأن الإطعام على حب الله ليس أبلغ من الإطعام لا بهذا القيد)[3] ثم يضيف قائلا: (قلت: فيه نظر أن أحدهما أن يقال إن على حبه يفيد فائدة زائدة وهي الإطعام مع الحب فإما أن يقال ليس هذا مبالغة بل تضمن فائدة جديدة لأن مطلق الإطعام لم يفده بهذا القيد إلا أن يجاب بأن إفادته إفادة جديدة لا ينافي أنه إطناب لما قبله. وأما أن يقال مطلق الإطعام يحتمل أن يكون مع حبه أولا فهو يوهم ألا يكون مع الحب وهذا احتمال مساو والوهم يحصل بالمساوى بل

---

(١) المصدر السابق: ٣/٢٣٥ و ٢٣٦. (٢) المصدر السابق: ٣/٢٣٦.

(٣) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص: ٣/٢٣٥، ٢٣٦.

بالمرجوح وحينئذ فيكون من قسم التكميل وليت شعري أي فرق في اللغة بين التكميل والتتميم. والثاني (أن هذا قريب من الإيغال أوهو هو على أنه يمكن أن يقال فرق بين التكميل والتتميم لغة فالتكميل استيعاب الأجزاء التي لاتوجد الماهية المركبة إلا بها، والتتميم قد يكون بما وراء الأجزاء من زيادات يتأكد بها ذلك الشيء الكامل ويستأنس لذلك بقوله تعالى:

« تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ » (١)

أي لم تنقص أجزاؤها وقوله:

« وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ » (٢)

روى إتمامها أن تحرم من دويرة أهلك وهو وصف فيه زيادة على الأجزاء فإن ماهيتي الحج والعمرة توجدان دونه وقد جمع بينهما في قوله تعالى:

« الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي » (٣)

لما كانت أركان الدين وجد منها الجزء الأخير إذ ذاك استعمل فيه لفظ الكمال، ولما كانت نعم الله حاصلة للمؤمنين قبل ذلك اليوم غير ناقصة استعمل فيها الإتمام لأنه زيادة على نعم الله التي كانت قبل ذلك كاملة فإن تم هذا ظهر وجه تسمية الأول بالتكميل لأنه يدفع إيهام غير المراد وذلك كالجزء من المراد لأن الكلام إذا أوهم خلاف المراد كان كالذى دلالته ناقصة بخلاف التتميم (٤). وهذان النظران يجلوان ويؤكدان أمورا عدة:

الأول: أن هناك مفهوما للمبالغة يجعلها غير أصيلة، وفائدتها زائدة ولا دخل لها في الأصل المراد، ويدل على ذلك أيضا اتفاقهم على أن (على حبه) ليس فيه مبالغة إذا كان الضمير يعود إلى لفظ الجلالة (الله).

---

(١) سورة البقرة: ١٩٦ (٢) سورة المائدة: ٣.

(٣) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص: ٢٣٦/٣، ٢٣٧.

الثاني: أن هناك فصلا بين جزئيات الكلام فهناك فائدة للجزئية الأولى **(ويطعمون الطعام)** وهناك فائدة أخرى للجزئية الثانية **(على حبه)** وقد كانوا في غنى عن هذا النقاش لو أخذوا هذه الآية في سياق الآيات بل في سياق الآية نفسها على الأقل.

الثالث: الشك في مصطلحاتهم، وإيراد الاعتراضات عليها مما يبين لنا زعزعة تلك الاصطلحات التي ناقشوها، ذلك الأمر الذى نأخذ منه أن علينا أن نناقش أيضا ونخالف فيما بدا لنا أنه وجه الحق.

ولقد انساق القوم وراء مصطلحاتهم التي فرضوها بناء على أن لكل كلام معنى أصليا بغض النظر عن دلالة منطوقه لأن هذه الدلالة قد تقل عن المعنى فتسمى إيجازا أوتساويه فتكون مساواة أوتزيد عنه فتكون إطنابا وتطويلا.... وما أسهل الفرض وما أصعب تحقيقه، وعندما جاءوا عند التحقيق في مناقشة وتطبيق هذه المصطلحات الفرعية على الكلام اضطرهم ذلك إلى المحاورة ومحاولة سد الثغرات كما سبق أن رأينا بكل ما يملكون من قوة في الجدل. ولم يبال بعضهم في سبيل الانسياق وراء هذا الافتراض أن يجدد في كلام الله تعالى الكلام الأصلى الذى يكفي في نظره بناء علم فرضه فهذا الدسوقي يقول في قوله تعالى:

«وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا» (١)

والحاصل أن القصد من الآية مجرد مدح الأبرار بالسخاء والكرم ولاشك أن هذا يكفي فيه مجرد الإخبار عنهم يطعمون الطعام سواء كانوا يحبونه أولا ولايتوقف ذلك على بيان كون الطعام محبوبا لهم وحينئذ فقوله **(على حبه)** إطناب نكتته إفادة المبالغة في المدح (٢). وأبسط مانقوله هنا إن حصر الآية في هذا القصد دعوى تدل الآية على كذبها إذ أن القصد من الآية يجب أن

---

(١) سورة الإنسان: ٨

(٢) حاشية الدسوقي على شرح السعد: ٢٣٧/٣.

نأخذه من عمومها كما سنبين ذلك إن شاء الله. ثم إن هذا القصد الذى حدده والكفاية التي رأى أنها كافية نقضها بقوله في شرح ما إذا كان الضمير لله: (أى لأجل حب الله لا لرياء ولا سمعة وإن كان حبهم للطعام حاصلا على ذلك الوجه لأن الشأن حبه لكنه غير ملحوظ)(١) إذ وافقهم على أن الجار والمجرور على هذا الوجه لتأدية الأصل المراد وهو هنا عند الدسوقي (مدحهم بالسخاء والكرم لأن الإنسان لا يمدح شرعا إلا على فعل لأجل الله، وإذا كان الجار والمجرور على هذا الوجه لتأدية أصل المراد كان مساواة)(٢) وإذا كان المعنى الأصلي عنده على كلا الوجهين واحد لم يتغير.. فلماذا يعتبر الجر والمجرور في الوجه الثاني من الأصل المراد؟؟ ولقد أحس الدسوقي بهذا الإشكال فعرض لنا رأيا يقول: (وقد يقال هذا يقتضي أن إطعام الطعام إذا لم يقصد به وجه الله بأن كان /حيلة وغفل عن قصد الرياء وقصد وجه الله لا يكون ممدوحا شرعا مع أنه ممدوح شرعا لأنه يثاب على ذلك لأن نية التقرب لا تشترط في حصول الثواب إلا في الترك لا في الفعل وحينئذ فما قال الشارح لا يتم)(٣) أى ما قاله السعد من أنه إن جعل الضمير لله أى يطعمونه على حب الله فهو لتأدية أصل المراد(٤)، وإلى مثل هذا أشار ابن يعقوب المغربي بقوله: (هذا إذا روعي المدح الكائن بالنظر إلى أهل الدنيا بل يقال فيه نكتة مطلقا لأن إطعامه حيث وجدت الغفلة بأن لم يقصد الرياء ولا محبة الله تعالى مما يمدح به شرعا لما قيل من أن الكرم الطبيعي مما يترتب عليه الثواب ولو بلا نية فتأمله)(٥). فانظر إلى أى حد طغى الجدل القائم على فكرة المعنى الأصلي في تجريد الكلام من دلالاته.

ولقد كان ابن أبي الأصبع المصرى على حق عندما أبرز لهذه القضية

---

(١) المصدر السابق: ٢٣٧/٣

(٢) المصدر السابق: ٢٣٧/٣.

(٣) المصدر السابق: ٢٣٧/٣

(٤) مختصر السعد ضمن شروح التلخيص: ٢٣٧/٣.

(٥) مواهب الفتاح: ٢٣٧/٣.

مكانها في المعنى وأن المعنى لا يتم بدونها وذلك عندما قال معرفا للتتميم بأنه (أن تأتي في الكلام كلمة إذا طرحت من الكلام نقص معناه في ذاته، أو في صفاته، ولفظه تام، وإن كان في الموزون نقص وزنه مع نقص معناه، فيكون الإتيان بها لتتميم الوزن والمعنى معا)[١] ولكنه جعل نقص المعنى دون التتميم في مقابلة تمام المعنى بغير التكميل فقال: (ولا يخلو إما أن يرد على معنى تام في ذاته أو في صفاته أولا، فان كان الأول فهو التكميل، وإن كان الثاني فهو التتميم). ثم قال: (وقد غلط أكثر المؤلفين في هذا الموضع ولم يفرقوا بين التتميم والتكميل فمثال قوله تعالى:

«مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً»[٢]

فقوله: (من ذكر أو أنثى) تتميم: وقوله تعالى: (وهو مؤمن) تتميم ثان. وبهذين التتميمين تم معنى الكلام، وجرى على الصحة، وإلا فهو بدونها ناقص)[٣]. والتتميم عنده ثلاثة أقسام هي: تتميم النقص، وتتميم الاحتياط وتتميم المبالغة. وعموم التتميم عنده للنقص، ولكنه كما ترى جعل منه قسما لتتميم النقص، والذى يغلب على الظن أنه يريد بذلك القسم مالا تظهر فيه وظيفة التتميم في الاحتياط أو المبالغة، لأنه عرف التتميم كما سبق أن ذكرنا بأنه الكلمة التي إذا طرحت نقص معناه في ذاته أو في صفاته وجعل هذا النقص فرقا بينه وبين التكميل. وذكر أيضا قسم المبالغة وجعله متمما للنقص وذلك حيث يقول في قوله تعالى: (له من كل الثمرات) من قوله تعالى:

«أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ»[٤]

---

(١) بديع القرآن: ٤٥، ٤٦
(٢) سورة النحل: ٩٧.
(٣) بديع القرآن: ٤٦
(٤) سورة البقرة: ٢٦٦.

(.. ثم علم عز وجل أن الجنة لو جمعت إلى النخيل والأعناب كل الثمرات كان وصفها أتم، ونفعها أعظم. والأسف على فسادها أشد فقال متمما هذا النقص تتميم مبالغة **(له فيها من كل الثمرات)** وأما قوله تعالى: **(ويطعمون الطعام على حبه)** فلقد آثر أن يسير فيه على طريق الخطيب في تتميم المعنى بدون الجار والمجرور فيما إذا كان الضمير للطعام، ولذلك جعلها من باب التكميل الذى يرد على المعنى التام في ذاته وصفاته.. وأخرجها من باب التتميم لأن التتميم عنده إذا سقط لم يتم المعنى... فبذلك وافقه على تمام المعنى في الآية دون الجار والمجرور ووافق نفسه بالمخالفة في الاصطلاح فجعل الآية من باب التكميل. ولقد كانت نظرته إلى التتميم بأنه من تمام المعنى داعية له إلى أن يجعل الجار والمجرور فيما إذا كان الضمير لله سبحانه وتعالى من التتميم فيوافق بذلك الخطيب الذى أخرجه في هذه الحالة من هذا الباب لأن التتميم عند الخطيب هو ما يتم المعنى بدونه كما سبق بيانه.

يقول ابن أبي الأصبع: (ومن التكميل من هذا الباب قوله تعالى: **(ويطعمون الطعام على حبه)** فإن قوله سبحانه: **(على حبه)** تكميل لحسن هذا المعنى إن كمان الضمير في **(حبه)** عائدا على الطعام، وإن كان عائدا على الله سبحانه فهو تتميم احتياط)(١).

وبعد استعراض هذا الجدل الذى يقسم الكلام إلى جزئيات نقول: إنه يجب أن تؤخذ الآية بعموم ألفاظها، وأن يكون المعنى هو مدلول ألفاظها جميعا لا معنى مفترض تؤديه بعض الألفاظ ويخرج باقيها إلى أبواب مصطلحاتهم التي يصطرعون حولها، وحول إدخال الكلام في هذا المصطلح أو ذاك.

وقبل أن نناقش أصالة **(على حبه)** نرجح أن يكون الضمير راجعا إلى

---

(١) بديع القرآن: ٦٨

الطعام وقد قال بذلك ابن عباس ومجاهد واختاره أبو حيان (١)، وعرض لنا الألوسي رأيا يرجح ذلك على رأى الفضيل بن عياض وأبي سليمان الداراني اللذين يريان أن الضمير لله حيث قال: (وزيّفه بعضهم وقال الأول هو الوجه ويجاوبه القرآن على أن في قوله تعالى لوجه الله بعد غنية عن قوله سبحانه لوجه الله، وفيه نظر بل لعله الأنسب بذاك (٢).

ثم إن هذا الوجه المختار يرجحه من القرآن الكريم في قوله تعالى:

« لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ » (٣)

وقوله تعالى:

« وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ » (٤)

وقوله تعالى:

« إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ » (٥)

وأما أصالة هذه الفضلة النحوية (الجار والمجرور) فهو أمر يحتمه علينا أمور عدة:

١ــ لا دليل على تمام المعنى من غير الجار والمجرور لأن هذه الآية يذكر لنا

---

(١) البحر المحيط: ٣٩٥/٨.

(٢) روح المعاني: ١٥٥/٢٩

(٣) سورة آل عمران: آية ٩٢.

(٤) سورة البقرة: آية ١٧٧

(٥) سورة العاديات: ٦ ـ ٨.

الله سبحانه وتعالى فيها صفة للأبرار هي صفة البذل والعطاء والإنفاق ولقد جاءت هذه الصفة في هذه الآية موافقة لشرط بلوغ البر في هذه الصفة الذى ذكره الله سبحانه وتعالى في قوله تعالى: **(لن تنالوا البرَّ حتى تنفقوا مما تحبون)** وقوله تعالى: **(... ولكن البرَّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكينَ وابنَ السبيل والسائلينَ وفي الرقاب...)**.

٢ ـ أن سياق الآية في السورة يبين لنا اصالة هذا الجار والمجرور فالآيات من بدايتها تتحدث عن خلق الإنسان واختياره لنبيل الشكر أو الكفر، وليس اختيار الشكر بالطريق السهل بل هو معاناة ومجاهدة للابتلاء الذى هو غاية خلق الموت والحياة.

« ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » (١)

ولقد كان المال مظهرا من مظاهر هذا الابتلاء قال تعالى:

« لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ » (٢)

وقال سبحانه:

« وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » (٣)

(١) سورة الملك : آية ٢ (٢) سورة آل عمران : ١٨٦ .
(٣) سورة المائدة : ٤٨

وقال جلّ ذكره :

« وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ » (١)

وإذا كانت السورة تحدثت عن خلق الإنسان ثم ربطت ذلك بالابتلاء

« إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا » (٢)

والابتلاء في الإنفاق يكمن في مغالبة النفس المجبولة على حب الخير ويتجلى ذلك في مد الطعام إلى المحتاجين مع أن المطعم بحاجة إليه .

٣ ـ شكهم في الحكم بعدم الزيادة وذلك يظهر في اعتبارهم الجار والمجرور المراد فيما إذا كان الضمير لله ، مع أنه على قياسهم الذى ساروا عليه في النظر إلى جزئيات الآية يتساوى فيه الاحتمالان وممن أحس بذلك ابن يعقوب المغربي والدسوقى إذ ذكرا أن هناك وجهة نظر بالزيادة حتى ولو كان الضمير لله كما سبق بيانه .

ومادمنا لم ننسق مع البلاغيين والشراح وأبقينا **(على حبه)** أصيلة في معنى النص القرآني الكريم ومراده شأنها في ذلك شأن كل كلمة وكل حرف في كتاب الله .. وتأملنا إشارة هذه الفضلة النحوية إلى مكابدة الإنسان ومعاناته وجهاده لرغباته وشهواته وصراعه العنيف معها ذلك الصراع الذى يقوى فيه وينتصر من غمر قلبه الإيمان فضحى برغباته وشهواته وتطهر من صفاته الغالبة عليه كالهلع وحب الخير والعجلة ... مادام الأمر كذلك فإن ماحكموا عليه بالتتميم في كلام العرب أمر غير مسلم لهم أيضا وأن لهذه

الجزئيات أصالتها سواء كان ذلك في سياقها داخل البيت الواحد أم في

(١) سورة الأنعام: ١٦٥ (٢) سورة الإنسان: ٢.

سياق النص كله فمن ذلك بيت زهير بن أبى سلمى الذى يقول فيه:

إن تلقَ يوماً على علاتِه هَرِما   تلقَ السماحةَ منه والندى خُلقَا

حيث ذكروا أن «على علاته» تتميم للمبالغة، ومعنى ذلك أنها عندهم ليست من المعنى الأصلي. وليس الأمر كذلك فـ «على علاته» تبين جهاد الإنسان المثال وتعاليه على دواعي الحاجات والضعف وتلك حقيقة الإنسان إذ إنه لا يبلغ درجة الحمد ولا ينال صفات الخير إلا بهذه المكابدة والمعاناة والتغلب على النوازع والشهوات وقد قررها القرآن الكريم فى الآيات التي تعرضنا لها وفي غيرها أيضا، ولكنه جعل وسيلة ذلك التغلب في الإيمان والقيام بأركان الإسلام والتحلي بآدابه قال تعالى:

« إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ » (١)

ولقد لمس زهير تلك الحقيقة وأشارت إليها هذه الفضلة «على علاته» في هذا البيت ولقد كان سياق القصيدة مفصحا عنها ومعمقا لها بالرمز تارة وبالإفصاح تارة أخرى لقد كان ذلك البيت من قصيدة يقول في جزء منها: (٢)

بل اذكُرَنْ خيرَ قيس كُلها حسبا   وخيرَها نائلا وخيرَها خُلُقَا
القائدَ الخيلَ منكوباً دوابرُها   قد أُحكِمت حَكَماتِ القِدّ والأَبَقا (٣)

(١) سورة المعارج: ١٩ــ ٢٣.

(٢) شعر زهير بن أبي سلمي صنعة الأعلم الشنتمرى ٧٢ــ ٧٧.

(٣) «الدوابر» أواخر الحوافر. ومعنى أحكمت جعل له حكمات. والحكمة التي تكون فى

الأنف من المرسن. و«القد» ماقطع من الجلد و«الأبق» شبه الكتان... وأراد حكمات القد وحكمات الأبق.. دليل المعنى: أحكمت هذه الخيل في الصنعة وشدة الخلق كما أحكمت هذه الحِكَمات من القد والأبق.

غزت سمانا فآبت ضُمَّراً خُدُجا   من بعدِ ما جنبُوها بُدّنا عُقُقا(١)
حتى يؤوب بها عوجاً معطلةً   تشكو الدوابرَ والانساءَ والصفَقَا(٢)
يطلب شأو امرأين قدما حسنا   نالا الملوك وبذّا هذه السُّوَقَا(٣)
هو الجواد فإن يلحق بشأوهما   على تكاليفه فمثلُه لحقا
أو يسبقاه على ما كان مَنَ مَهَل   فمثلُ ما قدما من صالح سَبَقا(٤)
أغرُّ أبيضُ فياضٌ يفكك عن   أيدى العُنَاةِ وعن أعناقِها الرِّبقا(٥)
وذاك أحزَمُهم رأياً إذا نبأ   من الحوادث غادى الناس أو طرقا
فضل الجيادِ على الخيل البطاء فلا   يُعْطِى بذلك ممنونا ولا نَزِقَا(٦)
إن تلق يوما على علاته هرِما   تلق السماحةَ منه والندى خُلِقا(٧)

---

(١) «الخدج» التي تلقى أولادها لغير تمام. «البدّن» جمع بادن وهي الضخمة السمينة و«العقق» جمع عقوق. وهي التي استبان حملها. (المصدر السابق ٧٣).

(٢) «المعطلة» التي لا أرسان لها، لأنها لا تحتاج إليها لشدة جهدها وأعبائها و«العوج» جمع أعوج وعوجاء. وهي التي هزلت فاعوجت و«الأنساء» جمع نسا وهو عرق في الفخذ. ــ «الصفق»: جمع صفاق البطن وهو جلد دون الجلد الاعلى (المصدر السابق: ٧٣، ٧٤).

(٣) «الشأو» الطلق من الجرى، والشأو أيضا: الغاية (المصدر السابق: ٧٤).

(٤) «المهل» التقدم يقال: أخذ فلان المهلة والمهل على فلان إذا تقدمه (المصدر السابق).

(٥) «العناة» جمع عانٍ وهو الأسير وأصل العنو: الذل و«الرّبق»: جمع ربقه وهو حبل طويل فيه حلق تجعل فيه رؤوس البهم لئلا ترضع أمهاتها فاستعاروها ههنا للأغلال (المصدر السابق ٧٥).

(٣) «الممنون» المقطوع و«النزق» الذى يبطىء بعد الجرى، والذى يعطى ماعنده ثم يكف، يقول: هو في الناس بمنزلة الجواد من الخيل الذى يعطيك ماعنده من الجرى

دون أن يقطع أويبطىء بعد السعرة... ويكون الممنون أيضا من المن آى بما يكون منه فيكدره (المصدر السابق ٧٥، ٧٦).

(٧) وقوله «على علاته» يقول: إن نلقه علي قلة مال أوعدم، تجده سمحا كريما، فكيف به وهو على غير تلك الحال. (المصدر السابق ٧٦).

وليس مانع ذى قربى وذِى رَحِمٍ يوما ولا مُعْدمٍ من خابطٍ ورقًا (١)
ليث، بعثّر يصطاد الرجال إذا ما كذَّب الليث عن أقرانه صدقا (٢)
يطعنهمُ ما ارتموا حتى إذا اطعنوا ضاربَ حتى إذا ما ضاربوا اعتنقا
هذا وليس كمن يعيا بخطّتِه وسطَ النّدى إذا ما ناطق نطقا
لو نال حيٌّ من الدنيا بمنزلةٍ وَسْطَ السماءِ لنالتْ كفُّه الأفُقا

إن زهيرا يريد أن يقيم لممدوحه وجودا شعريا مثاليا وهو يعرف أن بلوغ هذه الدرجة لا يتم إلا بالتعالي على عناصر الضعف في الإنسان ومقاومتها والتغلب عليها حتى يتعالى على من حوله وينتسب إلى من وصلوا إلى هذه الدرجة.

ولقد بدأ قبل هذا البيت في إقامة هذا الوجود المثالي الذى ينال أعز ما في القوم من أخلاق وذلك إذ يقول:

واذكرن خير قيس كلها حسبا وخيرها نائلا وخيرها خلقا

ثم ذكر لنا عنصرا من عناصر المجد عند العرب ذلك هو الفروسية فقال عنه: «القائد الخيل» ثم انساق في وصف هذه الخيل انسياق الشاعر المبدع الذى تنساق الأشياء عنده في جو القصيدة في أفق شعرى موحد فخيله كما ترى ليست شيئا منفصلا عن وجود الممدوح، بل هي ليست شيئا منفصلا عن ذات الشاعر.. لقد كانت الخيل رمزا للإنسان الذى يجاهد ويعاني ويكابد... لقد كانت خيلا تحيط بها المصائب والنكبات تتجلى مظاهرها في الدوابر المنكوبة وحكمات القد والحبل.. والنقصان بعد السمن... تغزو سمانا عقنا فتؤوب ضمرا قد ألقت حملها شاكية نكبة حوافرها وزجرها وظمأها وآثار النصفق.... لقد كانت رمزا أفرغ الشاعر في تجسيد معاناتها

(١) الخابط: طالب المعروف، والورق ههنا: المعروف وهذا مثل وأصله أن الرجل يضرب الشجر ليحت ورقة فيعلفة الماشية فسمى كل من طلب بغير يد ولا معروف خابطا (المصدر السابق ٧٦، ٧٧).

(٢) بعثر: اسم موضع (المصدر السابق: ٧٧).

ومجاهدتها ما يلاقيه المجاهد في سبيل المثال وما يحيط به من مصائب ونكبات يكون محكُّه وقيمته في التغلب عليها وتجاوزها إنها العلات تتجسد أمامنا في هذا الرمز الذى سينتقل منه إلى الإنسان ذلك الإنسان البطل الذى:

يطلب شأو امرأين قدما حسنا   نالا الملوك وبذا هذه السوقا

ولقد أفصح زهير عن رمزية الخيل للإنسان بقوله:

هو الجواد فإن يلحق بشأوهما   على تكاليفه فمثلُه لحقا

الوصول إلى المثال جهاد ومغالبة ومكابدة والخيل رمز الجهاد والقوة ولقد أرانا الشاعر معاناتها ومكابدتها وممدوحه يريد الوصول أويريد له الوصول إلى المثال.. وبعد أن أصبحت الخيل رمزا أصبح الممدوح الإنسان فردا من أفراد ذلك الرمز ولذلك يقول: «هو الجواد»، ثم تأتي لفظة «على تكاليفه» لتكشف المعاناة والمجاهدة التي جسدها لنا الشاعر قبل ذلك من خلال رمز الخيل.. ومن هنا تبدو أصالتها وأداؤها للحقيقة التي ذكرناها حقيقة المعاناة والمكابدة في نيل الفضل والشرف تلك الحقيقة التي يحجبها القول بالتتميم الذى تنحى معه هذه الكلمة جانبا عن المعنى الأصلي الموهوم.

ثم يعرض بعد ذلك صفات الإنسان الخيّرة التي بلغ بها الخير والتى يقاوم بها ما في نفسه وما في الآخرين من شهوات وحاجات وعلل فهو «أغر» «أبيض» وإذا كانت تلك الصفتان من الصفات مشتركة بين الإنسان والخيل فالأمر قائم على رمزيةً الخيل وارتفاعها بفعل الوجود الشعرى إلى أن يكتسب الإنسان صفاتها وتكتسب هي صفاته، وعلى ذلك فلا غرو في إشارة

هاتين الصفتين إلى أصالتها في الفرس لأن الإنسان أضحى يستمد من الرمز صفاته الخَلْقية والخُلُقية يستمد منها الصفات الباهرة بين السواد والتى يزداد وضوحها كلما اشتد لون السواد حولها وذلك لأن هذه صفات خَلْقية تنبعث وتشرق من خلال سواد وتلك صفات خُلُقية تنبعث من خلال تكاليف ومواجهة صعاب وعلات أضحى بطل زهير لا يقاومها في نفسه فقط بل في

ذواتِ من يحتاجون ويعيون عن المواجهة ..

أغرُّ أبيض فياض يفكك عن أيدى العناة وعن أعناقها الرِّبقا

ويظل مالكا للرأى الصواب الحازم مهما تزاحمت العلل وغادت الناس :

وذاك أحزمهم رأيا إذا نبأٌ من الحوادث غادى الناس أو طرقا

ثم يعود إلى الإفصاح عن رمزية الخيل لمكابدة الإنسان ومعاناته ومواجهة الصعاب بقوله :

فضل الجياد على الخيل البطاء فلا يعطى بذلك ممنونا ولا نزقا

وذلك لأن الوجود الشعرى لهما يتجه نحو غاية واحدة أضحى كلا منهما يتحرك في أفقه . وأضحى بطل زهير هو الصخرة التي تتحطم عليها مصاعب الآخرين وعللهم وآلامهم:

قد جعل المبتغون الخير في هرم والسائلون إلى أبوابه طرقا

ثم نأتي الآن إلى بيت القصيد في هذا التحليل وهو قوله :

إن تلق يوما على علاته هرما تلق السماحة منه والندى خلقا

إننا لم نأت إلى هذا المكان إلا وقد عرفنا دور العلاّت في النص، عرفناها تحيط بالخيل رمز «الإنسان» من كل جانب عرفناها في الخيل تعانيها وتشكوها .. ثم عرفناها بعد ذلك في التكاليف المحيطة بالإنسان الذى يريد أن يبلغ شأو ذينك الامرأين اللذين جعلهما زهير نموذجا له يحتذيه .

وعرفناها أيضا قلقا نفسيا في الإنسان بعد أن يصل إلى ذلك الشأو هل هو لسابق أولا.

أو يسبقاه على ما كان من مَهَل   فمثلُ ما قدما من صالح سبقا

إن العلات هنا كائن لغوى شعرى قد استوى نموه وعرفنا جذوره وأن لاغنى للسياق عنه، فبتجاوز العلات تُبْلَغُ الغاية، وبقهر العلات ومقاومتها

والتغلب عليها يبلغ الإنسان درجة الخير والفضل والشرف لأن ذلك هو محك الإنسان وإبراز قيمته كإنسان ومجال ابتلائه واختبار صبره.. لقد أصبح تجاوز العلات هو مناط وجود السماحة والندى.. وبعد أن عرفنا حقيقة هذه العلات ورمزيتها لكل ما يحيط بالإنسان من مصاعب وشهوات وحاجات في سبيل بلوغه درجات الفضل والشرف والسمعة الحسنة، تلك الحقيقة التي لمسها زهير، وقررها القرآن الكريم، وأكد عليها كما سبق، نعرف أيضا أصالة كل جملة اعتراضية تشير إلى هذه الحقيقة في حياة الإنسان. وأن الإشارة إلى هذه المعاناة والمكابدة في سبيل بلوغ غايات الخير «أمر أصيل» يستمد أصالته من هذه الحقيقة الكبرى في حياة الإنسان، فمن هنا نحكم بأصالة «على علاته» في قول زهير الآخر:

إنّ البخيلَ ملومٌ حيث كان ولكن   الجوادَ على علاتِه هَرِمُ

و «على ما ترين من كبرى» الذى يشير إلى إحدى هذه العلات في قول الآخر:

إني على ما ترين من كبرى   أعرفُ من أين تؤكل الكتفُ

٢ ــ المبالغة في القصر

ومن أساليب المعاني التي قيل فيها بالمبالغة أسلوب القصر في معظم أقسامه وذلك لأن القصر ينقسم إلى قسمين: قصر صفة على موصوف مثل «لا إله إلا الله» وقصر موصوف على صفة مثل قوله تعالى:

« وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ » (١)

ولقد كان بحثهم للقصر قائما على مقارنة مدلول الألفاظ بحقيقة الأمر في الواقع الخارجي ولذلك قُسِمَ القصر إلى نوعين: حقيقي وإضافي. والقصر الحقيقي عندهم هو ما صح فيه قصر الصفة على الموصوف أوالموصوف على الصفة في الواقع الخارجي ويعبرون عن ذلك بتخصيص الشيء بالشيء بحسب الحقيقة وفي نفس الأمر بألا يتجاوزه إلى غيره(٢). ويمثلون له في قصر الصفة على الموصوف بـ (لا إله إلا الله) وبـ (ما نبي خاتم إلا محمد صلى الله عليه وسلم) وهذا سلموا بحقيقته لأنه حقيقة مطلقة.. ولكنهم جاءوا إلى الفرع الثاني من الحقيقي وهو قصر الموصوف على الصفة ومثلوا له بـ: ما زيد إلا كاتب وشرطوا صدقه على الحقيقة الخارجية بإرادة أنه لايتصف بصفة غير الكتابة ولما وجدوا أن الخارج لا يسعفهم في إثبات

صدق ذلك حكموا بندرته واستحالته فقال الخطيب في الإيضاح: (وهذا لايكاد يوجد في الكلام لأنه مامن متصور إلا وتكون له صفات تتعذر الإحاطة بها أوتتعسر)(٣)، وقال في التلخيص: (وهو لا يكاد يوجد لتعذر

(١) سورة آل عمران: ١٤٤

(٢) مختصر السعد على تلخيص المفتاح ١٦٧/٢.

(٣) الإيضاح ضمن شروح التلخيص: ١٧٢/٢.

الإحاطة بصفات الشيء)(١) وعلق السعد على ذلك بقوله: (حتى يمكن إثبات شيء منها ونفي ماعداها بالكلية بل هذا محال لأن للصفة المنفية نقيضا وهو من الصفات التي لا يمكن نفيها ضرورة ارتفاع النقيضين)(٢). ويقول ابن يعقوب المغربي: (فإذا تعذر في العادة إحاطة المخلوق بصفات الشيء لم يتأت للمحترز عن نقيصة الكذب أن يأتي به قاصدا لمعناه الحقيقي وإنما تعذرت الإحاطة بالأوصاف لما علم أن العاقل لا يحيط بأوصاف نفسه لا سيا الباطنية والاعتبارية فكيف بأوصاف غيره)(٣).

وأما القصر الإضافي عندهم فهو ما يكون فيه القصر (بحسب الإضافة إلى شيء آخر بألا يتجاوزه إلى ذلك الشيء وإن أمكن أن يتجاوزه إلى شيء آخر)(٤) ومثاله في قصر الصفة على الموصوف (ما في الدار إلا زيد) إذا اعتقد المخاطب أن في الدار زيدا وعمرا وأردت أن تحصر الوجود في زيد دون عمرو ولو كان فيها غير عمرو أيضاً. وفي قصر الموصوف على الصفة (ما زيد إلا كاتب) إذا أردت أن تحصر الكتابة بالنسبة إلى الشعر دون باقي الصفات الموجودة فيه.

وتدخل المبالغة في معظم هذه الأقسام فقد قال الخطيب: (وقد يقصد به المبالغة لعدم الاعتداد بغير المذكور فينزل منزلة المعدوم)(٥) وأرجع السعد الضمير إلى الناس وهو قصر الصفة على الموصوف قصرا حقيقيا وشرح ذلك بقوله: (كما يقصد بقولنا ما في «الدار إلا زيد» أن جميع من في الدار ممن

عدا زيدا في حكم العدم فيكون قصرا حقيقيا ادعائيا وأما في القصر غير الحقيقي فلا يجعل غير المذكور بمنزلة العدم بل يكون المراد أن الحصول في الدار

---

(١) شروح التلخيص: ١٧٢/٢.

(٢) مختصر السعد ضمن شروح التلخيص: ١٧٢/٢، ١٧٣.

(٣) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص: ١٧٢/٤.

(٤) مختصر السعد: ١٦٧/٢.

(٥) الإيضاح ضمن شروح التلخيص: ١٧٤/٢.

مقصور على زيد بمعنى أنه ليس حاصلا لعمرو وإن كان حاصلا لبكر وخالد)(١). ويشرح ابن يعقوب المغربي ذلك بقوله: (« وقد يقصد به » أي بالثاني وهو قصر الصفة على الموصوف « المبالغة » في *كمال الصفة في ذلك* الموصوف فتنفي عن غيره على العموم وتثبت له فقط دون ذلك الغير ولو كانت في نفس الأمر للغير أيضاً وإنما يفعل ذلك « لعدم الاعتداد » في تلك الصفة « بغير المذكور » أي بغير ذلك المذكور لتلك الصفة وهذا كما إذا وجد أن علماء في البلد وأريد المبالغة في كمال صفة العلم في زيد فينزل غير زيد بمنزلة من انتفت عنه صفة العلم لعدم كمالها فيه فيقال « لا عالم في البلد إلا زيد » حصر للعلم فيه ونفيا له عن غيره لعدم الاعتداد بالعلم في ذلك الغير ويسمى هذا قصرا حقيقيا بالادعاء وذلك لأن نفي العلم عن غير زيد الذى تضمنه هذا الحصر ليس كذلك في نفس الأمر وإنما نسب ذلك النفي إلى الغير لكونه بمنزلة المتصف بالنفي لضعف الإثبات فيه ونسبة الشيء لغير من هو له مجاز تركيبي) وقد ذكر أيضا: (أن القصر الادعائي بالمبالغة لا يختص بقصر الصفة على الموصوف ولا بالحقيقي بل يجرى في قصر الموصوف على الصفة وفي الإضافي مطلقا فإذا كانت صفات في شخص وكان مشهورا بواحدة لكمالها وأريد أن يبين أن غير تلك الصفة في ذلك الموصوف ضعيف بالنسبة إليها حتى كأنه لم يتصف إلا بتلك الصفة حصر الموصوف فيها فيقال مثلا: « ما حاتم إلا جواد » أي لا يتصف بغير الجود من الصفات مبالغة في كمال الجود فيه فكأن غيره فيه عدم وتقول مثلا عن

قصر الصفة على الموصوف الإضافي مبالغة «ما عالم إلا زيد» أى لا عمرو ولو كان عمرو عالما أيضا ولكن تنزل علمه كالعدم بالنسبة لعلم زيد وفي قصر الموصوف الإضافي مبالغة «ما زيد إلا كاتب» أى لا شاعر ولو كان شاعرا وكاتبا معا تنزيلا لشعره منزلة العدم بالنظر لكتابته)(٢).

ولما كانت هذه التقسيمات تستمد تنوعها من الواقع الخارجي ومن إرادة المتكلم مغفلة حقيقة الوجود اللغوى وإثبات ونفي اللغة ذاتها المستمد من النص والسياق وجدت أسلوب القصر يعصف به الادعاء الذى وضعوه كما ترى هنا مرادفا للمبالغة.. ولو اقتصروا في المبالغة في كمال الصفة لهان الأمر. ولقبلناها لأن الدلالة على التناهي وبلوغ الغاية في كمال الوصف مفهوم صحيح للمبالغة، ولكنهم قرنوا ذلك بحصر المخصص في المخصص له ونفيه عما عداه تنزيلا لما عداه منزلة العدم، ولما لم يصدق ذلك على الواقع الخارجي الذى افترضوا أن اللغة مرآة له قرنوا هذه المبالغة بالادعاء وبهذا النظر كان الحقيقي من القصر عندهم أحد أمرين:

١ — ما كان فيه حصر الصفة في الموصوف ونفيها عما عداه من الحقائق المطلقة المسلمة مثل: لا إله إلا الله — ماخاتم الأنبياء إلا محمد صلى الله عليه وسلم.

٢ — ماثبت في الواقع الخارجي حقيقته وكينونته المحصورة وذلك كقولك: (ما في الدار إلا زيد) وحتى هذا المثال الذى يحكي حقيقة خارجية واقعة وذلك حيث لم يكن في الدار إلا زيد لم يسلم من إمكانية إدخاله عند بعضهم في باب الادعاء. يقول المغربي في ذلك (فإن لفظ الدار إذا أريد بدار معينة صح أن تحصر هذه الصفة وهو الكون

فيها في زيد بحيث لا يكون فيها غيره أصلا وإنما قلنا معينة لأنه لو أريد مطلق الدار لم يتأت عادة حصر الكون في مطلق الدار في زيد إذ لابد من كون غير زيد في دارما. وورد على هذا المثال أن الكون في الدار المعينة لا ينحصر في زيد لأن الهواء الذى لا يخلو منه فراغ عادة كائن في الدار فإن أريد نفي الكون عن نوع زيد بأن يكون التقدير ما في الدار إنسان أو أحد إلا زيدا ليقع الاستثناء متصلا قرب الجنس لزم صحة هذا في قصر الموصوف على الصفة الذى جعل متعذرا أو محالا إذ يصح قولك ماهذا الثوب إلا أبيض بتقدير أنه لا يتصف

بشيء من الألوان غير البياض فالأول التمثيل بنحو ماتقدم وهو قولنا: (ماخاتم الأنبياء إلا محمد صلى الله عليه وسلم)(١).

وحتى عند عبد القاهر الجرجاني أيضا كانت إفادة طريقي الحصر «إنما» و«التعريف» للمبالغة — وهما الطريقان اللذان نص على إفادتها المبالغة كما سبق أن أشرنا — عن طريق الادعاء فإنما تفيد المبالغة إذا أدعى في القصر أمر ظاهر معلوم للجميع كقول الشاعر:

إنما مصعبٌ شهابٌ من اللـ ـهِ تجلّتْ عن وجْهِهِ الظّلْماءُ(٢)

والتعريف يفيد المبالغة عنده إذا قصرت جنسَ المعنى على المخبر عنه لقصدك المبالغة وذلك كقولك: زيد هو الجواد، وعمرو هو الشجاع، تريد أنه الكامل إلا أنك تخرج الكلام في صورة توهم أن الجود أو الشجاعة لم توجد إلا فيه، وذلك لأنك لم تعتد بما كان من غيره لقصوره عن أن يبلغ الكمال(٣).

(١) مواهب المفتاح ضمن شروح التلخيص: ١٧٣/١، ١٧٤.

(٢) دلائل الاعجاز: ٢٢٥. (٣) المصدر السابق: ١٣٨.

الفصل الثالث

المبالغة في علم البديع

١ ـ مبحث المبالغة والبديع عند المتأخرين

إن استعراض نشأة البديع، وتطور مصطلحه، وتقسيماته أمر لا يعني هذا البحث الذى انحصر في تناول المبالغة، وتاريخها، وطوفانها فيما حكم عليه بها من الألوان الأسلوبية للكلام، ولقد كفانا مؤونة ذلك بعض الأبحاث التي تتبعته في نشأته وتطوره (١). والذى يعنينا هنا أن نشير إلى النظرة التي استقرت في البلاغة العربية إزاء البديع، تلك النظرة التي جعلته يأتي في مرحلة تالية للوفاء بالمعنى بالمراد والتي تتضح من خلال تعريف الخطيب القزويني له إذ عرفه بقوله: (وهو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة) (٢)، وجعل البديع في هذه الدرجة المرحلية، وقصر وظيفته على التحلية والتحسين أمر فيه الكثير من العبث بطاقات الكلام وإشعاعاته، ذلك العبث النظرى الذى طاف بالبلاغة العربية التي حصرت معنى الكلام في معنى موهوم تصوروا أنه هو المعنى الأصلي وقصروا الوظيفة الأساسية للكلام في الإشارة إليه، وما يأتي بعد ذلك ما هو إلا توكيد أوتقرير أوتوضيح أومبالغة أوتحسين وتحلية. ولقد لفت ذلك نظر الدكتور أحمد موسى فقال بعد أن عرض للبديع وأساليبه (وبما

عرضناه عليك من أساليب البديع يتجلى لك أن هذا الكلام كله نظري لايستند على دعائم عملية تكنفه وتؤازره، فالمقسم، أوالمزاوج، أوالمطابق، أوالمعلل أوالمبالغ مثلا لم يلاحظ قبلية أوبعدية كما لم يلاحظ المؤكد أوالموجز المطنب أنه راعى ذلك بعد رعاية مايقتضيه علم الإعراب، وإن كان لابد ن صحة التراكيب — وإنما يرمي إلى غرض كمايرمي الذى فصل أووصل، يقصد إلى هدف كما يصنع الذى شبه أوتجوز أوكنى، دون هذه المراعاة

(١) ممن تناول ذلك: د. أحمد موسى في كتابه: الصيغ البديعي في اللغة العربية د. رجاء عيد في كتابيه: المذهب البديعي في نقد الشعر، وفلسفة البلاغة بين التقنية والتطور.

(٢) الإيضاح ضمن شروح التلخيص: ٢٨٢/٤، ٢٨٣.

الاعتبارية النظرية التى خبوا في بيانها ووضعوا فلم يأتوا بشيء وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا)([1]) ولقد أشاد بالبهاء السبكي عندما أنكر هذه المرحلية النظرية فقال (والحق الذى لاينازع فيه منصف أن البديع لايشترط فيه التطبيق ولا وضوح الدلالة، وأن كل واحد من تطبيق الكلام على مقتضى الحال. ومن الإيراد بطرق مختلفة ومن وجوه التحسين قد يوجد دون الآخرين، وأول برهان على ذلك أنك لاتجدهم في شيء من أمثلة البيان يتعرضون إلى بيان اشتمال شيء منها على التطبيق ولاتجدهم في شيء من أمثلة البديع يتعرضون لاشتماله على التطبيق والإيراد بل تجد كثيرا منها خاليا عن التشبيه والاستعارة والكناية التي هي طرق علم البيان هذا هو الإنصاف وإن كان مخالفا لكلام الأكثرين)([2]).

وهذا هو مادعا الدكتور علي العمارى أن يقول: (وإذا كان بعض الباحثين يرى أن المحسنات البديعية ليست أمورا عرضية في الكلام كما جرى عليه الأوائل، بل هي أمور ذاتية، فان أحق الألوان البديعية أن يلحق بعلم البيان هو هذا النوع لما فيه من جمال التعبير، وروعة المعنى.

ولا يعكر علينا أن تعريف علم البيان ـ كما درجت عليه البلاغة السكاكية ـ لا يشملها، فمن اليسير أن نستأذن سدنة هذه البلاغة أن يسمحوا للمبالغة، ولغيرها من الألوان البديعية التي تكون أصلا في بلاغة الكلام أن يسمحوا لها بالانتساب إلى علم البيان)(٣). ولا شك أن هذا شعور بالحيف الذى لقيه البديع في البلاغة العربية، ولكن هل إلحاقه بالبيان على أساس أن البيان ماهو إلا طرق مختلفة في وضوح الدلالة لإيراد المعنى الواحد يخرجه من هذا الحيف؟؟!

(١) الصيغ البديعي ٥٠١.
(٢) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص: ٢٨٤/٤ والصبغ البديعي: ٥٠١، ٥٠٢.
(٣) المعاني بين القصد والإفراط ـ مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي ٢٢٩/٤.

(ولقد استقرت المبالغة في تآليف المتأخرين من علماء البلاغة عنوانا عاما على ما رأوا من ألوانها عند المتقدمين، وأدرجت تحتها ألقاب تجمع كل الأوصاف التي وردت على ألسنة المتقدمين، وجعلت المبالغة مبحثا من مباحث علم البديع، وإن كان بعض ألوانها ذكر في علم البيان وبعضها ذكر في علم المعاني)(١).

وقد قسموا المبالغة إلى درجات مراعين في ذلك تحقق الوجود اللغوى في الواقع الخارجي تحقيقا يمكنهم من أخذ الواقع الخارجي معيارا يحتكمون إليه في الحكم على العمل الأدبي. إما بالصحة أوالكذب وإما بالإمكان أوالتعذر... ولذلك قسموا المبالغة إلى درجات في ضوء هذا المعيار هي:

١-إن كان المدعي ممكنا عقلا وعادة فتبليغ كقوله:

فعادى عداء بين ثور ونعجة　　دراكاً فلم ينضح بما فيغسل

٢-وإن كان ممكنا عقلاً لا عادة فإغراق كقوله:

ونكرم جارنا مادام فينا　　ونتبعه الكرامة حيث مالا

١- وبعد هذين القسمين يبقى قسم واحد فقط، وإن كانت القسمة العقلية تقتضي رابعاً ولكنه ممتنع ولذلك قال سعد الدين التفتازاني: (وإن لم يكن ممكنا لا عقلا ولا عادة لامتناع أن يكون ممكنا غادة ممتنعاً عقلا إذ كل ممكن عادة ممكن عقلا ولا ينعكس فغلو كقوله:

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التي لم تخلق[٢])

وعلق البهاء السبكي على البيتين الواردين في القسمين الأول والثاني فقال عن الأول: (وفيه نظر لأن هذا إخبار عن الواقع بغير مبالغة)[٣]

---

(١) المرجع السابق: ٢٢٨.

(٢) شرح التلخيص: ٣٥٩/٤– ٣٦١.

(٣) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص ٣٦٠/٤.

وقال عن الثاني: (وفيه نظر لإمكان حمل ذلك على تزويده بما يصاحبه في كل جهة يميل إليها كما هي عادة الكرام)[١].

وهذا المعيار ليس معيارا صادقا للغة العمل الأدبي لأننا بهذا المعيار ندين معظم ما جاء بهذه اللغة التي تقوم على إعادة تشكيل الواقع الخارجي وإقامة الأشياء في وجود لغوى آخر تتجدد فيه العلاقات بينها... من واقع منظور المبدع الذاتي وبكل ما يصاحبه من مشاعر وأحاسيس ورغبة ملحة من الإنسان في اقتناصه حقائق الأشياء بنفسه. وتسجيل ذلك الفكر السيال المتدفق بكلمات اللغة التي تبقى بد ذلك حاملة لتدفق ذلك الفكر، ومتيحة لقارئها وسامعها بواسطة نشاطها أن يطوف معها في أجواء فكر الإنسان في حدود تقديره للكلمة ودورها، وإيمانه بفاعليتها ونشاطها، فإن كان مقدرا لذلك ومؤمنا به استطاعت الكلمة أن تحمله إلى قريب جدا من ذلك الأفق الذى ولدت فيه، وإن كان الواقع هو حكمه ومعياره فقد ابتعد عن ذلك الأفق ورماه دبر أذنه وحمله على التجوز والتزيد والمبالغة والكذب كما هو واضح في تراثنا النقدى والبلاغي.

ومن منطلق الواقع الخارجي ومعياريته في الحكم على اللغة حكموا بوجود «الغلو» الذى اعتبروه أبعد أنواع المبالغة درجة عن حقيقة الواقع عقلا وعادة في القرآن الكريم.. وقد قبلوه لاقترانه في نظرهم بما يقربه إلى الصحة نحو لفظة يكاد في قوله تعالى:

« يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ » (٢)

ولقد شعر ابن يعقوب المغربي بالحرج في القول بالتقريب إلى الصحة فقال معلقا على قول صاحب التلخيص: (وينبغي لما مثل بالآية أن يقول ـ

(١) المصدر السابق: ٣٦١/٤.

(٢) الآية: ٣٥ من سورة النور وانظر شروح التلخيص: ٣٦٦/٤.

بدل قوله يقربه إلى الصحة ـ لا يظهر معه الامتناع تأدبا وهو كذلك ثم إن ماذكر من كون إضاءة الزيت محالا عقلا غير ظاهر لصحة اتصاف كل جسم بما اتصف به الآخر اللهم إلا أن يراد بالاستحالة العقلية الاستحالة في عقول العامة أويراد بالزيت الزيت بقيد كونه غير مضيء كما هو المشاهد وفي كل ذلك تمحل باعتبار إطلاقهم التفصيل لأن الظاهر منه الاستحالة الحقيقية المتقررة على الإطلاق وإلا فإكرام الجار نائبا أبدا باعتبار عقول العامة محال، وكذا بقيد كونه غير مكرم كما هو في العرف والشهود)(١).

وأما البهاء السبكي فقد أنكر عليهم وسيلة التقريب هذه فقال: (ولك أن تقول المستحيل كيف يقرب من الصحة بكاد)(٢) وعلق على أمثلة الغلو بهذه الآية وبقول الشاعر وهو ابن حميد الصقلي:

ويكاد يخرج سرعة عن ظله ... لو كان يرغب في فراق رفيق

وبقول أبي الطيب المتنبي:

عقدت سنابكها عليها عثيرا ... لو تبتغي عنقا عليه لأمكنا

بقوله : (وفي جميع هذه الأمثلة وكونها من المستحيل عقلا نظر إذ العقل لا يمنع أن يضيء الزيت وأن يخرج الفرس عن ظله، وأن تعقد حوافر الخيل غبارا ويتكاثف حتى يمكن السير عليه)(٣).

وحول هذا المفهوم العقلي المحدود بحدود الواقع الخارجي للآية نقول : إن لغة القرآن الكريم هي كلام رب العالمين الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. وقد جاءت تموج بحياة الكثير من الكائنات... وتتجاوز تصورات البشر الذين يسعون لاهثين لإدراك الحقيقة بوسائلهم المحدودة وجاء القرآن الكريم يوضحها لهم ويعرضها عليهم عرض العليم بخفايا كل شيء..

(١) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص: ٣٦٢/٤، ٣٦٣.
(٢، ٣) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص: ٣٦٢/٤، ٣٦٤.

في لغة لا يمكن لنا أن نحد فهمها بحدود مدركات الذهن البشرى المحسوسة والمشاهدة.. ولذلك كان لزاما علينا ألا نجعل التحقيق في الواقع الخارجي لحقائق القرآن الكريم هو وسيلتنا في الفهم والاستبصار، بل يجب علينا أن نسمو إلى أفق لغة القرآن، وأن ننظر إلى الأشياء فيها في ظل وجودها وسياقها اللغوى الذى عرضه القرآن الكريم.

والذى يضرب الله سبحانه وتعالى له المثل في هذه الآية هو نوره عز وجل. وتفسير هذا النور بأنه الحق (١)، أمر فيه اختصار لحقيقة النور الإلهي، لأن الحق جزء من النور قال تعالى : (**الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات**). وقال جل وعلا :

« يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ » (٢)

وقال جل ذكره :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا » (٣)

والنور الإلهي نور شامل غمر الكون كله كما في هذه الآية (الله نور السموات والأرض) وأشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة كما في قوله صلى الله عليه وسلم: (أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة) وأشرقت به الأرض يوم القيامة **(وأشرقت الأرضُ بنورِ ربها)** (٤) فهو نور تنقشع به الظلمات، وتشرق به الأرض...

(١) انظر تفسير ابن كثير ٤/٢٨٩، وتفسير الكشاف: ٣/٦٧

(٢) سورة الصف: ٨.

(٣) سورة النساء: ١٧٤.

(٤) سورة الزمر: ٦٩.

ولكن هل يمكن لنا نحن البشر إدراك حقيقة هذا النور الإلهي؟؟! إننا بوسائلنا المحدودة لا ندرك حقيقة هذا النور ولكننا يجب علينا الإيمان به كما جاء به الكتاب، وكما جاء في السنة المطهرة.. وماجاء في هذه الآية هو ضرب مثل لذلك النور.. ذلك المثل الذى يرتفع بنا من الواقع المحسوس إلى آفاق السماء والغيب فيبدأ بالمحسوس المشاهد **(مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة)** ثم يسمو بنا إلى آفاق السماء، ويتجاوز بنا الواقع المشاهد فيشبه الزجاجة بالكوكب الدريّ، ويكون الإيقاد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية. ويعقب سبحانه في ختام المثل بقوله: **(ويضرب اللهُ الأمثالَ للناسِ واللهُ بكلِ شيء عليم)** فمها بلغت قوانا الادراكية فهى لا تدرك إلاّ ما يمن الله عليها بإدراكه.. وعلينا أن نؤمن بها وراء ذلك كما جاء به الكتاب الكريم، وكما أخبرنا به الرسول صلى الله عليه وسلم.

وطالما أن هذا المثل المضروب لهذا النور الذى لا يمكن لنا إدراكه

بالمشاهدة المحسوسة فقط... والذى كما نلاحظ في نصه يتجاوز بنا الواقع المشاهد المحسوس إلى آفاق السماء.. وعالم آخر تتجاوز فيه الشجرة الزيتونة المباركة حدود المكان والزمان.. مادام أن الأمر كذلك فلا مجال للحكم بأن قوله تعالى: **(يكاد زيتها يضيء)** من باب الغلو المقرب إلى الصحة بـ «كاد».

ولقد كان سيد قطب رحمه الله تعالى موفقا في الظلال التي استوحاها من سياق هذا المثل عندما قال: (وهو مثل يقرب للإدراك المحدود صورة غير المحدود.. وهو مثل يقرب للإدراك طبيعة النور حين يعجز عن تتبع مداه وآفاقه المترامية وراء الإدراك البشرى الحسير.

ومن عرض السموات والأرض إلى المشكاة، وهي الكوة الصغيرة في الجدار غير النافذة يوضع فيها المصباح، فتحصر نوره وتجمعه، فيبدو قويا متألقا: **(كمشكاة فيها مصباح)** .. **(المصباح في زجاجة)** .. تقيه الريح،

وتصفي نوره، فيتألق ويزداد.. **(الزجاجة كأنها كوكب درى)** فهي بذاتها شفافة رائقة سنية منيرة هنا يصل بين المثل والحقيقة.. حين يرتقي من الزجاجة الصغيرة إلى الكوكب الكبير، كي لاينحصر التأمل في النموذج الصغير الذى ما جعل إلا لتقريب الأصل الكبير، وبعد هذه اللفتة يعود إلى النموذج إلى المصباح: **(يوقد من شجرة مباركة زيتونة)** ونور زيت الزيتون كان أصفى نور يعرفه المخاطبون. ولكن ليس لهذا وحده كان اختيار هذا المثل، إنما هو كذلك الظلال المقدسة التي تلقيها الشجرة المباركة. ظلال الوادى المقدس في الطور وهو أقرب منابت الزيتون لجزيرة العرب. وفي القرآن إشارة وظلال حولها **(وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين)**[1]. وهي شجرة معمرة وكل مافيها ممايـنفع الناس. زيتها وخشبها وورقها وثمرها.. ومرة أخرى يلتفت من النموذج الصغير ليذكر بالأصل الكبير. فهذه الشجرة ليست شجرة بعينها وليست متحيزة إلى مكان

أوجهه .. (لا شرقية ولا غربية) وزيتها ليس زيتا من هذا المشهود المحدود، إنما هو زيت آخر عجيب (**يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار**) فهو من الشفافية بذاته، ومن الإشراق بذاته، حتى ليكاد يضيء بغير احتراق (**ولو لم تمسسه نار**) (**نور على نور**) وبذلك نعود إلى النور العميق الطليق في نهاية المطاف!

إنه نور الله الذى أشرقت به الظلمات في السماوات والأرض، النور الذى لاندرك كنهه ولامداه، إنما هي محاولة لوصل القلوب به، والتطلع إلى رؤياه (**يهدى الله لنوره من يشاء**) ... **ممن يفتحون قلوبهم للنور فتراه** ...

إنما المثل الذى ضربه الله لنوره، وسيلة تقريبية إلى المدارك، وهو العليم بطاقة البشر[2].

---

(١) سورة المؤمنون: ٢٠.

(٢) في ظلال القرآن: ٢٠١٩/٤، ٢٠٢٠.

٢ ــ المبالغة في حسن التعليل

لقد تناول النقد والبلاغة العربية هذا الباب، وممن أفاض في الحديث عنه الإمام عبد القاهر الجرجاني. وربطه بالتخييل والادعاء: (وجملة الحديث أن الذى أريده بالتخييل ههنا، مايثبت فيه الشاعر أمرا هو غير ثابت أصلا، ويدعى دعوى لاطريق إلى تحصيلها، ويقول قولا يخدع فيه نفسه ويريها مالاترى)[1] وهذا القسم التخييلي عنده والذى وضعه مقابلا للعقل هو (الذى لايمكن أن يقال إنه صدق، وإن ماأثبته ثابت، ومانفاه منفي، وهو مفتن المذاهب، كثير المسالك، لايكاد يحصر إلا تقريبا ولا يحاط به تقسيما وتبويبا.. ثم إنه يجيء طبقات ويأتي على درجات.

فمنه ما يجيء مصنوعا قد تلطف فيه واستعين عليه بالرفق والحذق، حتى أعطي شبها من الحق، وغشى رونقا من الصدق، باحتجاج بخيل، وقياس

يصنع فيه ويعمل، ومثاله قول أبي تمام:

لا تنكري عطل الكريم من الغنى ... فالسيل حرب للمكان العالي

فهذا قد خيل إلى السامع أن الكريم إذا كان موصوفا بالعلو والرفعة في قدره وكان الغنى كالغيث في حاجة الخلق إليه وعظم نفعه، وجب بالقياس أن ينزل عن الكريم، نزول ذلك السيل عن الطود العظيم، ومعلوم أنه قياس تخييل وإيهام، لا تحصيل وإحكام فالعلة في أن السيل لا يستقر على الأمكنة العالية، إن الماء سيال، لا يثبت إلا إذا حصل في موضع له جوانب تدفعه عن الانصباب، وتمنعه عن الإنسياب، وليس في الكريم والمال شيء من هذه الخلال)(٢).

ويظهر في هذا القسم حسن التعليل في أنواع متعددة مرتبطة بالتخييل يقول عبد القاهر: (ومن هذا النمط في أنه تخييل شبيه بالحقيقة لاعتدال أمره

---

(١) أسرار البلاغة: ١٣٦/٢

(٢) المصدر السابق: ١٢٨/٢، ١٢٩.

وأن ما تعلق به من العلة موجود على ظاهر ما ادعى قوله:

ليس الحجاب بمقص عنك لي أملا ... إنّ السماء تُرَجّى حين تحتجِبُ

فاستتار السماء بالغيم. هو سبب رجاء الغيث الذى يعد في مجرى العادة جودا منها ونعمة صادرة عنها)(١). ويضيف معددا هذه الأنواع.

(وهذا نوع آخر وهو دعواهم في الوصف هو خلقه في الشيء وطبيعة، أو واجب على الجملة من حيث هو– إن ذلك الوصف حصل له من الممدوح، ومنه استفاد، وأصل هذا التشبيه ثم يتزايد فيبلغ هذا الحد، ولهم فيه عبارات منها قولهم: إنّ الشمس تستعير منه النور وتستفيده، أوتتعلم منه الإشراق وتكتسب منه الإضاءة، وألطف من ذلك أن يقال: تسرق وإن نورها مسروق من الممدوح، وكذلك يقال المسك يسرق من عرفه، وأن طيبه مسروق منه ومن أخلاقه، قال ابن بابك:

قال ابن بابك.

ألا يا رياض الحُزْنِ من أبرق الحمى   نسيمك مسروق ووصفك منتحل

حكيت أبا سعد فنشرك نشره   ولكن له صدق الهوى ولك الملل

ونوع آخر: وهو أن يدعى في الصفة الثانية للشيء أنه إنما كان لعلة يضعها الشاعر، ويختلقها: إما لأمر يرجع إلى تعظيم الممدوح أوتعظيم أمر من الأمور.

فن الغريب في ذلك معنى بيت فارسي ترجمته:

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته   لما رأيت عليها عقد منتطق

فهذا ليس من جنس ما مضى أعنى ما أصله التشبيه، ثم أريد التناهي في المبالغة والإغراق والإغراب.

ويدخل في هذا الفن قول المتنبي:

لم يحك نائلَك السحابُ وإنما   حُمّت به فصبيبها الرُحَضَاءُ

(١) المصدر السابق: ١٣٨/٢.

لأنه وإن كان أصله التشبيه من حيث يشبه الجواد بالغيث، فإنه وضع المعنى وضعاً، وصورة خرج معها إلى مالا أصل له في التشبيه فهو كالواقع بين الضربين)(١)

(ونوع آخر منه قول الصولي:

الريح تحسدني عليـ   ـك ولم أخلها في العدا

لما هممت بقبلة   ردت على الوجه الردا

وذلك أن الريح إذا كان وجهها نحو الوجه، فواجب في طباعها أن ترد الرداء عليه، وأن تلفه من طرفيه، وقد ادعى أن ذلك منها لحسدها، وغيرة لمحبوبه، وهي من أجل ما في نفسها: تحول بينه وبين أن ينال من (٢)

وجهها)(١).

وهناك نوع آخر في التعليل عنده (وهو أن يكون للمعنى من المعاني والفعل من الأفعال علة مشهورة من طريق العادات والطباع، ثم يجيء الشاعر فيمنع أن يكون لتلك العلة المعروفة، ويضع له علة أخرى، مثاله قول المتنبى:

ما به قتل أعاديه ولكن يتقي إخلاف ما ترجو الذئاب

الذى يتعارفه الناس أن الرجل إذا قتل أعاديه فلإرادته هلاكهم، وأن يدفع مضارهم عن نفسه وليسلم ملكه ويصفو من منازعتهم، وقد ادعى المتنبي كما ترى أن العلة في قتل هذا الممدوح لأعدائه غير ذلك)(٣).

وترتبط المبالغة بهذه الأنواع التي ذكرها كما يفهم من شرحه لها. ونظرا لارتباطها بها، فقد عقد في هذا الفصل مناظرة بين قبولها ورفضها، وأملى عليه موقفه من لغة العمل الأدبي التي وضع الواقع الخارجي معيارا لصحة

(١) المصدر السابق: ١٣٨/٢، ١٣٩.
(٢) المصدر السابق: ١٤١/٢.
(٣) المصدر السابق: ١٥٨/٢.

علاقتها، وحدًّا لأبعادها أن يجعلها كالقضية المنطقية وأن يطبق عليها معايير الصحة والكذب في المنطق، ثم يحار بين هذا التطبيق، وبين رفض لغة العمل الأدبي لهذا المنطق، فيميل إلى رفضها نظريا حيث يقول:(والعقل بعد على تفضيل القبيل الأول — من المعنى العقلي — وتقديمه، وتفخيم قدره وتعظيمه، وماكان العقل ناصره والتحقيق شاهده، فهو العزيز جانبه، المنيع مناكبه، وقد قيل: الباطل مخصوم وإن قضى له، والحق مفلج وإن قضى عليه، هذا ومن سلم أن المعاني المفرقة في الصدق، المستخرجة من معدن الحق في حكم الجامد الذى لاينمى، والمحصور الذى لا يزيد؟

وإن أردت أن تعرف بطلان هذه الدعوى فانظر إلى قول أبي فراس:

وكنا كالسهام إذا أصابت مراميها فراميها أصابا

ألست تراه عقليا في نسبه ، معترفا بقوة سببه ، وهو على ذلك من فرائد أبي فراس التي هو أبو عذرها والسابق إلى إثارة سرها)(١) .

ثم يجيء بعد ذلك في شرح أبيات من القبيل الثاني فيشيد بها ويشرح سر استحسانها ، ومن هنا كانت المبالغة التي يذكرها في هذا البيت تفوح منها رائحة الكذب والإدعاء ، حيث حاول جاهدا أن يحتج لها ، ويدافع عنها .. وأنى يتم له ذلك وهو يأخذ الشعر مأخذ القضايا المنطقية ، وإذا سلمنا أن الشعر ليس قضايا منطقية ، وأن لغته لا تنقل الواقع الخارجي نقلا حرفيا ، وجدنا أن الحكم بالادعاء والمبالغة أمر لا أساس له وأنه جاء نتيجة لعدم صدق المعيار الذى حوكمت به .

ولقد سلك الخطيب القزويني في ربط هذا الباب بالادعاء والمبالغة الطريق نفسه إذ عرفه بقوله : (وهو أن يدعي لوصف علة مناسبة باعتبار لطيف غير حقيقي)(٢) . ولقد شرح السعد هذا التعريف وجاء في شرحه

(١) أسرار البلاغة : ١٣٤/٢ ، ١٣٥ .

(٢) الإيضاح ضمن سروح التلخيص : ٣٧٣/٤ .

قوله : (أى لا يكون ما اعتبر علة لهذا الوصف علة له في الواقع كما إذا قلت : قتل فلان أعاديه لدفع ضررهم ، فإن ليس في شيء من حسن التعليل ، وما قيل من أن هذا الوصف أعنى غير حقيقي ليس بمفيد ههنا لأن الاعتبار لا يكون إلا غير حقيقي فغلط ، ومنشؤه ما سمع أن أرباب المعقول يطلقون الاعتبارى على ما يقابل الحقيقي ، ولو كان الأمر كما توهم لوجب أن يكون جميع اعتبارات العقل غير مطابق للواقع)(١) . فهو هنا يسير معهما في الحكم بعدم مطابقته للواقع وكونه غير حقيقي وقد حصر الخطيب أقسامه في أربعة أقسام فقال : (وهو أربعة أقسام لأن الوصف ، إما ثابت قصد بيان علته أوغير ثابت أريد إثباته ، والأول إما أن يظهر له في العادة علة أويظهر له علة غير المذكورة ، والثاني إما ممكن أوغير ممكن . أما الأول فكقول أبي الطيب :

لم يحك نائلك السحابُ وإنما حمت به فصبيبها الرحضاء

فإن نزول المطر لايظهر له في العادة علة: وكقول أبي تمام:

لا تنكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالي

وأما الثاني فكقول أبي الطيب:

ما به قتل أعاديه ولكن يتقي إخلاف ماترجو الذئاب

فإن قتل الملوك أعداءهم في العادة لإرادة هلاكهم، وأن يدفعوا مضارهم عن أنفسهم حتى يصفو لهم ملكهم من منازعتهم، لا لما ادعاه من أن طبيعة الكرم قد غلبت عليه ومحبته أن يصدق رجاء الراجين بعثته على قتل أعدائه، لما علم أنه لما غدا للحرب غدت الذئاب تتوقع أن يتسع عليها الرزق من قتلاهم، وهذا مبالغة في وصفه بالجود ويتضمن من المبالغة في وصفه بالشجاعة على وجه تخييلي. أي تناهىٰ في الشجاعة حتى ظهر ذلك للحيوانات العجم فإذا غدا للحرب رجت الذئاب أن تنال من لحوم أعدائه، وفيه نوع آخر من المدح وهو أنه ليس ممن يسرف في القتل طاعة للغيظ والحنق.

(١) مختصر السعد ضمن شروح التلخيص: ٣٧٣/٤.

وأما الرابع فكمعنى بيت فارسي ترجمته:

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته لما رأيت عليها عقد منتطق

فإن نية الجوزاء خدمته ممتنعة)(١).

ومعنى هذا التقسيم والحكم بالادعاء هو تحقق ما يقوله الشاعر في الواقع الخارجي والعرف المعتاد، وإذا عرفنا أن عمل الشاعر يقوم على وجود لغوى قد لا يتفق مع وجود الواقع الخارجي والعرف المعتاد فيجيء مغايرا له في التشكيل والترتيب، بل قد يدمره الشاعر ويقيم على أنقاضه وجودا آخر قوامه اللغة وحياة الكلمات في سياقها، إذا عرفنا ذلك كان على النقد أن يتعالى مع اللغة في هذا الأفق، وأن ينأى عن هذا الحكم البسيط بالحقيقة

أوعدمها، وأن تصرف المبالغة فيه عن التزيد والادعاء إلى وصف وتفسير جهد الشاعر في بلوغ ما يبلغ به الغاية في تحقيق ذلك الوجود الشعرى، ومع أن عبد القاهر قد سار في تحكيم الواقع والمتعارف عليه في العادة والطباع في اللغة الشعرية كما سبقت الإشارة إلى ذلك لم يكتف بذلك بل أخذ يبين دور هذه المخالفة والمغايرة في العمل الفني فمن ذلك شرحه لبيت أبي الطيب السابق حيث قال فيه: (الذى يتعارفه الناس أن الرجل إذا قتل أعاديه فلإرادته هلاكهم. وأن يدفع مضارهم عن نفسه، وليسلم ملكه، و يصفو من منازعتهم، وقد ادعى المتنبى كما ترى أن العلة في قتل هذا الممدوح لأعدائه غير ذلك.

واعلم أن هذا لا يكون حتى يكون في استئناف هذه العلة المدعاة فائدة شريفة فيما يتصل بالممدوح، أويكون لها تأثير في الذم كقصد المتنبي ههنا في أن يبالغ في وصفه بالسخاء والجود، وأن طريقة الكرم قد غلبت عليه ومحبته أن يصدق رجاء الراجين وأن يجنبهم الخيبة في آمالهم قد بلغت به هذا الحد، فلما علم أنه إذا غدا للحرب غدت الذئاب تتوقع أن يتسع عليها الرزق، ويخصب لها الوقت من قتلى عداه كره أن يخلفها، وأن يخيب

(١) الإيضاح ضمن شروح التلخيص: ٣٧٥/٤ـ ٣٨٢.

رجاءها. ولا يسعفها، وفيه نوع آخر من المدح، وهو أن يهزم العدا ويكسرهم كسرا لا يطمعون بعده في المعاودة، فيستغني بذلك عن قتلهم وإراقة دمائهم، وأنه ليس ممن يسرف في القتل طاعة للغيظ والحنق ولا يعفو إذا قدر وما يشبه هذه الأوصاف الحميدة فاعرفه)(١).

وأخذ البيت في سياق النص الذى جاء فيه يعطي لهذا التعليل الذى أتى به الشاعر مكانا طبيعيا يتحرك فيه داخل حركة النص، ويلغى فكرة التحسين التي تخلع على التعليل نتيجة لتثبيت الكلمات وحصر تحركها في صورة مطابقة لما يجرى في العرف والواقع الخارجي. فالبيت قد ورد في

قصيدة لأبي الطيب المتنبي في مدح بدر بن عمار يقول فيها:

إنما بدر بن عمارٍ سحابٌ   هطل فيه ثواب وعقاب
إنما بدر رزايا وعطايا   ومنايا وطعان وضراب
ما يجيل الطرف إلا حمدته   جهدها الأيدي وذمته الرقابُ
ما به قتل أعاديه ولكن   يتقي إخلاف ماترجو الذئابُ
فله هيبة من لايترجى   وله جود مرجى لايهابُ (٢)

ومن أول بيت تلاحظ أن الشاعر يقيم لممدوحه وجودا شعريا لوقارناه بالواقع الخارجي والعرف المعتاد لكان مينًا وكذبا وافتراء، ولكنه عمل الشاعر في الوجود الشعرى عن طريق اللغة الذى يعيد فيه تشكيل الواقع الخارجي، ويعقد فيها بين أجزائه علاقات تقيمها الكلمات بما تحويه من نبض وإشعاع.

لقد رفع الشاعر ممدوحه الإنسان الذى ذكر لنا اسمه واسم أبيه من حدود الإنسانية إلى أفق شعرى يتعالى فيه على من حوله، ويجعلهم في علاقة متوترة معه، يرجون خيره ويخافون عقابه، ويجعله الممسك بقطبي هذه

(١) أسرار البلاغة: ١٥٨/٢.

(٢) التبيان في شرح الديوان: ١٣٣/١، ١٣٤.

الضدية في كل رمز من الرموز التي جعلها ممثلة له، فهو سحاب هطل فيه الثواب والعقاب، وهو الرزايا والعطايا، وهو أيضا المنايا والطعان والضراب، وكأن الشاعر يدعونا بادئ ذى بدء ألا نفكر في ممدوحه كنموذج إنساني فحسب، بل علينا أن نعايش الشاعر هذا الوجود المتعالي الذى أقامه لممدوحه.. وذلك كما يتضح من خلال أسلوب القصر، إنما بدر بن عمار سحاب، ومن خلال تكريره في البيت الثاني: إنما بدر رزايا وعطايا... وتمضي مع الشاعر في هذا الوجود، الذى أصبح ما إن تجيل الأعين فيه الطرف إلا وتحمده الأيدى لعطاياه، وتذمه الرقاب خوفا من العصف بها،

حتى إذا أتينا إلى هذا البيت الذى نحن بصدده. وجدنا أن نفى العداوة وإرادة إلحاق الضرر بأعدائه عند قتلهم كانت طبيعية، وتتحرك في مكانها داخل هذا الوجود الشعرى فتعالى الممدوح إلى هذه الرموز التي قدمها الشاعر رفعته من إنسانيته.. في الوقت الذى أطاحت بأعدائه من إنسانيتهم، وجعلتهم لا قيمة لهم في وجود الممدوح الشعرى ومن ثم فلا مجال لأن تكون علاقته معهم علاقة إنسانية فيقتلهم لإلحاق الضرر بهم والتخلص من شرهم كما هو معتاد وبرز مكانهم مجموعة من الحيوانات المتوحشة «الذئاب» التي تأتي على الإنسان بعد انتهاء إنسانيته وتدميرها تنهش وتأكل حطامه الجسدى وبمثل هذا التحليل نستطيع أن نتبين طبيعية التعليل في قول أبي الطيب المتنبي:

لم تحك نائلك السحاب وإنما حمت به فصبيبها الرحضاء(١)

لأن هذا التعليل يسير في مكان طبيعي، يتحرك فيه ضمن حركة الأشياء داخل هذا الوجود الشعرى الذى أقامه الشاعر لممدوحه، والذى تنمو فيه الأشياء نموا عضويا. ففي هذه القصيدة يقول أبو الطيب(٢):

بيني وبين أبي عليّ مثله شم الجبال، ومثلهن رجاء

(١) الرحضاء: عرق الحمى (التبيان في شرح الديوان: ١/٣٠).
(٢) التبيان في شرح الديوان ١/١٨، ١٩.

وعقاب لبنان، وكيف بقطعها وهو الشتاء وصيفهن شتاء
لبس الثلوج بها عليّ مسالكي فكأنها ببياضها سوداء
وكذا الكريم إذا أقام ببلدة سالَ النضار بها وقام الماء(١)
جمد القطار ولو رأته كما ترى بهتت فلم تتبجسِ الأنواء(٢)

وهو كما ترى يقيم مسافة بينه وبين الممدوح في العلو والوقار كالمسافة التي بينهما في المكان، ثم ينساق في شرح مشقة الطريق إليه، هذه المشقة التي لم تعد نتيجة لظروف طبيعية فحسب، بل أصبح وجود الممدوح الشعرى

يلعب فيها دورا بارزا فهو الذى يجمد الماء ويكوّن الثلوج، وأصبح الممدوح في صراع مع الطبيعة ينافسها ويجول بعطائه دون عطائها فيجمّدُ ماءها، ويسيل ذهبَه، ويمضي بنا النص حتى نجد أن الممدوح قد بلغ درجة أصبح فيها اسمه هارون غالبا في المنافسة في الحصول على الالتصاق بهذا الممدوح:

لم تسم يا هارون لا بعد ما اقترعــــت ونازعت اسمك الأسماء
فغدوت واسمك فيك غير مشارك والناسُ فيما في يديك سواء(٣)

ثم يبلغ وجوده الشعرى درجة يصبح فيها مركز العطاء الذى ينطلق فيملأ المدن، ويتجاوز بها الثناء، بل يتبرأ المجد من أن يزداد الممدوح فيه درجة بعد ذلك لأنه وصل إلى الدرجة التي تنتهي عندها حدود المجد، حيث برز وحده في الميدان، فلا عطاء إلا عطاؤه، ولا وجود إلا وجوده، وبدا إعطاء الطبيعة معلولا فالماء قد تجمّد بل قد امتدت العلة إلى وسيلة الإشادة بالممدوح وشكره، فأصبح معلولا، وأصبح الفكر منكوبا، وأصبح المجد في درجة يخاف معها أن يزيد الممدوح فيتبرأ منه لأنه قد أصبح فوق طاقته.

لَعَمَمتَ حتى المَدْنُ مِنك مِلاء ولفتَّ حتى ذا الثناء لفاء

(١): النضار: الذهب (البيان فى شرح الديوان ١٩/١).
(٢) تبجس: تتفتح (المصدر السابق: ١٩/١).
(٣) المصدر السابق: ٢٨/١.

فالفخر عن تقصيره بك ناكبٌ والمجد من أن تستزاد براء(١)

وبعد ذلك أخذ يبزه في المقام المستغنى فيه عن كل شكر وثناء، والمترفع عن كل ما يضيره كغنى هذا شأنه، ومبعدا عنه كل ما يظن أنه يسلبه هذا الوجود الذى أقامه الشاعر له:

فإذا سئلت فلا لأنك مُحوجٌ وإذا كَتَمْتَ وَشَتْ بك الآلاء
وإذا مدحت فلا لتكسب رفعة للشاكرين على الإله ثناء(٢)

ثم يعود إلى ما يظهر من عطاء الطبيعة الذى سبق أن أبرز لنا الصراع بين الممدوح وبينها وأقامه فى درجة مرتفعة عنها، ونفى أن يكون ذلك لحاجته إليه:

وإذا مطرت فلا لأنك مُجدِب   يُسقى الخصيبُ وتمطرُ الدأماءُ(٣)

ثم يعود في هذا البيت الذى نحن بصدده:

لم تحك نائلك السحاب وإنما   حمت به فصبيبها الرحضاء(٤)

ويظهر عطاء الطبيعة معلولا أمام عطاء الممدوح كما سبق أن رأينا تلك العلة في الماء الذى قام أمام سيل نضاره، وفي القطار الذى جمد، وفي الأنواء التي بهتت فلم تتفتح، وهنا لم تكن السحب مقلدة لعطائه بل كانت معلولة منها وكانت تلك العلة هي داعيها إلى أن تمطر، ولذلك كان هذا التعليل طبيعيا ضمن حركة النص الذى أقام للممدوح وجودا يتعالى فيه على ما حوله.

---

(١) المصدر السابق: ٢٩/١ وفيه: اللفاء: الحقير الخسيس، وقيل: هو الذى دون الحق.
(٢) المصدر السابق: ٣٠/١.
(٣) المصدر السابق: ٣٠/١ والدأماء: البحر.
(٤) المصدر السابق: ٣٠/١.

٣ ـ تجاهل العارف

ومن الأساليب التي قالوا فيها بالمبالغة على مفهوم صحيح لها، لا يخرج بها عن الحد، ولا يزيد عن الأصل. بل فسروا مجيئها فيها ببلوغ الغاية في غرض المتكلم ومقصوده، هذا الأسلوب الذى سماه ابن المعتز بـ(تجاهل العارف) ومثل له بقول زهير:

وما أدرى وسوف إخال أدرى أقوم آل حصنٍ أم نساء

وقول ابن أبي أمية :

فديتك لم تشبع ولم ترو من هجرى   أتستحسن الهجران أكثر من شهر
أراني سأسلو عنك إن دام ماترى   بلا ثقة لكن أظن ولا أدرى (١)

وسماه أبو هلال بـ (تجاهل العارف ومزج الشك باليقين) وعرفه بقوله : «هو إخراج ما يعرف صحته مخرج ما يشك فيه ليزيد بذلك تأكيدا» (٢).

وسماه ابن رشيق بالتشكك، وأشار إلى أن فائدته هي (الدلالة على قرب الشبهين حتى لا يفرق بينهما، ولا يميز أحدهما من الآخر) ومثل له بقول زهير السابق، وبقول ذى الرمة :

أيا ظبية الوعساء بين جلاجل   وبين النقا أأنت أم أم سالم

وبقول القائل الذى نسبه للعرجي (٣) :

بالله ياظبيات القاع قلن لنا   ليلاى منكن أم ليلى من البشر (٤)

---

(١) البديع : ٦٢، ٦٣   (٢) الصناعتين : ٤١٢.

(٣) قال محقق العمدة الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد: (اضطراب العلماء في نسبة هذا البيت، فزعم قوم أنه لمجنون ليلى وكأنهم اغتروا بذكر ليلى فيه، وقد بحثت جميع ديوانه فلم أجده، وقد نسبه المعيني كالمؤلف إلى العرجي، ونسبه العباس لأعرابي ولم يسمه، ونسبه الباخرزى لبدوى سماه كاهلا الثقفي ونسبه قوم للحسين ابن عبد الله: حاشية العمدة ٢/٦١.

(٤) العمدة : ٢/٦٦

وسماه السكاكي بـ (سوق) المعلوم مساق غيره، ولم يحب تسميته بالتجاهل (١).

وأشار الخطيب إلى تسميته بالتجاهل، وتسمية السكاكي له، وذكر عددا من أغراضه التي تفيد المبالغة فيما يقصد إليه المتكلم فذكر منها :

المبالغة في المدح كما في قول البحترى :

ألمع برق سرى أم ضوء مصباح   أم ابتسامتها بالمنظر الضاحي

أمع برق سرى أم ضوء مصباح أم ابتسامتها بالمنظر الضاحي

أو في التدله في الحب كما في قول الحسين بن عبد الله الغريمي :

بالله يا ظبيات القاع قلن لنا ليلاى منكن أم ليلى من البشر

وقول ذى الرمة السابق (٢) .

ومقصود هذا الأسلوب في الشعر هو الإفصاح عن الاختلاط بين الأمرين في الرؤية الشعرية ، وإذا كان كل من التشبيه والاستعارة كما سبق أن رأينا يقوم على تزاوج وتفاعل في الوجود الشعرى بين كل من طرفيهما بحيث يصبح كل من الطرفين في وضع إمكاني يتفاعل فيه مع الطرف الآخر ، وذلك نظرا لما في الكلمة من طاقة تستطيع أن تتحرك بها في السياق وفقا للرؤية الشعرية للأشياء ... إذا كان الأمر كذلك فيهما ، فإن في هذا الأسلوب مظهرا لهذا الإمكان الذى تظهر فيه الأشياء بعد أن دخلت في حيز اللغة الشعرية غير مستقرة في واقعها الخارجي ، فينقل لنا الشعر هذه الرؤية ، ويشركنا عن طريق أسلوب التشكك هذا في تأملها . ونظرا لكون هذا الأسلوب يظهر لنا ذلك الإمكان قبل وقوعه في التشبيه أو الإستعارة لذلك كان له من القبول ماليس للغلو والإغراق ، يقول ابن رشيق : (وهو من ملح الشعر ، وطرف الكلام . وله في النفس حلاوة وحسن موقع بخلاف ما للغلو والإغراق) (٣)

---

(١) مفتاح العلوم : ١٨٠ .

(٢) الإيضاح ضمن شروح التلخيص : ٤/٤٠٤ ، ٤٠٥ .

(٣) العمدة : ٦٦/٢ .

وأما قوله تعالى : **(قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين)** فهو ليس من هذا الأسلوب كما قال بذلك الخطيب (١) ، وإنما جاء الأسلوب فيه وفق مقتضيات الحجاج والجدل يقول الزمخشرى في ذلك : (وهذا من الكلام المنصف الذى كل من سمعه من موال أو مناف قال لمن خوطب به : قد أنصفك صاحبك ، وفي

درجة بعد تبقدمه ماقدم من التقرير البليغ دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى، ومن هو في الضلال المبين، ولكن التعريض والتورية أفضى بالمجادل إلى الغرض وأهم به على الغلبة، مع قلة شغب الخصم وفل شوكته بالهوينا ونحوه قول الرجل لصاحبه علم الله الصادق منى ومنك، وأن أحدنا لكاذب ومنه بيت حسان:

أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء(٢)

---

(١) الإيضاح ضمن شروح التلخيص: ٤/٤٠٥.

(٢) الكشاف: ٣/٤٥٩.

٤ ــ تأكيد المدح بما يشبه الذم

وهذا الأسلوب من الأساليب التي تظهر فيها المبالغة في بلوغ الغاية والنهاية فيما يقصد إليه القائل به، وقد سماه بعضهم بهذه التسمية كابن المعتز(١)، والسكاكي(٢)، وشراح التلخيص(٣)، وبعضهم سماه

بـ(الاستثناء) كأبي هلال (٤)، وابن رشيق الذى قال: (وليس هذا الاستثناء على مارتبه النحويون فتطلبه بحروف الاستثناء المعروفة، وإنما سمي اصطلاحا وتقريبا، سماه هؤلاء المحدثون نحو الحاتمي وأصحابه ولم يسم حقيقة...)(٥) ومن أمثلته المشهورة قول النابغة (٦):

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم   بهن فلول من قراع الكتائب

وقول النابغة الجعدى (٧):

فتى كملت أخلاقه غير أنه   جواد فما يبقى على المال باقيا
فتى كان فيه مايسر صديقه   على أن فيه مايسوء الأعاديا

وقد جعل بعضهم منه قوله صلى الله عليه وسلم: (أنا أفصح العرب بيد أني من قريش)(٨).

---

(١) البديع: ٦٢ (٢) مفتاح العلوم: ١٨٠.
(٣) شروح التلخيص: ٣٨٦/٤ (٤).
(٥) العمدة: ٤٨/٢.
(٦) مثل به لذلك في البديع: ٦٢، والصناعتين: ٤٢٤، والعمدة: ٢٤٨، وشروح التلخيص: ٣٨٧/٤.
(٧) مثل بالبيت الأول منها في البديع: ٦٢، وشروح التلخيص: ٣٩٣/٤، وكليهما في الصناعتين: ٤٢٤، والعمدة: ٤٨/٢.
(٨) شروح التلخيص: ٣٩٠/٤، ٣٩١.
قال الدكتور علي العمارى: «وقد اشتهر بين الناس حديث منسوب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم هو (أنا أفصح العرب بيد أني من قريش واسترضعت في بني سعد بن بكر) وكثير مايستشهد به المؤلفون وبخاصة المحدثين منهم، ولكن المحققين = من العلماء يؤكدون أنه حديث موضوع.

والذى أقوله هنا هو هل القول بتأكيد المدح بما يشبه الذم، وأن ذلك جاء للمبالغة في المدح يفسر هذا الأسلوب؟

أظن أن ذلك ليس إلا وصفا للأسلوب، و يبقى بعد ذلك في النفس

تساؤل وهو لماذا استثنى من صفة المدح هذا ما يشبه الذم ؟

وإذا كان لكل سياق حركته المستقلة ، التي يوجدها الأسلوب بطريقة تركيبه فيه ، فإن هذا التفسير خاضع بطبيعة الحال لتلك الحركة النابعة من سياق الكلام فمثلا في قول النابغة الذبياني :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

نجد أن التطهر من كل عيب ، لم يصل إليه هؤلاء إلا بالجهاد والمعاناة ورمز ذلك هو « سيوفهم » التي لم تسلم من العيب ، وفي ذلك شرفها وشرفهم ، لأن ذلك يدل على مجاهدتهم ، وبذلهم كل غال وكل وسيلة ممكنة في الوصول إلى هذه المرحلة الخالية من كل عيب ، التي يستهينون في سبيل الوصول إليها بكل ما خسروه من نفوس ، وما بذلوه من أموال للجهاد في سبيلها ، ولقد كان « فلول السيوف » التي كان العرب يحرصون على صيانتها رمزا لهذا الجهاد وهذه المعاناة ، ولقد كان في ذلك تحقيق لمعادلة صعبة ، فالطهر لا تصل إليه بالتطهر وفي التطهر مغالبة ومجاهدة ، حرص الشاعر على رصد حركتها ، وتسجيلها لتبرز الطهر القائم على التطهر والتطهير.

وأما قول النابغة الجعدي :

فتى كملت أخلاقه غير أنه جواد فما يبقى من المال باقيا

فتى كان فيه ما يسر صديقه على أن فيه ما يسوء الأعاديا

قال الشهاب الخفاجي في شرحة لكتاب (الشفا) للقاضي عياض (إن الحفاظ أجمعوا على أنه حديث موضوع) والرواية في (الشفا) : (أنا فصح من نطق بالضاد بيد أني من قريش) .

قلت : ومع أنه حديث موضوع معناه صحيح » (بلاغة الرسول : ٨) .

فلقد حمل البيت الأول لفتاه صفة هي أقصى غاية في الشرف والفضل فهو « فتى كملت أخلاقه » وإذا كان كما الأخلاق غاية شريفة ، فإن نيل هذه المرتبة لا يتصور الوصول إليه ، دون جهد ومعاناة ، ومن هنا كان

المستثنى «غير أنه جواد فما يبقى من المال باقيا» رمزا لهذه المعاناة، وهذا الجهد، إنها التضحية بما جبلت النفس على حبه، وعلى الاستكثار منه، حتى ولو وصل ذلك إلى درجة العيب وهي درجة الإسراف والتبذير. ولقد حملت العربية إلينا هذا العيب الذى يؤول إليه الكرم، فقال ابن منظور في اللسان: (وتخرق الكرم اتسع، والخِرق بالكسر الكريم المتخرق في الكرم، وقيل هو الفتى الكريم الخليقة... ويقال هو يتخرّق في السخاء إذا توسع فيه، وأنشد ابن برى للأبيرد اليربوعي:

فتًى إن هو استغنى تخرّق في الغنى   وإن عض دهر لم يضع متنه الفقرُ[1])

فقد اتخذ الاتساع في الكرم دلالة عليه من هذه المادة التي تحمل في معانيها الحمق وعدم إحسان الرجل العمل والتصرف في الأمور حيث قيل إن الأخرق هو (الأحمق أومن لا يحسن الصنعة)[2].. ولذلك جاء القرآن الكريم مادحا وموجها إلى ضبط النفس في التوسط بين هذين الأمرين، الشح والسفه فقال تعالى:

« وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا »[3]

وقال سبحانه ذاكرا صفة عباد الرحمن في ذلك:

« وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا »[4]

---

(١)، (٢) لسان العرب: خرق.

(٣) سورة الإسراء: ٢٩.

(٤) سورة الفرقان: ٦٧

وتضحية هذا الفتي بالمال، لبلوغ كمال الخلق يصاحبه التضحية بالنفس، ومقارعة الأعداء، ومقاومتهم وتعقبهم حتى بلغت تلك التضحية سرور الأعداء وإساءة الأصدقاء، فهو فتى فيه الصفتان المتناقضتان، والتي

اتخذ من إحداهما وسيلة لبلوغ الغاية في الأخرى، فلم يبلغ سرور أصدقائه، لا بإساءة أعدائه، ولذلك كان فتى فيه الشرف والعيب، ولكنه العيب الذى يقاوم العيب فيزيله عن طريقه إلى الشرف والفضل.

الباب الثالِث

مكانة المبالغة في البَلاَغة العَربيَّة

الفصل الأول :

شيوع التعليل بالمبالغة وأسبابه

الفصل الثاني :

المبالغة بين القبول والرفـــض

الفصل الأول
شيوع التعليل بالمبالغة وأسبابه

لقد شاع التعليل بالمبالغة في تراثنا النقدى والبلاغي شيوعاً ضم الكثير من الصور البيانية من تشبيه ومجاز واستعارة وكناية، والكثير من تنوع الأساليب من تقديم، وأمر، ونهي، ونداء، واستثناء، والكثير من صور التوكيد وشمل كثيراً من أبواب البديع ــ كما ذكر فيما سبق ــ وكانت هذه الكثرة التي تضمها المبالغة شاهداً من شواهد قبولها حيث يقول ابن رشيق: (ولو بطلت المبالغة كلها وعيبت لبطل التشبيه وعيبت الاستعارة إلى كثير من محاسن الكلام...)(١).

وسنحاول في هذا الباب الوقوف عند الأسباب والعوامل التي أدت إلى شيوع هذا التفسير الذى حجب وراءه الكثير من قيم الكلام، وكفى النقاد مؤونة البحث عن قيمها داخل العمل الأدبي، وعلاقتها بقائلها الذى لا يمكن أن نفصله عن قوله، وأن نزوى إبداعه وتفرده، ونميزه في قوانين كلّيّة يسير بها النقد العمل الأدبي.

١ ــ فكرة صياغة المعنى:

وهذه الفكرة تفترض للمعنى وجودا سابقاً على التلفظ به، أى أن المعاني توجد أولاً ثم تصاغ الألفاظ، أوتأتي الألفاظ لصياغتها، وتظهر هذه الفكرة بوضوح عند الجاحظ الذى قال: (والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والقروى والبدوى، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وصحة الطبع، وكثرة الماء وجودة السبك وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير)(٢).

---

(١) العمدة: ٢/ ٥٥ (٢) الحيوان: ٣/ ١٣١

ولقد ظلت أصداء هذه الفكرة تتردد في البلاغة والنقد العربيين من

بعده. وقامت على هذا الافتراض أفكار أخرى فيها كتخير اللفظ الشريف للمعنى الشريف، أوما يسمى المواءمة بين الألفاظ والمعاني، وقام عليها أيضاً تعريف علم البيان بأنه أداء المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة، ومسألة الإيجاز والإطناب والمساواة، وحتى الإمام عبدالقاهر الذى حاول بعض الباحثين أن يرى في كلامه ضدا لهذه الفكرة وقضاء على ثنائية اللفظ والمعنى في النقد العربي ـ كان يسير في الطريق نفسه، مضيفاً أهمية ترتيب الكلام على ضوء البلاغة النحوية بين أجزائه في إحداث خصوصية فى دلالة الصياغة بين ترتيب، وترتيب وليست نظرية النظم عنده (إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها..)(١) فهذا هو السبيل (فلست بواحد شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم، ويدخل تحت هذا الاسم، إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه في حقه)(٢). فلا زال الترتيب ترتيباً لمعان سابقة على التلفظ بها ويوضح ذلك قوله: (فإذا وجب لمعنى أن يكون أولا في النفس، وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولا في النطق، أوإن تحتاج بعد ترتيب المعاني إلى فكر تستأنفه لأن تجيء بالألفاظ على نسقها فباطل من الظن ووهم يتخيّل إلى من لا يوفي النظر حقه، وكيف تكون مفكرا في نظم الألفاظ وأنت لا تعقل لها أوصافا وأحولا إلا إذا عرفت أن حقها أن تنظم على وجه كذا)(٣) ويؤكد قوله هذا بقوله: (واعلم أن من سبيلك أن تعتمد هذا الفصل حدا، وتجعل النكت التي ذكرتها فيه على ذكر منك أبدا... ولا سيما ما ذكرت من أنه لا يتصور أن تعرف للفظ موضعا من غير أن تعرف معناه، ولا أن تتوخى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيباً ونظماً، وأنك تتوخى الترتيب في المعاني وتعمل

---

(١) دلائل الإعجاز: ٦٤ (٢) المصدر السابق: ٦٥

(٣) دلائل الإعجاز: ٤٣

الفكر هناك، فإذا تم لك ذلك أتبعتها الألفاظ وقفوت بها آثارها، وأنك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتج إلى أن تستأنف فكرا في ترتيب الألفاظ بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني وتابعة لها ولاحقة بها، وأن العلم بمواقع المعاني في النفس علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق)(١) وهنا يتبين وهم الدكتور محمد زكي العشماوى الذى استنتج من هذا انتهاء عبدالقاهر (إلى أنه لا انفصال بين عنصرى اللفظ والمعنى في عملية الخلق الأدبي فهما يولدان معا في نفس اللحظة، وكذلك لا انفصال بينهما في عملية النقد الأدبي...)(٢) ووهم من رددوا قوله هذا(٣)، متناسين قول عبدالقاهر الصريح في ذلك: (فإن الاعتبار ينبغي أن يكون بحال الواضع للكلام والمؤلف له، والواجب أن ينظر إلى حال المعاني معه لا مع السامع، وإذا نظرنا علمنا ضرورة أنه محال أن يكون الترتيب فيها لترتب الألفاظ ومكتسبا عنه، لأن ذلك يقتضي أن تكون الألفاظ سابقة للمعاني وأن تقع في نفس الإنسان أولا ثم تقع المعاني من بعدها وتالية لها بالعكس مما يعلمه كل عاقل إذا هو لم يؤخذ عن نفسه، ولم يضرب حجاب بينه وبين عقله، وليت شعرى هل كانت الألفاظ إلا من أجل المعاني؟ وهل هي إلا خدم لها؟ ومعرفة على حكمها؟ أوليست هي سمات لها، وأوضاعاً قد وضعت لتدل عليها؟ فكيف يتصور أن تسبق المعاني وأن تتقدمها في تصور النفس؟ إن جاز ذلك جاز أن تكون أسامي الأشياء قد وضعت قبل أن عرفت الأشياء وقبل أن كانت، وما أدرى ما أقول في شيء يجر الذاهبين إليه أشباه هذا من فنون المحال ورديء الأحوال)(٤) وقوله الآخر الذى جاء وكأنه توضيح لقول الجاحظ السابق الذى جعل الشأن فيه لصياغة المعنى وتصويره إذ يقول عما ينبغي أن يعلم من شأن المعاني: (.. أن

(١) المصدر السابق: ٤٤ .

(٢) قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث: ٣١٨

(٣) النقد التحليلي عند عبد القاهر الجرجاني: ١٢، التصوير البياني: ٤٣٣/٤٣٤ .

(٤) دلائل الإعجاز: ٣٢٠

يعلم أن سبيل المعاني سبيل أشكال الحلّي كالخاتم والشنف والسوار فكما أن من شأن هذه الأشكال أن يكون الواحد منها غفلا ساذجا لم يعمل صانعه فيه شيئا أكثر من أن يأتي بما يقع عليه اسم الخاتم... وأن يكون مصنوعاً بديعا قد أغرب صانعه فيه، كذلك سبيل المعاني أن ترى الواحد منها غفلا ساذجا عاميا موجودا في كلام الناس كلهم ثم تراه نفسه وقد عمد إليه البصير بشأن البلاغة وإحداث الصور في المعاني فيصنع فيه ما يصنع الحاذق حتى يغرب في الصنعة ويدق في العمل... وشواهد ذلك حاضرة لك كيف شئت.... تنظر إلى قول الناس. الطبع لا يتغير ولست تستطيع أن تخرج الإنسان عما جبل عليه فترى معنى غفلا عاميا معروفا في كل جيل وأمة، ثم تنظر إليه في قول المتنبي:

يراد من القلب نسيانكم   وتأبى الطباع على الناقل(١)

(فالمعنى الغفل الساذج هنا، هو المعنى المطروح هناك، وكلاهما مثل المعنى عاريا قبل أن يصير بناء لغوياً)(٢).

وفكرة المعنى السابق المقابل للتشكيل الفني كما يرى الدكتور عبد الفتاح عثمان (مستمدة من تصور الشعر صناعة قولية لا بد فيها من وجود المادة والصورة معا، بل إنها مستمدة من طبيعة التفكير في القرون الوسطى، والذى يرى الكون مكونا من المادة والصورة، وان الشعر صنعه كبقية الصناعات الأخرى)(٣) وإذا كنا نجد جذور فكرة التعبير عن المعنى الواحد بطرق مختلفة عند عبد القاهر حيث يقول: (وإذ قد عرفت ذلك فإن العقلاء إلى هذا قصدوا حين قالوا: إنه يصح أن يعبر عن المعنى الواحد بلفظين ثم يكون أحدهما فصيحا والآخر غير فصيح، كأنهم قالوا: إنه يصح أن تكون

(١) المصدر السابق: ٣٢٤

(٢) نظرية الشعر في النقد العربي القديم: ١٤٦

(٣) المرجع السابق: ١٤٦/١٤٧

ها هنا عبارتان أصل المعنى فيها واحد ثم يكون لإحداهما في تحسين ذلك المعنى وتزيينه وإحداث الخصوصية تأثير لا يكون للأخرى) (١) فكيف نجد عنده قضاء على ثنائية اللفظ والمعنى، أوالقول بعدم أسبقية المعنى كما توهم هؤلاء الباحثون. والآن ما هو دور هذه الفكرة في القول بالمبالغة ؟!

إن هذه الفكرة التي تفترض للمعنى وجودا سابقا على إخراجه افترضت أيضاً أن هناك حداً وسطاً للمعنى فما زاد عن هذا الحد سمي إفراطاً أومبالغة وما ساواه سمي صدقاً واقتصاداً، وما قصر عنه سمي تفريطاً، ويتضح ذلك في كثير من أحكام النقد العربي فمن ذلك حكم الجاحظ بالإسراف والإفراط على بعض الأبيات والحكم بالاقتصاد والصدق على البعض الآخر حيث يقول: (وإذ قد ذكرنا شيئاً من الشعر في صفة الضرب والطعن فقد ينبغي أن نذكر بعض ما يشاكل هذا الباب من إسراف من أسرف، فأما من أفرط فقول مهلهل:

فلولا الريح أسمع من بحجر صليل البيض تقرع بالذكور(٢)

ومما أدخل تحت هذا الحكم قول أبي قيس بن الأسلت:

قد حصت البيضه رأسي فما أطعم غمضاً غير تهجاع

وقول عنترة:

رعيناهم والخيل تردى بالقنا وبكل أبيض صارم وصال
وأنا المنية في المواطن كلها والطعن مني سابق الآجال(٣)

ثم أورد بعد ذلك أشعار المقتصدين ويصفها بالصدق فيقول: (ومن أشعار المقتصدين في الشعر أنشدني قطرب:

تركت الركاب لأربابها فأجهدت نفسي على ابن الصعق
جعلت يدىّ وشاحاً له وبعض الفوارس لا يعتنق

---

(١) دلائل الإعجاز: ٣٢٤/٣٢٥ (٢) الحيوان: ٦/٤١٨

(٣) المصدر السابق: ٦/٤١٩، ٤٢٠

ومن صدق على نفسه عمرو بن الإطنابة حيث يقول:

وإقدامي على المكروه نفسي وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدى أو تستريحي (١)

وأورد من ذلك قول عمرو بن معديكرب:

ولما رأيت الخيل زورا كأنها جداول زرع أرسلت فاسبطرّت
فجاشت عليّ النفس أول مرة فردت على مكروهها فاستقرت (٢)

ويظهر هذا الافتراض بوضوح عند قدامة بن جعفر الذى يقول: (... إني رأيت الناس مختلفين في مذهبين من مذاهب الشعر وهما: الغلو في المعني إذا شرع فيه، والاقتصار على الحد الأوسط) (٣) ويوضح ابن الأثير معاني هذه الحدود (الإفراط – الاقتصاد، التفريط) على ضوء هذا الافتراض في علم البيان فيقول: (أما الاقتصاد فهو: أن يكون المعنى المضمر في العبارة على حسب ما يقتضيه المعبر عنه في منزلته، وأما التفريط والإفراط فهما ضدان:

أحدهما: أن يكون المعني المضمر في العبارة دون ما تقتضيه منزلة المعبر عنه.
والآخر: أن يكون المعنى فوق منزلته) (٤).

وسهل هذا الافتراض تحديد الألفاظ الدالة على حدود المعنى، وكان الحكم بالتفريط أو الاعتدال أو الافراط نتيجة للمقارنة بين الألفاظ والمعنى مع أن المقارنة بينها تعسفية ومحض تحكم لا وجه له لأن الألفاظ خاصة في الأعمال الأدبية هي التي توجد المعنى وليست مجرد أدوات للتعبير عنه، والمعنى الحقيق هو ما نجم عن الألفاظ بكامل حروفها فضلا عن كلماتها لأن (تعقل المعاني قلما ينفك عن تخيل الألفاظ، وكأن المفكر في المعاني يناجي نفسه بألفاظ مخيّلة، ولو أراد تجريدها عنه أشكل عليه الأمر) (٥).

(١) المصدر السابق: ٦/٤٢٥
(٢) المصدر السابق: ٦/٤٢٥
(٣) نقد الشعر: ٩١
(٤) المثل السائر: ٣١٦
(٥) انظر التركيب اللغوى للأدب: ٤٦

ولقد كانت كثير من الأحكام بالمبالغة ناتجة عن تلك النظرة التي بينا خطلها. ويوضح هذا تعريف قدامة بن جعفر للمبالغة حيث يقول: (وهي أن يذكر الشاعر حالا من الأحوال في شعر لووقف عليها لأجزأ ذلك في الغرض الذى قصد) (١) فكأن المعنى معروف لدى الشاعر مسبقا ثم يعبر عنه بالألفاظ التي تدل عليه ثم يزيد عليه ليكون أبلغ وأوفى في غرضه، ومن هذا المنطلق كان «ونتبعه الكرامة حيث سارا» في قول عمير بن الأيهم التغلبي .. (٢)

ونكرم جارنا مادام فينا ونتبعه الكرامة حيث سارا

زيادة على المعنى. وقول الحكم الخضرى «وهو غرثان أعجف» في قوله:

وأقبح من قرد وأبخل بالقِرَى من الكلب أمسى وهو غرثان أعجف

زيادة إذ أنه كان يجرى في الذم كما يقول قدامة بن جعفر: «أن يكون هذا المهجو أبخل من الكلب، ومن المبالغة في هجائه وهو غرثان أعجف) (٣) وكذلك القول في بقية الأبيات التي أوردها قدامة بن جعفر تحت هذا الباب». والتي نقلها عنه أبوهلال العسكرى وأضاف إليها ما رآه يجرى على هذا المقياس من القرآن الكريم والنثر الفني فتراه يحكم من هذا المنطلق على مرضعة في قوله تعالى:

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ » (٤)

---

(١) نقد الشعر: ٣١٦.

(٢) بعض المصادر تذكره باسم عمير كنقد الشعر والصناعتين وبعضها تذكرة باسم عمرو كالموشح والعمدة.

(٣) المصدر السابق: ١٤٦ (٤) سورة الحج: ١، ٢

حيث يقول: (ولو قال تذهل كل امرأة عن ولدها لكان بياناً حسناً وبلاغة كاملة، وإنما خص المرضعة للمبالغة، لأن المرضعة أشفق على ولدها لمعرفتها بحاجته إليها وأشغف به لقربه منها ولزومه لها لا يفارقها ليلا ولا نهارا. وعلى حسب القرب تكون المحبة والإلف) (١) والمبالغة ليست سيئة إذا أخذت في التراكيب كما هي في المفردات على أساس انها شيء أصيل في المعنى لا يتم إلا به ولكنها سيئة إذا أخذت على أساس أنها إضافة تأتي بعد تمام المعنى كما رأينا عند قدامة بن جعفر وأبي هلال في بعض تفسيراته لها وأن المعنى يتم بدونها كما هو موقف أبي هلال من هذه الآية. ذلك لأن هذا التعليل بالمبالغة عنده يدل على أن المعنى يتم بدونها كما صرح هو وأن فائدة ذكر المرضعة تكاد تنحصر في تقرير المعنى وتوكيده مع أن لفظ المرضعة بكامل حروفه بما في ذلك حرف التاء الذى بين المفسرون دلالته والذى يدل على أنها: (تدهش عنه في حال إرضاعها له ولهذا قال: كل مرضعة ولم يقل كل مرضع) (٢) يظهر للمتأمل خلال السياق القرآني للكلام بعداً آخر يختلف عن هذا البعد إذ يبرز لنا الانقطاع عن الحياة الدنيا في هذا اليوم بقطع أسبابها فورا فالحامل تضع حملها والمرضع تدهش عن رضيعها الذى ترضعه ذلك لأن الأمر أصبح أمر حياة أخرى لا عدة فيها للإنسان إلا عمله ولا مجال فيها لأى بناء أورابطة دنيوية: (**يوم يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه**)(٣).

وفكرة وجود المعنى قبل إخراجه، وأن اللفظ يأتي لصياغته وإخراجه هي التي جعلت النظر إلى المجاز والاستعارة والكناية على أنها وسائل لتوكيد المعنى، وتقريره، والمبالغة فيه أوشرحه وتوضيحه يقول ابن جنى: (وإنما يقع المجاز ويعدل إليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة وهى: الاتساع، والتوكيد، والتشبيه، فان عدم هذه الأوصاف كانت الحقيقة ألبتة) (٤) ويفسر ابن

(١) الصناعتين: ٣٧٨
(٢) تفسير ابن كثير: ٣/٢٠٥
(٣) سورة عبس: آيات ٢٣ — ٢٧
(٤) المثل السائر: ١/٣٦٤

الأثير التوكيد عند ابن جني بالمبالغة فيقول: (ولا شك أنه أراد به المبالغة والمغالاة في إبراز المعنى الموهوم إلى الصورة المشاهدة فعبر عن ذلك بالتوكيد ولا مشاحة له في تعبيره، وإذا أراد به ذلك فهو والتشبيه سواء على ماذكره، ولا حاجة إلى ذكر التوكيد مع التشبيه)(١) ودلالة التوكيد على المبالغة عند ابن جنى أمر أشرنا إليه سابقاً ونقلنا من أقواله مايدل عليه هناك.

وعلى هذا كانت الاستعارة في البلاغة العربية وسيلة إضافية تأتي لبيان المعنى أو توضيحه أوتوكيده والمبالغة به، والمعنى الذى تخرجه الاستعارة هو المعنى الأصلي (الحقيقة) وهو كما افترضوه معنى حرفي يشبه اللغة العلمية تماماً، وكانت الميزة التي تتميز بها الاستعارة هي مايظهر من فرق بين المعنى الأصلي المفترض وبين المعنى بعد أن دخلته الاستعارة وما أحدثته من خصوصية فيه وبيان ذلك أنك تجد الرماني مثلا يعرف الاستعارة بقوله (الاستعارة تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة)(٢) ويعرفها أبوهلال العسكرى بقوله: (الاستعارة نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض، ذلك الغرض إما أن يكون شرح المعنى، وفضل الإبانة عنه، أوتوكيده والمبالغة فيه أوبالاشارة إليه بالقليل من اللفظ أوتحسين المعرض الذى يبرز فيه)(٣).

ويقول الرماني: (وكل استعارة فلا بد لها من حقيقة وهي أصل الدلالة على المعنى في اللغة كقول امرئ القيس في صفة الفرس (قيد الأوابد) والحقيقة «مانع الأوابد» وكقولك «ميزان القياس» وحقيقته «تعديل القياس»)(٤).

ويذهب أبو هلال المذهب نفسه فيقول: (ولا بد لكل استعارة ومجاز من حقيقة وهي أصل الدلالة على المعنى في اللغة كقول امرئ القيس:

---

(١) المصدر السابق: ١/٣٦٧
(٢) النكت في إعجاز القرآن: ٨٥
(٣) الصناعتين: ٢٧٤
(٤) النكت: ٨٦

وقد أغتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

والحقيقة مانع الأوابد من الذهاب والإفلات، والاستعارة أبلغ لأن القيد من أعلى مراتب المنع عن التصرف لأنك تشاهد ما في القيد من المنع، فلست تشك فيه، كذلك قولهم: هذا ميزان القياس حقيقته تعديل القياس) (١).

وكان التبرير بالمبالغة أمراً غالباً على الاستعارة نلحظه في بعض الآيات التي وقف عندها كل من الرماني والعسكرى مبينين دور الاستعارة في المبالغة فمن ذلك قولك يقول في قوله تعالى:

« إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ » (٢).

حيث يقول: (حقيقته علا والاستعارة أبلغ، لأن طغى علا قاهرا، وهو مبالغة في عظم الحال) (٣) وقوله في قوله تعالى:

« سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ » (٤).

(والله عز وجل لا يشغله شأن عن شأن، ولكن هذا أبلغ في الوعيد وحقيقته سنعمد إلا أنه لما كان الذى يعمد إلى شيء قد يقصر فيه لشغله بغيره معه، وكان الفارغ له هو البالغ في الغالب بما يجرى به التعارف، دلنا بذلك على المبالغة من الجهة التي هي أعرف عندنا لما كانت بهذه المنزلة، ليقع الزجر بالمبالغة التي هي أعرف عند العامة والخاصة موقع الحكمة) (٥). ويقول العسكرى في قوله تعالى:

« ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا » (٦).

---

(١) الصناعتين: ٢٧٦، ٢٧٧

(٢) سورة الحاقة: ١١

(٣) النكت في إعجاز القرآن: ٨٧

(٤) سورة الرحمن: ٣١

(٥) النكت في إعجاز القرآن: ٨٨

(٦) سورة المدثر: ١١

(وحقيقته ذر بأسي وعذابي الا أن الأول أبلغ في التهدد كما تقول إذا أردت المبالغة والإبعاد: ذرني وإياه، ولو قال: ذر ضربي له وانكارى عليه لم يسد ذلك المسد ولعله لم يكن حسنا مقبولا)(١) ويقول في قوله عزاسمه:

« إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ » (٢)

(وفضل الاستعارة على الحقيقة في هذا أن حال العقيم في هذا أظهر قبحاً من حال الريح التي لاتأتي بمطر، لأن العقيم كانت عند العرب أكره وأشنع من ريح لاتأتي بمطر لأن العادة في أكثر الرياح ألاتأتي بمطر، وليست العادة في النساء أن يكون أكثرهن عقيماً)(٣) وكذلك كانت الاستعارة عند عبدالقاهر تفيد التشبيه لغرض المبالغة كما أفضنا في ذلك سابقا.

ومبررات وجود الاستعارة التي تظهر في (الفارق بين الاستعارة ومقابلها الحرفي أوالحقيقي فارق في الدرجة ليس غير. إذ تؤدى الاستعارة نفس المعنى الذى تؤديه العبارة الحرفية وليس ثمة فارقة إلا في طريقة التقديم أوأوجه الدلالة. وتلك أمور عرضية لاتغير من جوهر المعنى المقدم في العبارة الحرفية... وعلى ذلك تصبح الاستعارة نوعا من الترجمة الجيدة أوالمعرض الحسن دون أن يكون لها فاعليتها الخاصة في خلق المعنى وإيجاده والتعبير عما لا يمكن أن يعبر عنه دونها)(٤) مع أننا في الحقيقة (لسنا ازاء معنى حقيقي ومعنى مجازى هو ترجمة للأول ــ بل نحن.... ازاء معنى جديد نابع من تفاعل السياقات القديمة لكل طرف من طرفي الاستعارة داخل السياق الجديد الذى وضعت فيه، وبهذا الفهم لاتصبح الاستعارة من قبيل النقل أوالتعليق أوالادعاء وإنما تصبح ــ لو أخذنا أبسط أشكالها فيما يقول ريتشاردز ــ «عبارة عن فكرتين لشيئين مختلفين تعملان معا خلال كلمة

---

(١) الصناعتين: ٣٧٨ (٢) سورة الذاريات: ٤١

(٣) الصناعتين: ٢٧٩

(٤) الصورة الفنية في التراث البلاغي والنقدى: ٢٤٣

أوعبارة واحدة تدعم كلتا الفكرتين، ويكون معناها أى الاستعارة ـ محصلة لتفاعلهما) (١).

والنظر إلى الاستعارة بهذا الفهم يعطي النصوص مقاصدها الحقيقية ويبقي على صورتها المنطلقة إلى غايات أوسع وأرحب من زيادة ومبالغة في أصل افترض تقيد به النصوص وتؤول إليه ذلك الأصل الذى لا يصح إلا إذا (علم أن الألفاظ العربية وضعت أولا لمعان ثم بعد ذلك استعملت فيها فيكون لها وضع متقدم على الاستعمال. وهذا إنما يصح على قول من يجعل اللغات اصطلاحية فيدعى أن قوما من العقلاء اجتمعوا واصطلحوا على أن يسموا هذا بكذا وهذا بكذا ويجعل هذا عاما في جميع اللغات) (٢) ولكن (لا يمكن أحد أن ينقل عن العرب، بل ولا عن أمة من الأمم أنه اجتمع جماعة فوضعوا هذه الأسماء الموجودة في اللغة ثم استعملوها بعد الوضع، وإنما المعروف المنقول بالتواتر استعمال هذه الألفاظ فيما عنوه بها من المعاني) (٣) وحتى من قال بالوضع عن طريق التوقيف فهو قول كما يقول ابن تيمية (غير معلوم وجوده بل الإلهام كاف في النطق باللغات من غير مواضعه متقدمة، وإذا سمي هذا توقيفا فليسم توقيفاً، وحينئذ فمن ادعى وضعا متقدما على استعمال جميع الأجناس فقد قال ما لا علم له به، وإنما المعلوم بلا ريب هو الاستعمال) (٤) ولقد كان الانصراف عن هذا إلى محاولة تقعيد لفهم اللغة استناداً إلى الوضع ـ الذى لم يثبت ـ ورد كل خروج عن ذلك الوضع إليه. وإيجاد التبريرات للخروج عن ذلك الوضع الأصلي سبباً في وجود بعض التبريرات بالمبالغة التي كانت مع غيرها من التبريرات حافظة للعلاقة بين ذلك المعنى الأصلي المفترض وبين المعنى الذى جاء به اللفظ فمن ذلك تفسيرهم اسناد الطغيان إلى الماء في قوله تعالى:

---

(١) المرجع السابق: ٢٧٢، ٢٧٣

(٢) الإيمان: ٨٦

(٣) المصدر السابق: ٨٧

(٤) المصدر السابق: ٩١، ٩٢

« إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ » (١)،

بالمبالغة (٢). مع أننا لو تأملنا الآية وجعلنا ذلك الاستعمال الذى جعلوه المعنى الأصلى استعمالا يعيننا على فهم الآية دون أن يكون هو المحور للفهم لكان في ذلك ثراء في فهمنا للآية لاتؤديه تلك المبالغة. وبيان ذلك أن المتأمل للآية يجد طغيان الماء أمر يحتمه السياق القرآني، وعلاقة الإنسان بالكون ذلك الإنسان الذى أخبرنا الله سبحانه وتعالي في كثير من آياته عن تسخير الكون له، وأن لا قدرة له في هذه الحياة إلا إذا كان هذا الكون مسخرا له،... ولكن في بعض الأحيان ينسى الانسان ضعفه نتيجة لهذا التسخير فيطغى ويتكبر ويتعالي عن أمر ربه... ويكون الجزاء كما قص علينا سبحانه وتعالى في كثير من آياته باطلاق قوة هذا الكون ضده، وفكها من عقال التسخير لعذابه، وفي هذه الآية التي تشير إلى غرق قوم نوح كان الماء طاغياً، كما كانت الصيحة التي أهلكت ثمودا ومضى خبرها قبل هذه الآية طاغية. وطغيان الماء هنا أمر يعلو على التفسير بالمبالغة، فالأمر أمر قوة أخرج الله طاقتها المسخرة بأمره إلى قوة عاتية، لا نجاة فيها إلا لمن كتب الله له النجاة بحمله فوق تلك القوة الطاغية، والماء أصبح في الآية بإذن الله مسيطرا على الإنسان يهلك من أمر بإهلاكه وينجي البقية المؤمنة الصالحة التي امتن الله علينا سبحانه وتعالى بنجاتها التي كان فيها حياتنا... فكان الماء وسيلة الموت والحياة معا... وقوة الماء أمر لفت أنظارنا إليه القرآن كثيراً فهو عنصر الحياة:

« وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ » (٣)

« وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ » (٤)

ووسيلة الطهارة:

---

(١) سورة الحاقة: ١١ (٢) النكت: ٨٧ وانظر الصناعتين: ٢٧٧

(٣) الأنبياء: ٣٠ (٤) سورة الأنعام: ٩٩

« وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا » (١)

« وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ » (٢)

وقوة من قوى العذاب :

« فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ » (٣)

« وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ » (٤)

والآيات التي تحدثت عن تسخير البحر ومنافعه وأهواله متعددة . ولقد عبد الإنسان هذه القوة وتقرب إليها عندما نظر إليها مستقلة عن موجدها سبحانه وتعالى عما يشركون .

---

(١) سورة الفرقان : ٤٨

(٢) سورة الأنفال : ١١

(٣) سورة القمر : آية : ١١ — ١٤

(٤) سورة الكهف : آية : ٢٩

٢ ـ تحكيم العقل والواقع الخارجي في الأداء اللغوى :

لقد كان هذا التحكيم منطلقاً قوياً من منطلقات القول بالمبالغة ، وهو يقوم على أمرين يتداخلان فيما بينهما تداخلا لا نستطيع معه أن نفصل بينهما ذلك لأن حكم العقل في الأداء اللغوى يستند إلى الواقع الخارجي الذى يحدده العقل ، إما بمشاهدة حسية ، أوحقيقة علمية أوعرفية أواستنتاج عقلي (ذهني). ودعم هذا التحكيم مسلمة للوضع اللغوى التي تعتبر أن اللفظ له معنى محدد وضع له ويختص به ... ومن ثم كان اللفظ مجرد علامة أوسمة تدل على مدلولها دلالة آلية كدلالة الدخان على النار والسحاب على المطر يقول الإمام عبدالقاهر: (ومما يجب ضبطه في هذا الباب أن كل حكم يجب في العقل وجوباً حتى لا يجوز خلافه فإضافته إلى دلالة اللغة ، وجعله مشروطاً فيها محال ، لأن اللغة تجرى مجرى العلامات والسمات ...)(١).

وكانت دراسة الجملة في العربية قائمة على فكرة الإسناد على نحو ما تشهد به المباحث النحوية ، وكان الأمر يقوم في النحو على ضبط الكلمة الإعرابي على أساس دورها الإسنادى في الجملة ، ولما نظرت المباحث البلاغية إلى الجملة ركزت على هذا الجانب ولكن من زاوية أخرى وهي مدى إمكانية قيام المسند بما أسند إليه ـ هل يجوز ذلك أولا يجوز ، فإن كان ذلك جائزاً بحكم العقل والواقع الخارجي كان الكلام حقيقة وإن كان غير جائز كان له في التجوز سببا وفي المبالغة منحى .. لأن فعل اللغة محدود بحدود المعنى الوضعي للفظ وبحدود الواقع الخارجي يقول عبدالقاهر (لأن اللغة لم تأت لتحكم بحكم أولتثبت وتنفي وتنقض وتبرم فالحكم بأن الضرب فعل لزيد أوليس بفعل له وان المرض صفة له أوليس بصفة له شيء يضعه المتكلم ودعوى يدعيها ، ومايعترض على هذه الدعوى من تصديق أوتكذيب أواعتراف أوإنكار وتصحيح أوإفساد فهو اعتراض على المتكلم ،

---

(١) أسرار البلاغة ص ٣٦٨

(١) أسرار البلاغة، ١٤٨/١

وليس اللغة في ذلك بسبيل منه في قليل ولا كثير وإذا كان كذلك فإن كل وصف يستحقه هذا الحكم من صحة وفساد وحقيقة ومجاز واحتمال واستحالة، فالمرجع فيه والوجه إلى العقل المحض، وليس للغة فيه حظ، فلا تحلى ولا تمر والعربي فيه كالعجمي والعجمي كالتركي، لأن قضايا العقول هن القواعد والأسس التي يبنى غيرها عليها والأصول التي يرد ما سواها إليها) (١).

وهذا الكلام يصح لو وجد كل متكلم اللغة قوالب جاهزة يستعملها وفق عقله وواقعه الخارجي... ولكنا إذا رجعنا إلى بداية اللغة لوجدنا أنها موهبة ربانية وهبها الله الإنسان يسيطر بها على الأشياء عن طريق التسمية... وحاملة لأشواقه وآلامه... وإن التسمية ترتبط غالبا بموقفه الانفعالى من الأشياء رغبة أورهبة... وهو لا يملك في البداية إلا الأسماء والموقف الانفعالي من الأشياء.. فإذا كانت السماء تمطر بالمطر الذى يجلب الخير والبركة قال: (جادت علينا السماء) تاركاً الحكم بمدى صحة إسناد الجود إلى السماء.. وهل السماء عاقلة تفعل الجود الذى هو من صفات الإنسان أولا؟، وهل ذلك حقيقة أو مجاز لمن يأتي بعده ممن يتعلمون اللغة ويحكمون العقل فيها يقول رتشاردز: (ولكنه ما من شك في أن اللغة كانت برمتها انفعالية في الأصل، وفي أن استخدامها العلمي إنما هو تطور متأخر، وأن معظم اللغة مازال انفعالياً، ومع ذلك فقد أصبح هذا التطور المتأخر يبدو هو الاستخدام الطبيعي العادى، ويرجع ذلك إلى حد بعيد إلى أمد أولئك الذين جعلوا من اللغة موضوع دراسة وتأمل كانوا وقت تأملهم هذا يستخدمون اللغة على نحو علمي) (٢) وظهرت بدايات هذا الاستخدام العلمي للعربية في وقت مبكر في النحو ثم في بدايات التأليف البلاغي كما نلاحظ في كتاب أبي عبيدة معمر بن المثنى الذى سماه بـ(مجاز القرآن) والذى يرد فيه تعبيرات القرآن الذى جاء بلغة العرب ومشتملاً على أحسن ضروب استعمالاتهم لها إلى

ما يجب أن يكون عليه الأسلوب وفق الأسلوب العلمي الذى يعتمد العقل والواقع الخارجي.. ومن هنا كان المجاز الذى يشرحه ويقرره هو العلمية التي افترضها للأداء اللغوى وفق المنطق الذهني الذى يحدد للكلمة معناها ويحدد لكل أسلوب معناه وطريقته في مرحلة تالية للأداء اللغوى كما يتضح ذلك من قوله (ففي القرآن الكريم ما في الكلام العربي من الغريب والمعاني ومن المحتمل من مجاز ما اختصر ومجاز ما حذف ومجاز ما كف عن خبره، ومجاز ما جاء لفظه لفظ الواحد ووقع على الجميع، ومجاز ما جاء لفظه لفظ الجميع ووقع معناه على الاثنين، ومجاز ما جاء لفظه خبر الجميع على لفظ خبر الواحد، ومجاز ما جاء الجميع في موضع الواحد إذا أشرك بينه وبين آخر مفرد، ومجاز ما خبر عن اثنين أوعن أكثر ذلك فجعل خبراً للواحد أوللجميع وكف عن خبر الآخر... إلخ)(١).

فترى أن هنا مستويين للكلام، أحدهما ما جاء في طريق القرآن التعبيرى، والآخر تحويل ذلك التعبير إلى تعبير آخر يجرى وفق المنطق العقلي المفترض للمعنى، ويوضح ذلك الأمثلة التالية من كتاب أبي عبيدة.

١ ــ قوله في قوله تعالى:

« خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ » (٢)

(مجازه مجاز خلق العجل من الإنسان، وهو العجلة والعرب تفعل هذا، إذا كان ــ الشيء من سبب الشيء بدءوا بالسبب وفي آية أخرى:

« مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ » (٣).

والعصبة هي التي تنوء بالمفاتيح (٤)

٢ ــ قوله (ومن مجاز ما وقع المعنى على المفعول وحوّل إلى الفاعل قال:

(١) مجاز القرآن: ١/١٨ — ١٩ (٢) سورة الأنبياء: ٣٧
(٣) سورة القصص: ٧٦ (٤) مجاز القرآن: ٢/٣٨، ٣٩

« كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ » (١)

والمعنى على الشاء المنعوق به وحول على الراعي الذى ينعق بالشاء)(٢).

٣ ـ قوله (ومن مجاز المصدر الذى في موضع الاسم أو الصفة قال:

« وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ » (٣)

خروج المعنى إلى البار. وقال:

« أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا » (٤)

الرتق مصدر وهو في موضع مرتوقتين (٥).

٤ ـ قوله (من مجاز ما جاء في لفظ الحيوان والموات على لفظ خبر الناس قال:

« رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ » (٦)، (٧)

٥ ـ قوله في قوله تعالى:

« قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ » (٨)

(هذا من الحيوان الذى أخرج مخرج الآدميين والعرب تفعل ذلك) (٩)

شربت إذا ما الديك يدعو صباحه إذا ما بنو نعش دنوا فتصوبوا

---

(١) سورة البقرة: ١٧١ (٢) مجاز القرآن: ١/ ١٢
(٣) سورة البقرة: ١٧٧ (٤) سورة الأنبياء: ٣٠

(٥) مجاز القرآن: ١/ ١٣
(٦) سورة يوسف: ٤
(٧) مجاز القرآن: ١/ ١٠
(٨) سورة النمل: ١٨
(٩) مجاز القرآن: ٢/ ٩٣

٦ ــ قوله في قوله تعالى:

«وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا» (١)

(مجاز السماء ها هنا مجاز المطر: يقال: مازلنا في سماء أى في مطر ومازلنا نطأ السماء أى أثر المطر) (٢).

وظلت هذه الروح تنمو بعده وبلغت ذروتها عند ابن جنى الذى يقول: (اعلم أن أكثر اللغة مع تأمله مجاز لا حقيقة. وذلك عامة الأفعال، نحو قام زيد، وقعد عمر، وانطلق بشر، وجاء الصيف، وانهزم الشتاء، ألا ترى أن الفعل يفاد منه معنى الجنسية فقولك: قام زيد معناه: كان منه القيام أى هذا الجنس من الفعل ومعلوم أنه لم يكن منه جميع القيام، وكيف يكون ذلك وهو جنس والجنس يطبق جميع الماضي وجميع الحاضر، وجميع الآتي الكائنات من كل من وجد منه القيام، ومعلوم أنه لا يجتمع لإنسان واحد في وقت واحد ولا في مائة ألف سنة مضاعفة القيام كله الداخل تحت الوهم، هذا محال عند كل ذى لب، فإذا كان كذلك علمت أن (قام زيد) مجاز لا حقيقة، وإنما هو على وضع الكل موضع البعض للاتساع والمبالغة وتشبيه القليل بالكثير) (٣) فالمبالغة تجيء هنا مع التشبيه والاتساع مبررا لخروج الأداء اللغوى عن العلمية المفترضة له.

والإمام عبد القاهر الجرجاني يفترض هذه العلمية كغيره أصلا للأداء اللغوى. وأن للأداء اللغوى مستويين من الدلالة

المستوى الأول: المعنى الأولى وهو المعنى النثرى المجرد أى المعنى العلمي للأداء اللغوى.

والمستوى الثاني: الصورة التي خرج عليها الكلام وهو المعنى الثاني.

ولكنه يحترم هذا الأداء ويتذوقه على صورته الثانية التي ورد عليها في

الكلام... ولكن ارتباطه بالمعنى الأصلي هو الذى يذهب هذا التذوق في

(١) سورة الأنعام: ٦ (٢) مجاز القرآن: ١/١٨٦
(٣) الخصائص: ٢/٤٤٨

غمار المبالغة والتوكيد والإثبات فهو يقول: (فتعهد الفرق بين أن تقول: فلان يكد نفسه في قراءة الكتب ولا يفهم منها شيئاً، وتسكت. وبين أن تتلو الآية - بقصد قوله تعالى:

«مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً» (١)

وتنشد

زوامل للأشعار لا علم عندهم بجيدها إلا كعلم الأباعر
لعمرك ما يدرى البعير إذا غدا بأوساقه أو راح ما في الغرائر(٢)

والفصل بين أن تقول: «أرى قوما لهم بهاء ومنظر، وليس هناك مخبر، بل في الأخلاق دقة، وفي الكرم ضعف وقلة، وتقطع الكلام، وبين أن تتبعه نحو قول الحكيم: أما البيت فحسن، وأما الساكن فردىء.

وقول ابن لنكك:

فى شجر السرو منهم مثل له رواء وما له ثمر

وقول ابن الرومي:

فغدا كالخلاف يورق للعين ويأبى الإثمار كل الإباء

وقول الآخر:

فان طرة لاقتك فانظر فربما أمر مذاق العود والعود أخضر(٣)

وانظر إلى المعنى في الحالة الثانية كيف يورق شجره، ويثمر، ويفتر ثغره، ويبتسم، وكيف تشتار الأريّ من مذاقته، كما ترى الحسن في

(١) سورة الجمعة: ٥.

(٢) الغرارة: الجوالق واحدة الغرائر وقال الجوهري: الغرارة واحدة الغرائر التي للتبن (لسان العرب: غرر).

(٣) قال في اللسان: (رجل طرير ذو وطرة وهنية حسنة وجمال وقيل هو المستقبل الشباب... وما أطره أي ما أجله).

شارته(١). ولكنه عندما يأتي لشرح سر اعجابه بهذا الأداء تجده يشرح خطوات الصنعة علميا ويذهب بورق شجر المعنى، وافترار ثغره، وابتسامه مذهب التوكيد والإثبات للمعنى الأولى أوالمبالغة فيه (فأما القول في العلة والسبب: لم كان للتمثيل هذا التأثير؟ وبيان جهته ومأتاه، وما الذى أوجبه واقتضاه، فغيرها وإذا بحثنا عن ذلك وجدنا له أسبابا وعللا، كل منها يقتضي أن يفخم المعنى بالتمثيل وينبل، ويشرف ويكمل. فأدل ذلك وأظهره أن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي، وتأتيها بصريح بعد مكنى، وأن تردها في الشيء تعلمها إياها إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم، وثقتها به في المعرفة أحكم، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس، وعما يعلم بالفكرة إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع، لأن العلم المستفاد من طرق الحواس، أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام، كما قالوا: (ليس الخبر كالمعاينة، ولا الظن كاليقين) فلهذا يحصل بهذا العلم هذا الأنس أعنى الأنس من جهة الاستحكام والقوة وضرب آخر من الأنس وهو ما يوجبه تقدم الألف كما قيل:(ما الحب إلا للحبيب الأول)(٢).

وقسم الإمام عبد القاهر المعاني التي يأتي عقبها التمثيل إلى ضربين:

الضرب الأول: غريب بديع يمكن أن يخالف فيه ويدعي امتناعه واستحالة وجوده وذلك نحو قوله:

فإن تفق الأنام وأنت منهم   فإن المسك بعض دم الغزال(٣)

والضرب الثاني: ألا يكون المعنى الممثل غريباً نادراً يحتاج في دعوى كونه

على الجملة إلى بينة وحجة وإثبات. وضرب لذلك مثالا بقول المجنون:

فأصبحت من ليلى الغداة كقابض على الماء خانته فروج الأصابع(٤)

(١) أسرار البلاغة: ١/٢٢٧، ٢٢٨ (٢) المصدر السابق: ١/٢٣٤، ٢٣٥

(٣) أسرار البلاغة: ١/٢٢٥ (٤) المصدر السابق: ١/٢٣٦

ثم يقول بعد ذلك:

(وإذا ثبت أن المعاني الممثلة تكون على هذين الضربين فإن فائدة التمثيل، وسبب الأنس، في الضرب الأول بين لائح، لأنه يفيد فيه الصحة وينفي الريب، والشك، ويؤمن صاحبه من تكذيب المخالف، وتهجم المنكر وتهكم المعترض، وموازنته بحالة كشف الحجاب عن الموصوف المخبر عنه حتى يرى ويبصره ويعلم كونه على ما أثبته عليه — موازنة ظاهرة صحيحة.

وأما الضرب الثاني فإن التمثيل وان كان لا يفيد فيه هذا الضرب من الفائدة فهو يفيد أمرا آخر يجرى مجراه، وذلك أن الوصف كما يحتاج إلى اقامة الحجة على صحة وجوده في نفسه، وزيادة التثبيت والتقرير في ذاته وأصله فقد يحتاج إلى بيان المقدار فيه، ووضع قياس من غيره يكشف عن حده ومبلغه في القوة والضعف والزيادة والنقصان)(١).

وتلاحظ هنا أن التمثيل عند عبد القاهر كما هو الحال في الاستعارة والكناية ليس إلا طريقاً لإثبات المعنى الأول وتقريره، ومظهر إخضاع الأداء اللغوى للعلمية في هذا هو ترسم خطوات أداء المعنى وتعليلها كما رأينا في التمثيل وكما تلاحظ في تعليله للصورة المجازية إذ يقول (إن العلم بالإعراب مشترك بين العرب كلهم وليس هو مما يستنبط بالفكر ويستعان عليه بالروية، فليس أحدهم في قول إن إعراب الفاعل الرفع أو المفعول النصب والمضاف إليه بالجر بأعلم من غيره. ولا ذاك المفعول به مما يحتاجون فيه إلي حدة ذهن وقوة خاطر، إنما الذى تقع الحاجة فيه إلي ذلك العلم بما يوجب الفاعلية للشيء، إذا كان إيجابها من طريق المجاز كقوله تعالي:

« فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ » (٢)

وكقول الفرزدق.

* سقتها خروق في المسامع *

(١) المصدر السابق: ١/٢٣٧ (٢) سورة البقرة: ١٦

وأشباه ذلك مما يجعل الشيء فيه فاعلا على تأويل يدق ومن طريق تلطف) (١) ويؤكد ذلك عندما يقول عن الاستعارة والتمثيل والكناية: (فينبغي أن تعلم أن ليست المزايا التي تجدها لهذه الأجناس على الكلام المتروك على ظاهره والمبالغة التي تحسها في أنفس المعـ ـي التي يقصد المتكلم بخبره إليها ولكنها في طريق إثباته لها وتقريره إياد) ويضيف بعد ذلك قائلا: (وذكرت أن السبب في أن كان يكون للإثبات إذا كان من طريق الكناية مزية لاتكون إذا كان من طريق التصريح إنك إذا كنيت عن كثرة القرى بكثرة رماد القدر كنت قد أثبت كثرة القرى بإثبات شاهدها ودليلها، وما هو علم على وجودها، وذلك لا محالة يكون أبلغ من إثباتها بنفسها، وذلك لأنه يكون سبيلها حينئذ سبيل الدعوى تكون مع شاهد، وذكرت أن السبب في أن كانت الاستعارة أبلغ من الحقيقة أنك إذا ادعيت للرجل أنه أسد بالحقيقة كان ذلك أبلغ وأشد في تسويته بالأسد في الشجاعة، ذاك لأنه محال أن يكون من الأسود ثم لا تكون له شجاعة الأسود، وكذلك الحكم في التمثيل فإذا قلت: أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى: كان أبلغ في إثبات التردد له من أن تقول: أنت كمن يقدم رجلا ويؤخر أخرى)(٢).

وأدت بهم هذه العلمية المفترضة للأداء اللغوى، وكون الكلمة سمة أو علامة تستدعى مدلولها آليا ــ لأنها كما تقرر عند كثير من علماء اللغة موضوعة إزاء معنى معين تختص به ــ إلى تحكيم الواقع الخارجي في الأداء اللغوى فما وافق الواقع الخارجي كان أداؤه حقيقة، وما لم يوافقه كان مجازا، وكانت المبالغة في كثير من الأحيان وسيلة من وسائل التوفيق العقلى بين

الواقع الخارجي والأداء اللغوى. ولقد حمدوا هذه المبالغة إذا كان فيها مايقربها من الصحة والإمكان يقول قدامة بن جعفر معلقا على قول أبي نواس:

(١) دلائل الإعجاز: ٣٠٢ (٢) دلائل الإعجاز: ٣٤٣، ٣٤٤

يــا أمين الله عــش أبــدا دم عــلــى الأيــام والــزمــن

(فانا كنا قد قدمنا أن مخارج الغلو إنما هى على «يكاد» وليس في قول أبي نواس «عش أبدا» موضع يحسن فيه. لأنه لا يحسن على مذهب الدعاء أن يقال: أمين يكاد أن يعيش أبدا)(١).

وردد أبو هلال قوله هذا(٢). ومن قبلهما قال ابن قتيبة: (وأكثر ما في القرآن من مثل هذا فإنه يأتي بكاد، فا لم يأت بكاد ففيه إضمارها كقوله: (وبلغت القلوب الحناجر) أى كادت من شدة الخوف تبلغ الحلوق)(٣). ولقد كان هذا من ابن قتيبة وتابعيه تحكما لا مبرر له في محاكمة أداء اللغة الفني إلى العقل والواقع الخارجي.. وأقل ما يؤخذ عليه فيه محاكمة الأسلوب القرآني إلى هذا الواقع ثم افتراض ما يقرب أداؤه من الواقع الخارجي. الخاضع لمنطق عقلي تأبي طبيعة اللغة أن تستجيب له فتخضع به نبضها وروحها إلى قوالب عقلية جامدة ولكن ابن قتيبة كان يجذبه إحساس آخر يحترم اللغة مما جعله يقف معها ويسجل إباءها وخضوعها للمنطق العقلي والواقع الخارجي عندما قال: (وأما الطاعنون على القرآن «بالمجاز» فإنهم زعموا أنه كذب لأن الجدار لا يريد، والقرية لا تسأل. وهذا من أشنع جهالاتهم وأدلها على سوء نظرهم، وقلة أفهامهم. ولو كان المجاز كذبا، وكل فعل ينسب إلى غير الحيوان باطلا، كان أكثر كلامنا فاسدا لأنا نقول: نبت البقل، وطالت الشجرة، وأينعت الثمرة وأقام الجبل، ورخص السعر. ونقول: كان هذا الفعل منك في وقت كذا وكذا، والفعل لم يكن

وإنما تكون. وتقول: قال الله. وقال بمعنى حدث والله جلّ وعز، قبل كل شيء بلا غاية، لم يحدث، فيكون بعد أن لم يكن. والله تعالى يقول: (فإذا عزم الأمر) وإنما يعزم عليه. ويقول تعالى: (فما ربحت تجارتهم) وإنما يربح فيها. ويقول: (وجاءوا على قميصه بدم كذب) وإنما كذب به. ولو

---

(١) نقد الشعر: ٢٢٠ (٢) الصناعتين: ٣٦٩، ٣٧٧

(٣) تأويل مشكل القرآن: ١٧١

قلنا للمنكر لقوله: (جداراً يريد أن ينقض) كيف كنت أنت قائلا في جدار رأيته على شفا انهيار: رأيت جدارا ماذا؟ لم يجد بدا من أن يقول: جدارا يهم أن ينقض، أويكاد أن ينقض، أويقارب أن ينقض. وأيا ما قال فقد جعله فاعلا، ولا أحسبه يصل إلى هذا المعنى في شيء من لغات العجم إلا بمثل هذه الألفاظ) (١).

ولقد حاول ابن قتيبة من خلال تأمله لطبيعة اللغة وإبائها الخضوع للمنطق العقلي والواقع الخارجي أن يرد كثيراً من المطاعن التي وجهت إلى القرآن الكريم على أساس هذه المحاكمة فتجده مثلا يورد ضمن أقوال الطاعنين على القرآن الكريم قولهم في قوله تعالى: (وبلغت القلوب الحناجر) (كيف تبلغ القلوب الحلوق، والقلب إن زال عن موضعه مات صاحبه؟) (٢). ويتبع ذلك بردود مجملة على أقوالهم نتبين من خلاله كيف أنه كان يرى أن في أساليب المبالغة والتجوز تجاوزا لحدود الواقع وأنه يجيز ذلك (وكان بعض أهل اللغة يأخذ على الشعراء أشياء من هذا الفن، وينسبها فيه إلى الإفراط وتجاوز المقدار. وما أرى ذلك إلا جائزا حسنا على ما بيناه من مذاهبهم) (٣) ولكن هل كان يرى ابن قتيبة أن وظيفة اللغة تتجاوز حدود نقل الواقع الخارجي وان ألفاظ اللغة ليست علامات وسمات، وإنما هي كون يستخدمه كل من التعبير القرآني والفني ليقتنص بها الأشياء وينقل لنا بها معرفة لا تتم إلا عن طريق اللغة؟؟

وللجواب عن ذلك نقول: إن هذا أمر يمكن أن نستنتجه من خلال قول

ابن قتيبة السابق ورده على الطاعنين بأن الجدار لا يريد والقرية لا تسأل الذى سقناه آنفا، ومن خلال قوله:(وقد يكون الضريع وشجرة الزقوم: نبتين من النار أومن جوهر لا تأكله النار. وكذلك سلاسل النار وأغلالها وأنكالها وعقاربها، وحياتها، لو كانت على ما نعلم، لم تبق على النار، وإنما دلنا الله

(١) المصدر السابق: ١٣٢، ١٣٣ (٢) المصدر السابق: ٣١

(٣) المصدر السابق: ١٧٢، ١٧٣

سبحانه على الغائب عنده بالحاضر عندنا، فالأسماء متفقة للدلالة والمعاني مختلفة، وما في الجنة من شجرها وثمرها، وفرشها، وجميع آلاتها مثل ذلك. قال ابن عباس «نخل الجنة، جذوعها من زمرد أخضر، وكربها من ذهب أحمر، وسعفها كسوة لأهل الجنة، منها مقطعاتهم وحللهم، وثمرها أمثال القلال والدلاء، أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، وألين من الزبد، ليس له عجم»)(١).

ولكن في قوله بتقدير كاد في قوله تعالى:**(وبلغت القلوب الحناجر)** وقول الشاعر:

يتقارضون إذا التقوا في موطن نظرا يزيل مواطئ الأقدام(٢)

قص لجناح اللغة وجعل للمعرفة التي تأبي بها معرفة تالية لتصور سابق عن الواقع الخارجي، وبيان ذلك أن سبب الحكم على الآية والبيت بالمبالغة ثم تقدير كاد هو أن النظر لا يمكن أن يزيل مواطئ الأقدام، وأن القلوب يستحيل أن تبلغ الحناجر.. وهذا أمر يصح لو أن ألفاظ اللغة تجمد على معناها الوضعي، الذى وضعت بازائه ولكن الاستعمال القرآني والعربي يوجد للفظ حياة وحركة يختلف بها اللفظ باستعمال عنه في استعمال آخر. يقول ابن تيمية (نجد أحدهم — أى القائلون بالمجاز — يأتي إلى ألفاظ لم يعلم أنها استعملت إلا مقيدة، فينطق بها مجردة عن جميع القيود، ثم يدعي أن ذلك هو حقيقتها من غير أن يعلم أنها نطق بها مجردة، ولا وضعت مجردة، مثل أن

يقول حقيقة العين هو العضو المبصر، ثم سميت به عين الشمس، والعين النابعة، وعين الذهب للمشابهة) (٣) ثم يقول: (لكن أكثرهم يقولون: إن هذا من باب المشترك، لا من باب الحقيقة والمجاز، فيمثل بغيره مثل لفظ الرأس، يقولون: هو حقيقة في رأس الإنسان، ثم قالوا: رأس الدرب لأوله، ورأس العين لمنبعها، ورأس القوم لسيدهم، ورأس الأمر لأوله،

(١) تأويل مشكل القرآن: ٧٠، ٧١ (٢) تأويل مشكل القرآن: ١٧١

(٣) الإيمان: ٩٣، ٩٤

ورأس الشهر، ورأس الحول. وأمثال ذلك على طريق المجاز) (١) ثم يرد عليهم مبينا اختلاف اللفظ وتحول دلالته باختلاف استعماله قائلا: (وهم لا يجدون قط أن لفظ الرأس استعمل مجرداً، بل يجدون أنه استعمل بالقيود في رأس الإنسان كقوله تعالى:

« وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ » (٢)

ونحوه وهذا القيد يمنع أن تدخل فيه تلك المعاني، فإذا قيل رأس العين ورأس الدرب، ورأس الناس، ورأس الأمر، فهذا المقيد غير ذاك المقيد الدال، ومجموع اللفظ الدال هنا غير مجموع اللفظ الدال هناك، لكن اشتركا في بعض اللفظ كاشتراك كل الأسماء المعرفة في لام التعريف، ولو قدر أن الناطق باللغة نطق بلفظ رأس الإنسان أولا، لأن الإنسان يتصور رأسه قبل غيره، والتعبير أولا هو عما يتصور أولا، فالنطق بهذا المضاف أولا، لا يمنع أن ينطق به مضافا إلى غيره ثانيا، ولا يكون هذا من المجاز كما في سائر المضافات، فإذا قيل ابن آدم أولا، لم يكن قولنا: ابن الفرس، وابن الحمار مجازا، وكذلك إذا قيل: بنت الإنسان، لم يكن قولنا بنت الفرس مجازا. وكذلك إذا قيل: رأس الإنسان أولا، لم يكن قولنا: رأس الفرس مجازا، وكذلك في سائر المضافات إذا قيل: يده أو رجله) (٣) ويؤخذ من هذا أنه ليس للفظ واقع خارجي محدود به، ولأنه تبين حسب ما يقول ابن تيمية: (إن ما يدعيه هؤلاء من اللفظ المطلق من جميع القيود لا يوجد إلا مقدرا في

الأذهان، لا موجود في الكلام المستعمل، كما أن ما يدعيه المنطقيون من المعنى المطلق من جميع القيود لا يوجد إلا مقدرا في الذهن، لا يوجد في الخارج شيء موجود خارج عن كل قيد) (٤) فالذى يحدد اللفظ هو الاستعمال الذى يجعل الوضع «امكانية» تشع منه معاني اللفظ في اتجاهات مختلفة وفرق بين من يقول بهذا، وبين من يجعل للفظ أصلا معينا

(١) المصدر السابق: ٩٤ (٢) سورة المائدة: ٦

(٣) المصدر السابق: ٩٤ (٤) المصدر السابق: ١٠١

يؤول إليه تعبيره ويجعل ذلك الأصل هو الحقيقة وما عداه من استعمالات اللفظ المختلفة. التي قصدها القرآن الكريم والاستعمال العربي مجازا أومبالغة. وعدم استيعاب المعنى الوضعي للكلمة أمر لاحظه النقاد العرب وأشاروا إليه قبل ابن تيمية، ولكنهم في الكثير الأعم لم يجعلوا الاشعاعات المختلفة للفظ أصلا في كل استعمال من استعمالاته، يقول قدامة بن جعفر عن مفهوم الإشارة: (أن يكون اللفظ القليل مشتملا على معان كثيرة بايماء إليها أو لمحة تدل عليها) (١). ويقول ابن رشيق عنها أيضا: (والإشارة من غرائب الشعر وملحه، وبلاغة عجيبة، تدل على بعد المرمي، وفرط المقدرة، وليس يأتي بها الا الشاعر المبرز، والحاذق الماهر وهي في كل نوع من الكلام لمحة دالة، واختصار وتلويح يعرف مجملا، ومعناه بعيد من ظاهر لفظه) (٢)

ويقول الجاحظ: (اعلم أن حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ لأن المعاني مبسوطة إلى غير غاية وممتدة، إلى غير نهاية) (٣) وقد تنبه ابن الأثير إلى أن (معنى اللفظة المفردة يتداخل بالتركيب ويصير له هيئة تخصه، وهذا ليس قدحا في تلك الألفاظ.. وأعجب ما في ذلك أن تكون الألفاظ المفردة التي تركت منها المركبة واضحة كلها، وإذا نظر إليها مع التركيب احتاجت إلى استنباط وتفسير... ولهذا أشباه كثيرة تفهم معاني ألفاظها المفردة وإذا تركبت تحتاج في فهمها إلى استنباط) (٤) ويقول أيضا: (وأما

إذا صارت مركبة فإن لتركيبها حكما آخر وذاك أنه يحدث عنه من فوائد التأليفات والامتزاجات ما يخيل للسامع أن هذه الألفاظ ليست تلك التي كانت مفردة)(٥) وهذا التخيل جاء نتيجة لحياة اللفظ الجديدة في السياق الجديد. وهذا هو معنى قولنا: إن اللغة الأدبية والفنية لا تمثل واقعا محددا، وليس معنى ذلك أنها أوهام وأحلام وإنما هي إقامة جديدة للفظ في سياق

(١) نقد الشعر: ٩٠ (٢) العمدة: ١/ ٣٠٢
(٣) البيان والتبيين: ١/ ٧٦ (٤) المثل السائر: ١/ ٦٧، ٦٨
(٥) المصدر السابق: ١/ ١٩٢

جديد، وما دام كل لفظ محددا معناه بسياقه واستعماله فإن الواقع الخارجي المحدود الذى وضع اللفظ بازائه في قضية الوضع لا يمثل أصلا يعود إليه المعنى ويؤول وإنما يمثل بذرة ينمو بها اللفظ ويتفرع في سياقاته واستعمالاته المختلفة، والبذرة بعد هذا النمو والتفرع ليست أولى بالاهتمام من هذه الفروع التي قد تكون بذورا أخرى صالحة للتفرع والنماء.

ولو نظرنا إلي القلب في السياق القرآني، والاستعمال العربي، وحاولنا أن نتبين بعض دلالات هذا الاستعمال لوجدنا أن القلب فيهما لا يمكن أن يستوعبه تخصيصه بمضغة اللحم التي تقوم بتنظيم الدورة الدموية في جسد الإنسان وذلك لأننا نجد أن القلب مناط الهداية قال تعالي:

« فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ » (١)

وقال جل وعز:

« لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا » (٢)

وقال سبحانه:

« أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ » (٣)

وقال تبارك اسمه:

« ومن يؤمن بالله يهد قلبه » (٤)

ثم إن القلب على ما يوحي به استعماله في العربية هو مستقر العواطف الإنسانية يكون منه الاطمئنان والفزع

« نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ » (٥)

---

(١) سورة الحج: ٤٦
(٢) سورة الاعراف: ١٧٩
(٣) سورة محمد: ٢٤
(٤) سورة التغابن: ١١
(٥) سورة الشعراء: ١٩٣، ١٩٤

« وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ » (١)
« سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ » (٢)

ولقد كان نبضه الذى يتأثر بحالة الإنسان النفسية رمزاً أقام فيه الاستعمال العربي تطلعات الإنسان، وأشواقه ومخاوفه، وفي بعض الأحيان يفصل هذا الاستعمال القلب عن الإنسان فيملكه حبيب يسيطر على الذات يقول الشاعر:

ويخشون في ليلى عليّ ولم أنل   مع العذل من ليلى حراما ولا حلا
سوى أن قلبي لو تشاء أقلّها   ولو تبتغي ظلا لكان لها ظلا (٣)

ويقول أبو فراس الحمداني مقابل هذا:
ولا تملك الحسناء قلبي كله   ولو شملتها رقة وشباب (٤)

أو يقيمه مزعزعاً يقول المجنون:
كأن القلب ليلة قيل يفدى   بليلى العامرية أو يراح
قطاة عزها شرك فباتت   تجاذبه وقد علق الجناح

وقال الشاعر: (في وصف مفازه تنزو من مخافتها قلوب الأدلاء:
كأن قلوب أدلائها   معلقة بقرون الظباء (٥)

وفي مقابل هذا الاستعمال نجد أن القرآن الكريم يحدثنا عن تثبيت قلوب رسله وأوليائه واطمئنانها فمن ذلك قوله تعالى :

« كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ » (٦)

وقوله عز وجل حكاية عن أم موسى :

---

(١) سورة الأنفال : ١١
(٢) سورة الأنفال : ١٢
(٣) الزهرة : ١٢
(٤) ديوان أبي فراس : ١/ ٢٤
(٥) تأويل مشكل القرآن : ١٧٢
(٦) سورة الفرقان : ٣٢

« إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا » (١)

وقول سبحانه :

« هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ » (٢)

وفوق هذا كله جاء القلب في السياق القرآني والاستعمال العربي مستودعا لسر الإنسان ونيته لا يستطيع البشر سبر أغواره يقول تعالى : **(يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم)** ويقول سبحانه مجيزا التصريح بالكفر عند الإكراه قولا فقط : **(إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان)** ... ومن ثم لم يكلفنا الشرع بوجوب معرفة حقيقة ما في القلب واكتفي بالبحث عن القرائن والدلائل الظاهرة والحكم بموجبها .

فإذا كان كل هذا للقلب الإنساني ... وكان مستودع سر ... ومقر عاطفة ... وموجة نية ... فهل للتفسير بالمبالغة في هذه الآية مجال فضلا عن إيجاب تقدير « كاد » ذلك التفسير الذى يقصر مسمى القلب على ما خصصه به الوضع ... متناسياً هذه الوظيفة الشاملة له في الحياة الإنسانية . ومستغربا حركته وبلوغه الحلق عندما نظر إليه من هذا المنطلق ونظر إلى الآية كترجمة حرفية لواقع حدد له فيا ذهنه القلب تحديدا معينا لا يتجاوزه بينا كان

القلب كما رأينا بالشواهد القرآنية والشعرية أوسع من هذا التحديد الذى حد به القلب.. فلا يتجاوزه إلا بسبب عقلي وأخيرا لسنا ننكر أن يكون معنى القلوب في الآية هو جمع لهذه المضغة التي تنظم الدورة الدموية في الإنسان ويكون بلوغها الحلق هو بلوغ وظيفتها المسرعة في دفع الدم إلى العروق فتمتلئ الأوردة، وتنتفخ الأوداج، ويضيق النفس حتى يصبح الإنسان عاجزا عن الإفصاح والنطق... ولكن الذى ننكره هو أن يكون معنى بلوغها الحناجر تحركها من مواضعها إلى موضع الحنجرة وهو الأمر الذى بنيت عليه المبالغة في هذه الآية وتقدير كاد، ذلك لأن الاستعمال القرآني والعربي

(١) سورة القصص: ١٠ (٢) سورة الفتح: ٤

للقلب أرانا تحركه بل فصله عن الجسد غير مبال بما يجره عليه ذلك الحكم العقلي الذى يحد القلب بحدود لا تستوعبه.

ولن أغفل في هذا المقام إشارة ابن قتيبة إلى هذا المعنى الأخير الذى أشرت إليه عندما قال: (وقد يجوز أن يكون أراد: إنها ترجف من شدة الفزع، وتجف ويتصل وجيفها بالحلوق، فكأنها بلغت الحلوق بالوجيب، وهم يصفون القلوب بالخفقان، والنزو عند المخافة والذعر)(١).

(١) تأويل مشكل القرآن: ١٧٢

الفصل الثاني
المبالغة بين القبول والرفض

قبل أن نتبين هذه القضية يجدر بنا أن نجعل نصب أعيننا عدة أمور تكشف لنا الكثير من المواقف وهذه الأمور هي:

١ ـ كثرة طرق المبالغة إلى درجة تستوعب فيها عند بعض النقاد معظم أساليب الأداء اللغوى في الصورة الفنية أوفي أساليب التقديم والتأخير. والتنكير والتعريف. وفي بعض أنواع البديع.

٢ ـ فكرة النموذج (المثال) الذى يقيمه الشعر في شخص الممدوح سواء كان ذلك مدحا أم فخرا أم رثاء... أم غزلا.. وعكس ذلك بالنسبة

للهجاء .

٣ ــ تأرجح مدلول المبالغة بين ثلاثة معان بين الدلالة على بلوغ الغاية في المعنى والنهاية فيه ، وبين الزيادة فيه بعد تمامه ، وبين الكذب .

ووضع هذه الأمور أمامنا يفسر لنا الكثير من المواقف ازاء المبالغة حمدا وذما وتسويغاً ... ولقد كان فكرة النموذج (المثال) داعيا قويا من دواعي طلب المبالغة كما سبق أن أوضحنا ذلك في نقد النابغة لحسان ، وفي تفضيل امرأة امرئ القيس لعلقمة الفحل عليه في وصف الفرس ، وفي تفضيل المرأة التي عرضت لكثير قول امرئ القيس :

ألم ترأني كلما جئت طارقا وجدت بها طيبا وإن لم تطيب

على قول كثير في عزة :

فما روضة بالحزن طيبة الثرى يمج الندى جثجاثها وعرارها
بأطيب من أردان عزة موهنا إذا أوقدت بالمندل الرطب نارها

قائلة له : فضَّ الله فاك : أرأيت- لو أن ميمونة الزنجية بخرت بمندل رطب أما كانت تطيب ؟ (١)

وفي تفصيل عبد الملك بن مروان قول الأعشي مادحاً لقيس بن معديكرب على قول كثير فيه الذى سبق أن أوردناه وسنورده الآن عدة نصوص أخرى غير تلك النصوص تبين مدى سيادة هذا السنن الذوقي الذى لا يرضى إلا بالمثال فن ذلك قصة معاوية مع الأخطل عندما وفد عليه فقال له : إني قد امتدحتك بأبيات فاسمعها فقال : إن كنت شبهتني بالحية أوالأسد أو الصقر فلا حاجة لي فيها ، وإن كنت قلت فيّ كما قالت الخنساء :

وما بلغت كفّ امرئ متناول به المجدَ إلا حيث ما نلت أطول
وما بلغ المهدون في القول مِدْحَةً وإن صدقوا إلا الذى فيك أفضل

فهات. فقال الأخطل: والله لقد أحسنت وقلت بيتين، ما هما بدون ما سمعته وأنشد:

إذا متّ مات العز وانقطع الغنى فلم يبق إلا من قليل مصرّد
وردت أكفُ الراغبين وأمسكوا من الدين والدنيا بخِلْف مُجدّد

فأحسن صلته (٢)

ومن ذلك ما روى عن أبي عمرو بن العلاء أنه لقي ذا الرّمة فقال له أنشدني قصيدتك:

---

(١) الموشح: ٢٣٩ فما بعدها.

(٢) أمالي المرتضي: ٢/ ٢٤، ٢٥ــ مصرد: مقلل

خلف مجدد: يقال ناقة مجددة الأخلاف إذا ضربها الصرار وقطعها وتجدد ضرع الناقة: ذهب لبنه.

* ما بالُ عينك منها الماءُ ينسكبُ *

فأنشده إياها، فلما بلغ إلى قوله:

تصغي إذا شدّها بالكور جانحةً حتي إذا ما استوى في غرزِها تَثِبُ

فقال له أبو عمرو بن العلاء: قول الراعي أحسن مما قلت:

تراها إذا قام في غرزها كمثل السفينة أو أوقرُ
ولا تَعجِلُ المرء عند الورو ك وهي بِركْبَتِه أبصرُ

فقال ذو الرمة: إن الراعي وصف ناقة ملك وأنا أصف ناقة سوقة.

وحكى الصولى أنه سمع أعرابياً ينشد بيته الذى حكيناه، فقال سقط لله الرجل (١).

وهذه الفكرة نجدها تتجسد عند قدامة بن جعفر ببحث الفضائل وأقسامها وما يجب على المادح من مدح الرجل بالخصال الأربع واستيعابها والإغراق فيها يقول في ذلك: (إنه لما كانت فضائل الناس من حيث إنهم

الناس، لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان، على ما عليه أهل الألباب، من الاتفاق في ذلك، إنما هي العقل ــ والشجاعة ــ والعدل ــ والعفة ــ كان القاصد لمدح الرجال بهذه الأربع الخصال مصيبا، والمادح بغيرها مخطئا. وقد يجوز في ذلك أن يقصد الشاعر للمدح منها بالبعض والإغراق فيه دون البعض. مثل أن يصف الشاعر إنساناً بالجود الذى هو أحد أقسام العدل وحده فيغرق فيه ويتفنن في معانيه أوبالنجدة فقط، فيعمل فيها مثل ذلك، أوبهما، أويقتصر عليهما دون غيرهما، فلا يسمى مخطئا لإصابته في مدح الإنسان ببعض فضائله، لكن يسمى مقصرا عن استعمال جميع المدح، فقد وجب أن يكون على هذا القياس المصيب من الشعراء من مدح الرجال بهذه الخلال، لا بغيرها، والبالغ في التجويد إلى أقصى حدوده

(١) أمالي المرتضي: ١/ ٢٧٨، ٢٧٩ وفيه (فأما الفرز فهو للناقة مثل الركاب للدابة، وهو نسع مضفور، وقوله «تصغي» يريد رأسها، كأنها تسمع لأنها ليست بنفور، بل مؤدبة مقوّمة، والكور: الرحل).

من استوعبها، ولم يقتصر على بعضها، وذلك كما قال زهير بن أبي سلمى في قصيدة:

أخي ثقة لا تُهلكُ الخمرُ ماله ولكنه قد يهلكُ المالَ نائلَه

فوصفه في هذا البيت بالعفة لقلة إمعانه في اللذات، وأنه لا ينفد ماله فيها، وبالسخاء لإهلاكه ماله في النوال، وانحرافه إلى ذلك عن اللذات، وذلك هو العدل ثم قال:

تراه إذا ما جئته متهللا كأنك معطيه الذى أنت سائله

فزاد في وصف السخاء بأن جعله يهش له، ولا يلحقه مضض، ولا تكره لفعله ثم قال:

فمن مثلَ حصن في الحروبِ ومثلُه لانكارِ ضَيْم أو لخصم يجادله

فأتى في هذا البيت بالوصف من جهة الشجاعة، والعقل، فاستوعب زهير في أبياته هذه المديح بالأربع الخصال، التي هي فضائل الإنسان على

الحقيقة وزاد في ذلك ما هو ــ وان كان داخلا في هذه الأربع ــ فكثير من الناس لا يعلم وجه دخوله فيها ، حيث قال : « أخي ثقة » صفة له بالوفاء ، والوفاء داخل في الفضائل التي قدمنا ذكرها) (١) . وهذه الفكرة هي التي جعلت قدامة بن جعفر يفضل المبالغة والغلو حيث يقول : (إن الغلو عندى أجود المذهبين وهو ما ذهب إليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديما ، وقد بلغني عن بعضهم أنه قال أحسن الشعر أكذبه ، وكذا ترى فلاسفة اليونانيين في الشعر على مذهب لغتهم) (٢) وهي التي جعلته يفضل رأى عبد الملك في مديح كثير له الذى سبق أن أوضحناه فيقول : (والذى عندى في ذلك أن عبد الملك أصح نظراً من كثير ، إلا أن يكون كثير غلط ، واعتذر بما يعتقد خلافه ، لأنه قد تقدم من قولنا في أن المبالغة أحسن من الاقتصار على الأمر الوسط بما فيه كفاية ، والأعشى بالغ فى وصف الشجاعة ، حيث جعل

(١) نقد الشعر : ٩٦ (٢) نقد الشعر : ٩٤

الشجاع شديد الإقدام بغير جنة على أنه وإن كان لبس الجنة أولى بالحزم وأحق بالصواب ، ففي وصف الأعشى دليل قوى على شدة شجاعة صاحبه ، لأن ليس الصواب له ، ولا لغيره ، إلا لبس الجنة ، وقول كثير تقصير في الوصف) (١) .

ولو مضينا إلى أبي هلال العسكرى لوجدناه يستجيز الغلو مسجلا استجازة العرب له انطلاقاً من هذه الفكرة يقول : (وقالوا : أمدح بيت قالته العرب قول الأعشي :

فتى لو ينادى الشمس ألقت قناعها أو القمر السارى لألقى المقالدا

هذا وقول أبي الطمحان من الغلو ، والغلو عند بعضهم مذموم وليس كذلك ولو كان مذموماً لما جعلوا هذين البيتين من أمدح ما قالت العرب وهما من الغلو على ما هما عليه . ومثل هذا الغلو قول طريح بن إسماعيل :

أنت ابن مسلنطح البطاح ولم ... يضرب عليك الحِني والولجَ
لو قلت للسيل دع طريقك ... والموجُ عليه كالهضب يعتلجُ
لارتد أوساخ أو لكان له ... فى جانب الأرض عنك منعرج

وهذا من أعلى الغلو لأن السيل لاترد وجهته هيبة ولا مخافة والعرب تقول أجرأ من السيل فيهمز ولايهمز والهمز من الجراءة وترك الهمز من الجرى ويقال في المثل لا أفعل كذا حتى يرد وجه السيل، وليس هذا الشعر بمختار الرصف واللفظ وإنما جئت به لمكان غلوه، ومن الغلو المشهور المستفيض الذى قبله الناس واستحسنوه ورووه لكل لسان قول أبي تمام في المعتصم:

بيمن أبي إسحٰق طالت به العلا ... وقامت قناة الدين واشتد كاهلُه
هو البحر من أى النواحي أتيته ... فلجتُه المعروف والجود ساحله
تعود بسط الكف حتى لو أنه ... أراد انقباضا لم تطِعه أناملُه
ولو لم يكن في كفّه غير نفسه ... لجادَ بها فليتق الله سائله)(٢)

(١) المصدر السابق: ١٠٠ (٢) ديوان المعاني: ١/٢٤، ٢٥

ومن الأمور التي عللوا بها قبول المبالغة في الشعر خاصة أن الشعر عمل يقوم على التخيل والتخييل ولايطلب منه التحديد والتحقيق ومن هؤلاء الشريف المرتضى فتجده يورد ما أخذه الآمدى على البحترى وامرئ القيس في وصف ذيل الفرس قائلا:

ومما خطأ الآمدى فيه البحترى وإن كان له عذر صحيح لم يهتد إليه قوله:

ذنب كما سحب الرداء يذبّ عن ... عُرَفٍ وعُرفٍ كالقناع المُسْبلِ

قال الآمدى: «وهذا خطأ من الوصف لأن ذنب الفرس إذا مس الأرض كان عيبا فكيف إذا سحبه! وإنما الممدوح من الأذناب ماقرب من الأرض ولم يمسها كما قال امرؤ القيس:

* بضاف فوق الأرض ليس بأعزل *

قال : وقد عيب امرؤ القيس بقوله :

لها ذنب مثل ذيلِ العروس   تسد به فرجها من دُبُر(١)

ثم يرد عليه قائلا : (وما أرى العيب يلحق امرأ القيس لأن العروس وإن كانت تسحب أذيالها ، وكان ذنب الفرس إذا مس الأرض عيبا فليس منكر أن يشبه به الذنب وإن لم يبلغ إلى أن يمس الأرض ، لأن الشيء إنما يشبه الشيء إذا قاربه ، أودنا من معناه ، فإذا أشبهه في أكثر أقواله فقد صح التشبيه ولاق به .

وامرؤ القيس لم يقصد أن يشبه طول الذنب بطول ذيل العروس فقط ، وإنما أراد السبوغ والكثرة والكثافة ، ألاترى أنه قال :

* تسد به فرجها من دبر *

---

(١) أمالي المرتضى: ٢/٩٤

وقد يكون الذنب طويلا يكاد يمس الأرض ولا يكون كثيفاً ، ولا يسد فرج الفرس فلما قال: «تسد فرجها» علمنا أنه أراد الكثافة والسبوغ مع الطول ، فإذا أشبه الذنب الذيل من هذه الجهة كان في الطول قريباً منه ، فالتشبيه صحيح ، وليس ذلك بموجب للعيب وإنما العيب في قول البحترى «ذنب كما سحب الرداء» فأوضح بأن الفرس يسحب ذنبه) .

ثم وجه المرتضى الأنظار بعد ذلك إلى طبيعة الشعر وبعده عن التحقيق والتجديد (وللبحترى وجه في العذر يقرب من عذر امرئ القيس في قوله : «مثل ذيل العروس» غير أن الآمدى لم يفطن له ، وأول مانقوله: إن الشاعر لا يجب أن يؤخذ عليه في كلامه التحقيق والتحديد ، فإن ذلك متى اعتبر في الشعر بطل جميعه ، وكلام القوم مبنيّ على التجوز والتوسع والإشارات الخفية والإيماء على المعاني تارة من بعد ، وأخرى من قرب ، لأنهم لم يخاطبوا

بشعرهم الفلاسفة وأصحاب المنطق، وإنما خاطبوا من يعرف أوضاعهم ويفهم أغراضهم وإنما أراد البحترى بقوله: (ذنب كما سحب الرداء) المبالغة فى وصفه بالطول والسبوغ، وأنه قد قارب أن ينسحب، وكاد يمس الأرض. ومن شأن العرب أن تجرى على الشيء الوصف الذى كان قد يستحقه، وقرب منه القرب الشديد فيقولون: قد قتل فلاناً هوى فلانة، ودلّها عقله، وأزال تمييزه وأخرج نفسه كل ذلك لم يقع، وإنما أرادوا المبالغة، وإفادة المقاربة والمشارفة ونظائر ذلك أكثر من أن تحصى.

ومن شأنهم أيضاً إذا أرادوا المبالغة التامة أن يستعملوا مثل هذا فيشبهون الكفل بالكثيب وبالدِّعْص وبالتل، ويشبهون الخَصْر بوسْط الزنبور، وبمدار حلقة الخاتم، ويعدّون هذا غاية المدح وأحسن الوصف، ونحن نعلم أنا لورأينا من خصره مقدار وسط الزنبور، وكفله كالكثيب العظيم لاستبعدناه واستهجنا صورته لنكارتها وقبحها، وإنما أتوا بألفاظ المبالغة صنعة وتأنقاً، لا لتحمل على ظواهرها تحديداً وتحقيقاً، بل ليفهم منها الغاية المحمودة، والنهاية المستحسنة، ويترك ما وراء ذلك، فإنا نفهم من قولهم: خصرها

كخصر الزنبور أنه في نهاية الدقة المستحسنة في البشر، ومن قولهم: كفلها كالكثيب أى أنه في نهاية الوثارة المحمودة المطلوبة، لا أنه كالتل على التحقيق، فهكذا لا ننكر أن يريد البحترى بقوله: «كما سحب الرداء» إنه في غاية الطول الممدوح، لا أنه ينجر على الأرض الحقيقة.

ووكلنا فى تخليص معناه وتفضيله إلى العادة الجارية لنظرائه من الشعراء في استعمال مثل اللفظ الذى استعمله: وقد قال بعضهم في ثقل العجيزة:

تمشي فتثقلها روادفُها   فكأنها تمشي إلى خَلف

وقال المؤمل:

من رأى مثل حبّتى   تشبه البدر إذ بدا

تدخل اليوم ثم تد   خل أردافها غدا

وقال ذو الرمة:

ورمل كأوراك العذارى قطعته وقد جللته المظلمات الحنادس

وهذا كلام لو حمل على ظاهره وحقيقته لكان الموصوف به في نهاية القبح، لأن من يمشي إلى خلف، ومن يدخل كفله بعده لا يكون مستحسناً.

وقال بكر بن النطاح:

فرعاء تسحب من قيام شعرها وتغيب فيه وهو جثل أسحم

فكأنها فيه نهار شرق وكأنه ليل عليها مظلم

فوصف شعرها بأنه ينسحب مع قيامها. ونحن نعلم أن طول الشعر وإن كان مستحسناً فليس إلى هذا الحد، وإنما أراد بقوله: (تسحب شعرها) ما أراده بقوله: «كما سحب الرداء» من المبالغة في الوصف بالطول المحمود دون المذموم)

وهذه النظرة التراثية إلى المبالغة نظرة تحترم المبالغة فتحترم معها لغة العمل الأدبي فترباً به عن الكذب وذلك لأنها ترى في العمل الأدبي

مستوى آخر من الكلام لا يمكن أن يخضع لتحديد اللغة الإيصالية التي هدفها الفهم والإفهام، ولا لتجريد لغة العلم والفلسفة والمنطق (إن الشاعر لا يجب أن يؤخذ عليه في كلامه التحقيق والتحديد فإن ذلك متى اعتبر في الشعر بطل جميعه، وكلام القوم مبنيّ على التجوز والتوسع والإشارات الخفية، والإيماء على المعاني تارة من بعد، وأخرى من قرب لأنهم لم يخاطبوا من شعرهم الفلاسفة وأصحاب المنطق، وإنما خاطبوا من يعرف أوضاعهم ويفهم أغراضهم)(١).

ولقد شنع المرتضى على الذين يفهمون من الصور الفنية المطابقة بينها وبين الواقع الخارجي مبيناً أن تشبيههم الكفل بالكثيب وبالدعص وبالتل.... انه من شأنهم إذا أرادوا المبالغة التامة وأنهم يعدون هذا غاية

المدح وأحسن الوصف ويقول بعد ذلك: (ونحن نعلم انا لو راينا من خصره مقدار وسط الزنبور، وكفله كالكثيب العظيم لاستبعدناه واستهجنا صورته لنكارتها وقبحها، وإنما أتوا بألفاظ المبالغة صنعة وتأنقاً، لا لتحمل على ظواهرها تحديداً وتحقيقاً. بل ليفهم منها الغاية المحمودة، والنهاية المستحسنة، ويترك ما وراء ذلك) (٢).

وفرق بين عدم إخضاع الشعر لصدق أو كذب كما هو الحال في هذه النظرة وبين أن تحاكمه إلى الواقع فتحكم عليه بالصدق أو الكذب كما هو حال موقف الآمدى فى الموازنة، الأمر الذى جعله يقف موقفين متناقضين من هذه القضية تبعاً لنظرتين متغايرتين إحداهما تحاكم الشعر إلى الواقع فتطلب منه الصدق (وقد كان قوم من الرواة يقولون: أجود الشعر أكذبه، ولا والله ما أجوده إلا أصدقه) (٣) والأخرى ترى فيه تأبياً على الصدق... ولكنها بدلا من أن ترى فيه مستوى آخر لا يخضع لمعيار الواقع الخارجي بصدق أو كذب تأبى إلا أن تخضعه لهذا المنطق فتحكم عليه بالكذب يقول:

(١) أمالي المرتضي: ٢/٩٥ (٢) المصدر السابق: ٢/٩٥

(٣) الموازنة: ٢/٥٨

(وقد ذكر بزرجمهر فضائل الكلام ورذائله، وبعض ذلك داخل في الشعر فقال: إن فضائل الكلام خمس إن نقصت منها فضيلة واحدة سقط فضل سائرها وهي: أن يكون الكلام صدقاً، وأن يوقع موقع الانتفاع به، وأن يتكلم به في حينه، وأن يحسن تأليفه، وأن يستعمل منه مقدار الحاجة... وهذا إنما أراد به بزرجهر الكلام المنثور الذى يخاطب به الملوك، ويقدمه المتكلم أمام حاجته، والشاعر لا يطالب بأن يكون قوله صدقاً...) (١) ولقد كانت هذه النظرة شائعة في التراث النقدى فهذا أبوهلال العسكرى يحكم على الشعر بالكذب قائلاً: (ومما يعرف أيضاً من الخطابة والكتابة أنهما مختصتان بأمر الدين والسلطان، وعليهما مدار الدار، وليس للشعر بها اختصاص، أما الكتابة فعليها مدار السلطان. والخطابة لها الحظ الأوفر من

أمر الدين ... ولايقع الشعر في شيء من هذه الأشياء موقعاً. ولكن له مواضع لاينجع فيها غيره من الخطب والرسائل وغيرها، وإن كان أكثره قد بني على الكذب والاستحالة من الصفات الممتنعة، والنعوت الخارجة عن العادات والألفاظ الكاذبة من قذف المحصنات، وشهادة الزور، وقول البهتان، لاسيما الشعر الجاهلي الذى هو أقوى الشعر وأفحله، وليس يراد منه إلا حسن اللفظ، وجودة المعنى وهذا هو الذى مسوغ استعمال الكذب وغيره مما جرى ذكره فيه. وقيل لبعض الفلاسفة: فلان يكذب في شعره. فقال: يراد من الشاعر حسن الكلام والصدق يراد من الأنبياء)(٢).

ولقد حاول الإمام عبد القاهر أن يدفع عن الصورة الفنية تهمة الكذب التي ألصقت بها، وأن يساير العمل الأدبي في مستواه الفني الذى لا يخضع لحكم الصدق أوالكذب.. فكان يحترمه ويحترم صورته الفنية التي لا تخضع لمنطق أوتجريد ولكنه لم يستطع أن يتحرر من أسر الواقع الخارجي الذى يخضع العمل الأدبي بالمقارنة به لحكمة... ونستطيع أن نقول إن النظرتين ظلتا تصطرعان في داخله. وليس أدل على ذلك من موقفه الغامض من

(١) الموازنة: ١/٤٢٧، ٤٢٨ (٢) الصناعتين: ١٤٢، ١٤٣

المبالغة الذى لم يستطع مع هذا الاصطراع أن يبتَّ في المبالغة برأى جازم حول قبولها أورفضها فهو يقول معقباً على قول البحترى:

كلفتمونا حدود منطقكم والشعر يكفى عن صدقه كذبه

(أراد: كلفتمونا أن تجرى مقاييس الشعر على حدود المنطق، ونأخذ نفوسنا فيه بالقول المحقق، حتى لاندعي إلا مايقوم عليه من العقل برهان يقطع به ويلجئ إلى موجبه مع أن الشعر يكفي فيه التخييل والذهاب بالنفس إلى ماترتاح إليه من التعليل، ولاشك أنه إلى هذا النحو قصد، وإياه عمد، إذيبعد أن يريد بالكذب إعطاء الممدوح حظاً من الفضل والسؤدد ليس له، ويبلغه بالصفة حظاً من التعظيم يجاوز به من الإكثار

محله، لأن هذا الكذب لايبين بالحجج المنطقية والقوانين العقلية، وإنما يكذب فيه القائل بالرجوع إلى حال المذكور واختباره فيما وصف به والكشف عن قدرته وخسته ورفعته أوضعته ومعرفة محله ومرتبته.

وكذلك قول من قال: «خير الشعر أكذبه» فهذا مراده لأن الشعر لايكتسب من حيث هو شعر فضلاً ونقصاً وانحطاطاً وارتفاعاً بأن ينحل الوضيع من الرفعة ماهو منه عار، أويضيف الشريف بنقص وعار، فكم جواد بخله الشعر، وبخيل سخاه، وشجاع وسمه بالجبن، وجبان ساوى به الليث... ثم لم يعتبر ذلك في الشعر نفسه حيث تنتقد دنانيره، وتنشر ديابيجه، ويفتق مسكه فيضوع أريجه.

وأما من قال في معارضة هذا القول: (خير الشعر أصدقه) كما قال:

وإن أحسن بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقا

فقد يجوز أن يراد به أن خير الشعر مادل على حكمة يقبلها العقل وأدب يجب به الفضل وموعظة تروض جماح الهوى، وتبعث على التقوى، وتبين موضع القبح والحسن في الأفعال، وتفصل بين المحمود والمذموم من الخصال، وقد ينحى بها نحو الصدق في مدح الرجال، كما قيل: كان زهير لايمدح

الرجل إلا بما فيه والأول أولى لأنهما قولان يتعارضان في اختيار نوعي الشعر)(١)، ثم مضى يفاضل بين القولين ويعدد حجج كل قول قائلا: (فن قال: (خيره أصدقه) كان ترك الإغراق والمبالغة والتجوز إلى التحقيق والتصحيح، واعتماد ما يجرى من العقل على أصح صحيح. أحب إليه وآثر عنده إذ كان ثمرة أحلى، وأثره أبقى، وفائدته أظهر، وحاصله أكثر، ومن قال: «كذبه» ذهب إلى أن الصنعة إنما يمد باعها وينشر شعاعها، ويتسع ميدانها، وتتفرغ أفنانها حيث يعتمد الاتساع والتخييل ويدعى الحقيقة فيما أصله التقريب والتمثيل، وحيث يقصد التلطف والتأويل، ويذهب مذهب القول بالمبالغة والإغراق في المدح والذم والوصف، والبث والفخر والمباهاة

وسائر المقاصد والأغراض، وهناك يجد الشاعر سبيلاً إلى أن يبدع ويزيد ويبدئ في اختراع الصور ويعيد، ويصادف مضطرباً كيف شاء واسعا، ومدداً من المعاني متتابعاً، ويكون كالمغترق من غدير لا ينقطع والمستخرج من معدن لا ينتهي. وأما القبيل الأول فهو فيه كالمقصور المداني قيده، والذى لا تتسع كيف شاء يده ثم هو في الأكثر يورد على السامعين معاني معروفة وصوراً مشهورة ويتصرف في أصول هي وإن كانت شريفة فإنها كالجواهر تحفظ أعدادها ولا يرجي ازديادها. وكالأعيان الجامدة التي لا تنمى ولا تزيد، ولا تربح ولا تفيد، وكالحسناء العقيم، والشجرة الرائعة لا تمتع بجنى كريم)(٢).

ويضيف مفاضلاً بينها وحاكماً لمنطق العقل والواقع الخارجي على منطق الفن في العمل الأدبي قائلاً: (هذا ونحوه يمكن أن يتعلق في نصرة التخييل وتفضيله والعقل بعد على تفضيل القبيل الأول وتقديمه، وتفخيم قدره وتعظيمه، وما كان العقل ناصره، والتحقيق شاهده، فهو العزيز جانبه، المنيع مناكبه. وقد قيل الباطل مخصوم وإن قضى له، والحق مفلج وإن قضى عليه. هذا ومن سلم أن المعاني المغرقة في الصدق، والمستخرجة من معدن

(١) أسرار البلاغة: ٢/ ١٣٢، ١٣٣

الحق، في حكم الجامد الذى لا ينمي والمحصور الذى لا يزيد؟)(١).

ولقد كان ميل الإمام عبد القاهر إلى ما كان العقل ناصره والتحقيق شاهده، ومحاكمة العمل الأدبي بالعقل، وما يحدث في الواقع بالصدق والتحقيق، مع عدم مطاوعة وخضوع التركيب اللغوى في العمل الأدبي لهذا التحقيق أمراً جعل الإمام عبد القاهر في موقف المضطرب من عد الاستعارة من قبيل التخييل أم لا؟ فهو يقول في موضع: (واعلم أن الاستعارة لا تدخل في قبيل التخييل لأن المستعير لا يقصد إثبات معنى اللفظة المستعارة، وإنما يعمد إلى إثبات شبه هناك: فلا يكون مخبره على خلاف

خبره، وكيف يعرض الشك في أن لا مدخل للاستعارة في هذا الفن، وهي كثيرة في التنزيل على ما لا يخفي: كقوله عزّوجلّ: (**واشتعل الرأس شيبا**) ثم لا شبهة في أن ليس المعنى على إثبات الاشتعال، ظاهراً وإنما المراد إثبات شبهه)(٢) بينما يقول في موضع آخر: (فاعلم ... إن الاستعارة وإن كانت تعتمد التشبيه والتمثيل وكان التشبيه يقتضي شيئين مشبهاً، ومشبها به وكذلك التمثيل، لأنه كما عرفت تشبيه إلا أنه عقلي ـ فإن الاستعارة من شأنها أن تسقط ذكر المشبه من البين وتطرحه، وتدعى له الاسم الموضوع للمشبه به كما مضى من قول: رأيت أسداً تريد رجلاً شجاعاً ووردت بحراً زاخراً تريد رجلاً كثير الجود فائض الكف، وأبديت نوراً تريد علماً وما شاكل ذلك، فالاسم الذى هو المشبه غير مذكور بوجه من الوجوه كما ترى، وقد نقلت الحديث إلى اسم المشبه به لقصدك أن تبالغ فيه بحيث تخيل أن معك نفس الأسد والبحر والنور كي تقوى أمر المشابهة وتشدده، ويكون لها هذا الصنيع حيث يقع الاسم المستعار فاعلاً أومفعولاً أومجروراً بحرف الجر أومضافاً إليه)(٣) ولقد شعر الإمام بتناقضه فقال بعد أن أخرج الاستعارة من التخييل (وجملة الحديث الذى أريده بالتخييل ههنا: ما يثبت

(١) أسرار البلاغة: ٢/١٣٤، ١٣٥ (٢) المصدر السابق: ٢/١٣٥

(٣) المصدر السابق: ٣/٩٧

فيه الشاعر أمراً هو غير ثابت أصلا، ويدعى دعوى لا طريق إلى تحصيلها، ويقول قولا يخدع نفسه. ويريها ما لا ترى، أما الاستعارة فإن سبيلها سبيل الكلام المحذوف في أنك إذا رجعت إلى أصله وجدت قائله وهو يثبت أمراً عقلياً صحيحاً ويدعى دعوى لها شبح في العقل)(١) والذى قاد الإمام عبد القاهر إلى هذا الاضطراب: تناوله للغة العمل الأدبي على أساس أنها إثبات ودعوى وحكم وليس أدل على ذلك من قوله السابق ومن قوله بعد ذلك: (وستمر بك ضروب من التخييل هي أظهر أمراً في البعد عن الحقيقة تكشف عن وجهة في أنه خداع للعقل وضرب من التزويق)(٢). وعلى

الرغم من موازنة الإمام بين التخييل والتصديق وميله إلى تفضيل الثاني على الأول: (فإن ذلك التفضيل ظل منحصرا في مستوى التأصيل النظرى، فحسب أما على مستوى التطبيق العملي، فقد انحاز عبدالقاهر إلى جانب التخييل وأعجب بقدرته اللافتة على عكس الحقائق، وقلب الأوضاع)(٣).

وهناك أمر آخر كان داعياً إلى قبول المبالغة وهو فكرة التحسين والتقبيح و(التحسين والتقبيح ومصطلح كلامي تبلورت حدوده وأبعاده عند المعتزلة، فهو أصل من أصولهم الخمسة المعروفة، لكن المصطلح انتقل إلى مجال البحث البلاغي ليشير إلي قدرة الكلام البليغ على إيهام المتلقي ومخادعته... وتتحقق هذه الغاية عندما يربط البليغ المعاني الأصلية التي يعالجها بمعان أخرى مماثلة لها، لكنها أشد قبحاً أوحسناً. فتسرى صفات الحسن أو القبيح من المعاني الثانوية إلى المعاني الأصلية، فيميل المتلقي إليها، أوينفر منها تبعاً للمبدأ القديم الذى يرى أن ما يجوز على أحد المتماثلين يجوز على الآخر)(٤). وقد أشار الجاحظ إلى ذلك عندما قال: (فإنه ليس شيء إلا وله وجهان وطرفان وطريقان، فإذا مدحوا ذكروا أحسن الوجهين، وإذا ذموا ذكروا أقبح الوجهين)(٥).

(١) المصدر السابق: ٢/ ١٣٦
(٢) المصدر السابق: ٢/ ١٣٦
(٣) الصورة الفنية في التراث النقدى والبلاغي: ٤٣١
(٤) المرجع السابق: ٤٢٨
(٥) الحيوان: ٥/ ١٧٤

ويقول ابن رشيق في العمدة: (ومن كتاب عبد الكريم: قالوا: حسن البلاغة أن يصور الحق في صورة الباطل، والباطل في صورة الحق)(١) ولقد وجه ابن رشيق هذا القول ودافع عنه بفكرة التحسين والتقبيح هذه فقال: (والذى أراه أنا أن هذا النوع من البيان غير معيب بأنه نفاق، لأنه لم يجعل الباطل حقاً على الحقيقة، ولا الحق باطلاً، وإنما وصف محاسن شيء مرة ثم وصف مساوية مرة أخرى، كما فعل عمرو ابن الأهتم بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم — وقد سأله عن الزبرقان

ابن بدر، فاثنى خيرا فقال: مانع لحوزته، مطاع في انديته، ويروى في أذينه([2])، فلم يرض الزبرقان بذلك، وقال: أما إنه قد علم أكثر مما قال. ولكن حسدني لشرفي — وفي رواية أخرى — حسدني مكاني منك، يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم — فأثنى عليه شرا، وقال: أما لئن قال ما قال لقد علمته ضيق الصدر، زمر المروءة، أحمق الأب، لئيم الخال، حديث الغنى ثم قال: والله يا رسول الله ما كذبت عليه في الأولى، ولقد صدقت في الآخرة، ولكن أرضاني فقلت بالرضا، واسخطني فقلت بالسخط فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنّ من البيان لسحراً) قال أبوعبيد القاسم بن سلام: وكأن المعنى — والله أعلم — أنه يبلغ من بيانه أنه يمدح الإنسان فيصدق فيه حتى يصرف القلوب إلى قوله، ثم يذمه فيصدق فيه حتى يصرف القلوب إلى قوله الآخر، فكأنه سحر السامعين بذلك.

وقال الجاحظ: العربي يعاف البذاء ويهجوبه غيره، فإذا ابتلي به فخر به، ولكنه لا يفخر به لنفسه من جهة ما هجا به صاحبه)([3]).

---

(١) العمدة: ١/٢٤٧.

(٢) وفي مجمع الأمثال (مطاع في أدنيه) وعلق عليها المحقق هناك بقوله: (هكذا في جميع أصول هذا الكتاب والأدنون جمع الأدنى بمعنى الأقرب ووقع في بعض الأمهات (مطاع في أذينه) والأذين النداء (مجمع الأمثال: ٧).

(٣) المصدر السابق: ١/٢٤٨، ٢٤٩

(مطاع في أذينه)

وهذه الفكرة تدخل في جهة من جهتيها مع فكرة «النموذج» التي ذكرناها سابقاً، فهي تدخل في المبالغة من هذه الجهة، ومن جهة الإشباع في صفة الذم أيضاً يقول الأصمعي إجابة لمن سأله: من أشعر الناس؟ (الذى يجعل المعنى الخسيس بلفظه كبيراً، أويأتي إلى المعنى الكبير فيجعله بلفظه خسيساً)([1]).

وفكرة المحاكاة التي نقلت من النقد اليوناني وسرت في النقد العربي

كانت جذرا من جذور هذه الفكرة، وداعيا لتقبل المبالغة إذ كانت فكرتها عند أرسطو أنه (لما كان الشاعر محاكياً ــ شأنه في ذلك شأن الرسام، وكل صانع صورة ــ فيجب ضرورة أن يسلك في محاكاة الأشياء أحد طرق ثلاثة: إما أن يحاكيها كما كانت أوتكون، وإما أن يحاكيها كما تقال أوتظن، وإما أن يحاكيها كما ينبغي أن تكون) (٢) والمحاكاة بما يظن أوبما يمكن أن يكون أمر جعل الشعر عند أرسطو أقرب إلى الفلسفة وأسمى مرتبة من التاريخ يقول أرسطو: (وظاهر مما قيل إن عمل الشاعر ليس رواية ما وقع بل ما يجوز وقوعه وما هو ممكن على مقتضى الرجحان أوالضرورة، فإن المؤرخ والشاعر لا يختلفان بأن ما يرويانه منظوم أومنثور بل هما يختلفان بأن أحدهما يروى ما وقع على حين أن الآخر يروى ما يجوز وقوعه، ومن هنا كان الشعر أقرب إلى الفلسفة وأسمى مرتبة من التاريخ، لأن الشعر أميل إلى قول الكليات على حين أن التاريخ أميل إلى قول الجزئيات)(٣). ولكن هل كان هذا السمو بمكانة الشعر ينطلق من تصور أن الشعر له لغته الخاصة التي تعمل على إعادة تشكيل الواقع الخارجي دون خضوع لمقياس صدق أوكذب وحقيقة وخيال؟ أوأن ذلك منطلق من تصور أن لغة الشاعر لا تختلف عن لغة الخطيب والمحدث العادى... وأن الشاعر لتحقيق دوره الخطابي يباح له الكذب لتتم عملية الإقناع؟

---

(١) المصدر السابق: ٢/٥٧ (٢) كتاب ارسطو طاليس في الشعر: ١٤٢

(٣) المصدر السابق: ٦٤

ومن ينظر إلى غرض المحاكاة المنقول عن أرسطو بأنه تحسين أوتقبيح أومطابقة والذى نقله عن ابن سينا عندما قال: (وأما اليونانيون فكانوا يقصدون أن يحثوا بالقول على فعل أويردعوا بالقول عن فعل، وتارة كانوا يفعلون ذلك على سبيل الخطابة، وتارة على سبيل الشعر فلذلك كانت المحاكاة الشعرية عندهم مقصورة على الأفاعيل والأحوال وعلى الذوات من حيث لها تلك الأفاعيل والأحوال. وكل فعل إما قبيح وإما جميل ولما

[illegible] بعضهم إلى [illegible] للتحسين وتقبيح ، فكل تشبيه ومحاكاة كان معدا عندهم نحو التقبيح أو التحسين ، وبالجملة المدح أو الذم .... وقد كان من الشعراء اليونانيين من يقصد التشبيه للفعل ، وإن لم يخيل منه قبحاً وحسناً ، بل المطابقة فقط . فظاهر أن فصول التشبيه هذه الثلاثة : التحسين والتقبيح والمطابقة)(1) .

يجزم من ينظر إلى ذلك أنه كان نابعاً من النظر إلى دور الشاعر بأنه كدور الخطيب أو المناظر يتوسل لإثبات منطقة بكل حجة وذريعة وهذا أمر سرى في النقد العربي ورأيناه عند عبد القاهر الجرجاني في بحثه عن أقسام التخييل . وعند حازم القرطاجني الذى يقول : (وإنما يرجع الشاعر إلى القول الكاذب حيث يعوزه الصادق والمشتهر بالنسبة إلى مقصده في الشعر فقد يريد تقبيح حسن ، وتحسين قبيح ، فلا يجد القول الصادق في هذا ولا المشتهى فيضطر حينئذ إلى استعمال الأقاويل الكاذبة)(2) . وتلاحظ أن فكرة التحسين والتقبيح هنا تجاوزت ما يمكن أن يكون من اشباع الصفات المدح أو الذم إلى سلوك طريق المغالطة والمخادعة وقلب الحقائق بتقبيح الحسن ، وتحسين القبيح .

ولقد كانت هذه الأمور مدعاة لقبول المبالغة والترويح لها ، إذ وضعت الرافضين للمبالغة في موقف حرج إذ كانوا يطلبون من لغة العمل الأدبي ما تنوء به وترفضه فهي كما يرى المرتضى لا تتطلب تحقيقاً وتحديداً ، الأمر

---

(1) كتاب ارسطو طاليس في الشعر: ٢٠٠ (2) منهاج البلغاء: ٧٢

الثاني: أن هناك فصلا بين جزئيات الكلام فهناك فائدة للجزئية الأولى **(ويطعمون الطعام)** وهناك فائدة أخرى للجزئية الثانية **(على حبه)** وقد كانوا في غنى عن هذا النقاش لو أخذوا هذه الآية في سياق الآيات بل في سياق الآية نفسها على الأقل.

الثالث: الشك في مصطلحاتهم ، وإيراد الاعتراضات عليها مما يبين لنا

زعزعة تلك الاصطلاحات التي ناقشوها، ذلك الأمر الذي نأخذ منه أن علينا أن نناقش أيضا ونخالف فيما بدا لنا أنه وجه الحق.

ولقد انساق القوم وراء مصطلحاتهم التي فرضوها بناء على أن لكل كلام معنى أصليا بغض النظر عن دلالة منطوقه لأن هذه الدلالة قد تقل عن المعنى فتسمى إيجازاً أوتساويه فتكون مساواة أوتزيد عنه فتكون إطنابا وتطويلا.... وما أسهل الفرض وما أصعب تحقيقه، وعندما جاءوا عند التحقيق في مناقشة وتطبيق هذه المصطلحات الفرعية على الكلام اضطرهم ذلك إلى المحاورة ومحاولة سد الثغرات كما سبق أن رأينا بكل ما يملكون من قوة في الجدل. ولم يبال بعضهم في سبيل الانسياق وراء هذا الافتراض أن يجدد في كلام الله تعالى الكلام الأصلي الذي يكفي في نظره بناء على فرضه فهذا الدسوقي يقول في قوله تعالى:

« وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا » (١)

والحاصل أن القصد من الآية مجرد مدح الأبرار بالسخاء والكرم ولا شك أن هذا يكفي فيه مجرد الإخبار عنهم يطعمون الطعام سواء كانوا يحبونه أولا ولا يتوقف ذلك على بيان كون الطعام محبوبا لهم وحينئذ فقوله **(على حبه)** إطناب نكتته إفادة المبالغة في المدح (٢). وأبسط مانقوله هنا إن حصر الآية في هذا القصد دعوى تدل الآية على كذبها إذ أن القصد من الآية يجب أن

(١) سورة الإنسان: ٨

(٢) حاشية الدسوقي على شرح السعد: ٢٣٧/٣.

ومن ثم يقسم التشبيه على هذا الأساس إلى أربعة أضرب «فتشبيه مفرط» وتشبيه مصيب، وتشبيه مقارب، وتشبيه بعيد يحتاج إلى التفسير ولا يقوم بنفسه وهو أخشن الكلام»(١). وكانت شواهده التي ساقها دليلا على كل قسم وتمييزاً له عن غيره «فنرى في شواهد التشبيه المفرط شيئاً من المبالغة، وفي أمثلة التشبيه المصيب انطباقاً يجرى على حدود الممكن

والواقع، في دلائل التشبيه المقارب نوعا من الوضوح والصراحة، وفي التشبيه البعيد حاجة إلى التأويل والتفسير(٢).

ولكن المبرد الذى وضع نفسه في إطار هذه النظرة يصطدم بالكثرة الكاثرة لهذا النوع الذى سماه بالتشبيه المفرط في الكلام العربي فهو عندما يقول: «فمن التشبيه المفرط المتجاوز قولهم للسخي هو كالبحر، وللشجاع هو الأسد»(٣) يفصح بذلك عن هذه الكثرة لأن مثل ذلك هو جل الكلام العربي شعراً ونثراً.

وقد قرن ذلك بتراكيب وأبيات تحمل المبالغة وإن كانت عن طريق غير التشبيه دالاً بذلك على أن الإفراط في التشبيه كالإفراط في المعنى وذلك حيث يربط تشبيههم المفرط للسخي بالبحر، وللشجاع بالأسد بقولهم للشريف: «سما حتى بلغ النجم، وقول بكر بن النطاح:

له همم لامنتهى لكبارها وهمته الصغرى أجل من الدهر
له راحة لو أن معشارَ جودها على البَرِّ صارالبَرُّ أندى من البحر
ولو أن خلق الله في مسك فارس وبارزه كان الخلى من العمر(٤)

ويحمل لنا المبرد في كتابه الكامل ظناً سيئاً بالمبالغة يقود إلى اتهامها بالكذب وذلك يظهر في إيراد ما دار بين عمران بن حطان وزوجته عندما قالت له امرأته:

(١) المصدر السابق: ١٠١/٢

(٢) اثر النحاة في البحث البلاغي: ٢١٦

(٣) الكامل: ١٠١/٢

(٤) الكامل: ٢ / ١٠١

أما زعمت أنك لم تكذب في شعر قط. فقال: أوفعلت؟ فقالت: أنت القائل:

فهناك مجزأة بن ثو ر كان أشجع من أسامه

أفيكون رجل أشجع من أسامة، فقال لها: أنا رأيت مجزأة فتح مدينة

والأسد لايفتح مدينة (١). ولكن ما هو موقف المبرد نفسه من المبالغة ؟؟!!

لقد ظل المبرد حائراً بين أمرين :

أولهما: صدق الواقع الخارجي والمقاربة في التشبيه.

ثانيهما: كثرة الإفراط في الكلام العربي شعراً ونثراً عن طريق التشبيه وطريق المعنى.

فهل يرد الأمر الثاني لعدم وفائه بشروط الأمر الأول ؟ وما هو تصرفه ازاء ذلك ؟ لقد تصرف المبرد ازاء ذلك تصرفاً تظهر فيه المكابرة التي ترفض الإفراط وتنادى بالصحة والصواب والمقاربة، وتحاول الصمود أمام كثرة ما وسم بالإفراط في الكلام العربي، فلاتقوى إلا برد الإعجاب إلى شيء آخر غير الإفراط. يظهر ذلك في قوله: «ومن التشبيه في إفراط غير أنه خرج في كلام جيد وعنى به رجل فخرج من الاحتمال إلى باب الاستحسان ثم جعل لجودة ألفاظه وحسن رصفه واستواء نظمه في غاية ما يستحسن قول النابغة: يعي حصن بن حذيفة بن بدر بن عمرو الفزارى:

يقولون حصنٌ ثم تأبى نفوسُهم وكيف بحصنٍ والجبال جنوحُ
ولم تلفظ الموتي القبور ولم تزل نجوم السماء والأديم صحيح
فعمّا قليل ثم جاء نعيه فظلّ ندىّ الحي وهو ينوح» (٢)

وقوله :

ومن تشبيههم المتجاوز الجيد النظم ما ذكرناه وهو قول أبي الطمحان :

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبة (٣)

---

(١) الكامل : ٢/١٠١ (٢) الكامل : ٢/١٠١، ١٠٢

(٣) المصدر السابق : ٢/١٠٢

وهذا الإعجاب الذى يحاول أن يرده المبرد إلى غير الإفراط هو الذى جعل الدكتور عبدالقادر حسين يتوهم أن المبرد يناصر المبالغة ويظهر ذلك في قوله: «والمبرد يقصد بالتشبيه المفرط، التشبيه المبالغ فيه، ونراه يعجب بهذا اللون من التشبيه، ويؤازر إعجابه بما يذكره من تشبيهات القرآن وشعر

الفحول »(١). وقوله: (والمبرد كان على فهم ودراية حين اعجب بالتشبيه المفرط الذى يتسم بالمبالغة)(٢) مع أن المدقق في كلام المبرد يستنتج منه نفوره من المبالغة ذلك النفور الذى صرح به في قوله: (وأحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذا شبه، وأحسن منه ما أصاب به الحقيقة)(٣).

ويتضح مما سبق أن رفضه للمبالغة والإفراط لا ينبع من أن محاكمة العمل الأدبي إليهما ليس من طبيعته، ولكنه ينبع من الظن السيىء بهما.

والحرج من المبالغة يظهر في تناقض ابن قتيبة في الموقف منها فهو يقبلها ويرد على الطاعنين على القرآن الكريم الذين يفسرونها فيه بالكذب في كتابة: (تأويل مشكل القرآن) ينفي تلك التهمة عنها، حيث يقول: (وليس ذلك بكذب لأنهم جميعا متواطئون عليه، والسامع له يعرف مذهب القائل فيه)(٤) ويضرب على ذلك الأمثلة من القرآن الكريم، وكلام العرب ثم يقول: (وكان بعض «أهل اللغة» يأخذ على الشعراء أشياء من هذا الفن وينسبها فه إلى الإفراط، وتجاوز المقدار وما أرى ذلك إلا جائزا حسناً على ما بيناه من مذاهبهم.

يقول النابغة في وصف سيوف:

تقدّ السلوقيَّ المضاعفَ نسجُه ويوقدن بالصّفاح نار الحباحب

ذكر أنها تقطع الدروع التي هذه حالها، والفارس حتىّ تبلغ الأرض فتورى النار إذا أصابت الحجارة.

---

(١) أثر النحاة في البحث البلاغي: ٢١٣ (٢) المرجع السابق: ٢١٣

(٣) الكامل: ١/١٧٣ (٤) تأويل مشكل القرآن: ١٦٧ فما بعدها

وقول النمر بن تولب:

تظل تحفر عنه إن ضربت به بعد الذراعين والساقين والهادى

يقول: رسب في الأرض بعد أن قطع ما ذكر، واحتاج أن يحفر عنه

ليستخرجه من الأرض.

ومثله قول مهلهل:

ولولا الريح أسمع أهل حجر	صليل البيض تقرع بالذكور

ويتبع ذلك بأمثلة أخرى يختتمها بقوله: (وكل هذا على المبالغة في الوصف وينوون في جميعه يكاد يفعل، وكلهم يعلم المراد منه)(١)

ونجده في الشعر والشعراء يقول: عن النابغة: (وأخذوا عليه قوله في وصف السيوف:

يطير فضاضاً حولها كل قونس	ويتبعها منهم فراش الحواجب

تقدّ السلوقيَّ المضاعف نسجه	ويوقدن بالصفاح نار الحباحب

وذكر أنها تقد الدروع التي ضوعف نسجها والفارس والفرس حتى تبلغ الأرض فتنقدح النار بها من الحجارة)(٢)

ويقول عن النمر بن تولب:

(وما يعاب عليه قوله في وصف سيف:

تظل تحفر عنه إن ضربت به	بعد الذراعين والساقين والهادى

ذكر أنه قطع ذلك كله، ثم رسب في الأرض، حتى احتاج إلى أن يحفر عنه وهذا من الإفراط والكذب)(٣).

ويقول عن المهلهل: (وهو أحد الشعراء الكذبة لقوله:

ولولا الريح أسمع أهل حجر	صليل البيض تقرع بالذكور) (٤)

---

(١) المصدر السابق: ١٧٢ ــ ١٧٨
(٢) الشعر والشعراء: ٧٩
(٣) المصدر السابق: ١٧٣
(٤) المصدر السابق: ١٦٤

ويقول الدكتور عبد السلام عبد الحفيظ عبد العال: (وأكثر الأبيات ـتي ارتضاها ورآها أمراً جائزاً حسناً في تأويل مشكل القرآن نسبها إلى ﻹفراط والكذب في الشعر والشعراء.

ولم يعتمد في وصفها بالإفراط والكذب على أقوال السابقين وحسب، ولكنه اعتمد على أقوالهم فيها ـ أحياناً ـ ووصفها أووصف أصحابها هو بنفسه أحياناً أخرى كما يبدو ذلك من المثالين الأخيرين ـ يعني قوله في قول النمر، وفي قول المهلهل ـ اللذين ذكرتهما له) (١) .

فهل في الموقفين تناقض ؟! أو أن ابن قتيبة ألف: (الشعر والشعراء) قبل (تأويل مشكل القرآن) فيكون ما في التأويل رجوعاً عما في : (الشعر والشعراء).

كلا الأمرين جائز.

ولكن الأمر الأول أرجح لأنه لو كان ما في تأويل (مشكل القرآن) رجوعاً عما في (الشعر والشعراء) لصرح به ابن قتيبة وذلك لأنه كان في (تأويل مشكل القرآن) يدافع عن القرآن الكريم، ومن ثم كان يجب أن يكون فيه النص على الإقلاع عما كان منه من الذى أخذه على أهل اللغة. وهذا التناقض الذى يسود في النقد العربي من الموقف من المبالغة، والذى يظهر عند ابن قتيبة، والذى تحايل عليه المبرد كما سبق أن أوضحنا ـ ويظهر عند الآمدى، والإمام عبد القاهر الجرجاني كما سبق أن أشرنا، وغيرهم، كان نتيجة لعدم سلامة النظرة إلى العمل الأدبي تلك النظرة التي لا تحترم لغة العمل الأدبي، ولا ترى فيها إلا صورة لمطابقة الواقع الخارجي ثم تصطدم بجلال وجمال الأساليب التي يرون فيها مخالفة وتجاوزاً لحدود وأبعاد الواقع الخارجي، فحيناً تجدهم يتحررون من أسر هذا الواقع ويحترمون فاعلية اللغة، فيقارنون الأساليب ببعضها ويخرجونها من تهمة الإفراط والكذب والادعاء وحيناً

(١) نقد الشعر بين ابن قتيبة وابن طباطبا العلوى : ٢٧٣

يتحكم بهم الواقع الخارجي، وحدود منطقهم العقلي، فينسون الجمال والجلال فيحكمون على هذه الأساليب بالإفراط والكذب والادعاء.

إن هذا هو الذى يمكن أن نفسر به التناقض في الموقف من المبالغة وأما قول الدكتور عبد السلام عبد الحفيظ عبد العال: (وفي تقديرنا أن ابن قتيبة لا يصح أن يؤاخذ على رأيه في تأويل مشكل القرآن، أو أن يؤخذ به لأنه ـ فيما نعتقد ـ لم يكن مطلق الحرية وهو يقول بهذا الرأى المستحسن للمبالغة جملة، إنما كان محوطاً بعاملين كان لها أبلغ الأثر في توجيه رأيه، هما: بلاغة القرآن، ذاتها وقد أخذ بها من غير شك، ووجد فيها نماذج ظنها من المبالغة الغالية، ولم يستطع تبريرها على غير المبالغة، والعامل الثاني هو التأثير البالغ الذى مسّ نفسه وهيجها بما وجه إلى القرآن من الطعن عليه، والنيل من بلاغته، فكان هذان العاملان معاً هما اللذين دفعاه إلى تبرير المبالغة، والبحث عن مخرج ينفي عنها الغلو والإغراق ويجعلها في شكل الممكن ولما كان القرآن قد نزل بلغة العرب وعلى أساليبهم كانت المبالغة جائزة في لغة العرب وفي أساليبهم على التأويل الذى رآه) (١).

فلا يكفي في تفسيرنا تناقض ابن قتيبة، وفيه رجوع عن بعض الاحترام والتقدير الذى لقيته لغة القرآن الكريم، والشعر العربي في: (تأويل مشكل القرآن) عند ابن قتيبة إلى محاكمة لغة القرآن الكريم، والشعر العربي بحدود الواقع الخارجي، ومدركات العقل البشرى المحدودة، ومن ثم الحكم على الشعراء بالإفراط والادعاء، والانصراف بالآيات القرآنية إلى التأويل، وربطها من الواقع الخارجي بعلاقات الاستعارة والمجاز ويؤكد الدكتور هذا الرجوع بقوله: (ولذا فإني أوثر رأيه في: (الشعر والشعراء) وفي بعض مما ورد في (تأويل مشكل القرآن)، لأنه في (الشعر والشعراء) كان حراً طليقاً لا قيد عليه، ولا مؤثر فيه إلا عقله وذوقه وحسه، وفي (التأويل) إذ بني رأيه

---

(١) المرجع السابق: ٢٧٦، ٢٧٧

علي الاستعارة) (١) ولست أدرى ما هو مقصود الدكتور من الحرية التي افتقدها ابن قتيبة في: (تأويل مشكل القرآن)؟! هل يعني بذلك أن

القرآن فرض علي ابن قتيبة قبول ألوان من الأساليب غير مقبولة ؟

كلا ، إن الأمر ليس كذلك ولكنها لغة القرآن التي توجد الألفاظ في سياقها في حياة جديدة تستمد مقوماتها من السياق الذى وردت فيه . ذلك السياق الذى كان متميزاً عن كلام العرب الذين نزل القرآن بلسانهم .

وقبل أن أختتم هذا الفصل أود أن أشير إلى أنه وإن كنت أرفضُ صحة المعيار الذى قامت عليه فكرة المبالغة في تراثنا البلاغي والنقدى ، وما لحقها من سوء فهم تجاوز بها ماتدل عليه في اللغة من بلوغ الغاية والنهاية في المعنى ، إن كنت أرفض ذلك فليس معنى ذلك أن اللغة الأدبية تقبل كل قول يحلق فيه صاحبه في أودية الوهم ، وينأى به عن المعقول ، وإنما الذى تقبله من ذلك ما كان له في السياق وجود يظهر أصالته ، ويتناسق به مع غيره في التركيب اللغوى للكلام ، كما كان ذلك في كثير من الأمثلة التي ناقشناها في أثناء هذا البحث .

وأود أن أشير إلى أن هناك مايرفض من أدبنا الإسلامي لا لأن السبب فيه المبالغة ، ولكن لأن فيه مايتعارض مع سلامة العقيدة .

فمن ذلك قول ابن هانئ الأندلسي يمدح الخليفة المعز لدين الله :

ما شئت لا ما شاءت الأقدارُ   فاحكم فأنت الواحدُ القهارُ
وكأنما أنت النبيُّ محمدٌ   وكأنما أنصاركُ الأنصارُ
أنت الذى كانت تبشِّرُنا به   في كُتبِها الأحبار والأخبارُ(٢)

وقول على بن جبلة في مدح أبي دلف :

---

(١) المرجع السابق : ٢٢٧   (٢) ديوان الحسن بن هانئ : ١٤٦

أنت الذى تنزلُ الأيام منزلَها   وتنقلُ الدَهْرَ من حالٍ إلي حال

ومـا مـددتُ مدى طرف إلى احد		إلا قضيـت بـارزاق واجـال(١)

وقول أبي نواس :

يـا أحمد المرتجى في كـل نـائبةٍ		قم سيدى نعصِ جبّارَ السموات(٢)

---

(١) الشعر والشعراء : ٥٥١ (٢) ديوان أبي فراس : ١٧٤

أني لأحمد الله العلي القدير على نعمه التي لا تحصي، وما هيأه لي من أسباب لإكمال هذا البحث، الذى درست فيه «المبالغة في البلاغة العربية» في ثلاثة أبواب، حيث تتبعت في الباب الأول، المبالغة في اللغة وفي استعمالات النقاد والبلاغيين، وغيرهم من اللغويين والمتكلمين، حيث وجدت أنها لا تعني في اللغة إلا بلوغ الغاية والنهاية، ولا تتجاوز ذلك إلى ما اقترن بها عند النقاد والبلاغيين من الإسراف، والإفراط، والكذب والادعاء.

وظلت محافظة على هذه الدلالة في استعمالها في اللفظة المفردة كما رأينا عند الخليل وسيبويه، وابن جني، والثعالبي، وغيرهم حتى إذا وصلنا إلى البهاء السبكي المتوفى سنة ٧٦٣هـ وجدناه يتجاوز بهذه الدلالة لها في اللغة إلى الإسراف والادعاء.

وأما استعمالاتها في التراكيب فقد خضعت للمفهومين، بل إن اقترانها بالادعاء والإسراف، والكذب كان هو المفهوم الغالب، وكان فيه مخرجاً لتأويلات المعتزلة ومن إليهم.

وأما الباب الثاني فدرست فيه «أساليب المبالغة» حيث تناولت أشهر تلك الأساليب، وبيّنت في كل أسلوب قضية إدخاله تحت «المبالغة» وماذا يعنون بها فيه، فإن كانوا يعنون بها الادعاء والإفراط، والكذب، رفضتها وبيّنت بطلان الأساس الذى قام عليه ذلك التفسير في الأسلوب، وإن كانوا لا يعنون به إلا بلوغ الغاية في تأدية المعنى المراد، بيّنت أن ذلك التفسير لا يكفي لبيان وظيفة ذلك الأسلوب داخل السّياق الذى جاء فيه.

وأما الباب الثالث والأخير من هذا البحث فقد تناولت فيه: (مكانة المبالغة في البلاغة العربية) حيث تناولت في الفصل الأول: شيوع التعليل

بالمبالغة وأسبابه، حيث استنتجت أن هذه الأسباب تعود إلى عاملين رئيسيين هما:

١ ـ فكرة صياغة المعنى:

وهو الأمر الذى استقر في تراثنا البلاغي والنقدى، حيث تصوروا أن الصيغة التي يخرج عليها الكلام تعبر عن معنى سابق، بيّنه حدوده ومعالمه، ثم تفصّل هذه الصيغة على تلك الحدود والمعالم، فما طابق منها كان حقاً وصدقاً، وما زاد عن ذلك كان مبالغة وإفراطاً، وادعاء.

٢ ـ تحكيم العقل والواقع الخارجي في الأداء اللغوى:

وهو أمر طاف بالأداء اللغوى في تراثنا، فرّقه، ورمي بإبداعه، وتفرّده في أودية المجاز، والمبالغة، اللذين كانا من وسائل التبرير لخروج الأداء عن نسقه الذى يفترض أن يكون عليه، ليطابق الواقع الخارجي، ويساير المعقول، ومن هنا كان الحكم بالمبالغة على بعض آيات القرآن الكريم كقوله تعالى:

«وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ» (١)

التي أوجبوا فيها ما ليس منها حيث أوجبوا فيها إضمار «كاد».

وأما الفصل الثاني: فحاولت أن أتبين فيه المواقف من المبالغة، حيث درست فيه: (المبالغة بين القبول والرفض) وحاولت أن أتبين الأسباب الداعية إلى قبولها، والأسباب الداعية إلى رفضها.

وهكذا يتبين لنا:

أن دلالة المبالغة في اللغة لا تعني ما اقترن بها من إفراط، وكذب، وادعاء، وأن هذه التهم التي اقترنت بها مبينة على أسس وافتراضات بعيدة كل البعد عن طبيعة لغة العمل الأدبي والفني الذى تتحرك فيه الألفاظ في

(١) سورة الأحزاب: ١٠.

وجود وسياق خاص ؛ حيث تكتسب من خلال وجودها في السياق حياة أخرى تتجاوز المعنى الوضعي الذى يتصور أن وضعها أصل فيه ، وأن تجاوزها إلى غيره مجاز أو مبالغة .

ومن هنا كان علينا أن نرفض هذه المبالغة التي تقترن بهذه التهمة في تفسير كتاب الله الكريم : (الذى لا يأتيه الباطل بين يديه ولا من خلفه) .

وأما تلك المبالغة الباقية دلالتها وفق استعمالها في اللغة فلا ضير من التعامل بها في التفسير والدراسات النقدية والبلاغية ، مع مراعاة قصورها في تفسير وتحليل العمل الأدبي . ولن أدعي أن هذه النتائج التي توصلت إليها نهائية ، وما أستطيع أن أقوله هو : أن هذه النتائج جاءت عن طريق التتبع والاستقراء ، والاستنتاج والمقارنة كما يظهر من ثنايا هذا البحث ، فإن أصبتُ فلله الحمد والمنة على توفيقه وإن جانبني الصواب فيكفيني من هذه المحاولة التنبيه إلى خطورة استعمال هذا « المصطلح » بمفهومه الخاطئ في الحكم على قرآننا الكريم ، وتراثنا العربي الأصيل ولكل مجتهد نصيب .

(ربنا لا تزغ قلوبنا بَعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب) . وصلى الله علي سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

فهرس المصادر والمراجع

الآمدى (أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى):

ـ الموازنة بين شعر أبي تمام والبحترى.

تحقيق السد أحمد صقر ـ الطبعة الثانية ـ دار المعارف بمصر سنة ١٣٩٣ هـ.

ابن الأثير (أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير):

ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر.

تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي سنة ١٣٥٨ هـ ـ ١٩٣٩م.

الأزهرى (أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى):

ـ تهذيب اللغة.

تحقيق: عبد السلام محمد هارون ـ دار القومية للطباعة سنة ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٤م.

د. أحمد إبراهيم موسى:

ـ الصبغ البديعي في اللغة العربية.

دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ـ القاهرة سنة ١٣٨٨ هـ/١٩٦٩م.

د. أحمد عبد السيد الصاوى:

ـ النقد التحليلي عند عبد القاهر الجرجاني.

الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٩م.

ابن أبي الاصبع (المصرى):

ـ بديع القرآن.

تقديم وتحقيق د. حفني محمد شرف ـ الطبعة الثانية ـ دار نهضة مصر.

ـ تحرير التحبير.

تحقيق د. حفني محمد شرف ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة ١٣٨٣ هـ.

الأصفهاني (أبو بكر محمد بن أبي سليمان داود الأصفهاني):

ـ الزهرة.

نشر الدكتور: لويس نيكل البوهيمي ـ مطبعة الآباء اليسوعيين ـ بيروت سنة ١٩٣٢م.

الألوسي (أبو الفضل شهاب الدين السيد محمد الألوسي):

ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني.

دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

الباقلاني (أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني):

ـ إعجاز القرآن.

تحقيق السيد أحمد صقر ـ الطبعة الثالثة ـ دار المعارف بمصر.

د. بدوى طبانة:

ـ قدامة بن جعفر والنقد الأدبي.

الطبعة الثالثة ـ مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م.

التفتازاني (سعد الدين التفتازاني):

ـ مختصر السعد على تلخيص المفتاح

ـ ضمن شروح التلخيص ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر.

ابن تيمية (تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية):

ـ الإيمـان.

الطبعة الثالثة سنة ١٣٩٩هـ ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت.

ـ مقدمة في التفسير.

تحقيق د. عدنان زرزور ـ دار القرآن الكريم ـ الكويت ـ الطبعة الأولى ١٣٩١هـ.

الثعالبي (عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي النيسابورى):

ـ فقه اللغة وسر العربية.

تحقيق: مصطفى السقار ـ إبراهيم الإبيارى ـ عبد الحفيظ شلبي ـ الطبعة الأخيرة ـ ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م ـ مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي.

ـ يتيمة الدهر.

تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. دار الفكر العربي ـ بيروت ـ الطبعة الثانية سنة ١٩٧٣م ـ ١٣٩٢هـ.

ثعلب (أبو العباس أحمد ثعلب):

ـ قواعد الشعر.

شرح وتعليق: محمد عبد المنعم خفاجي، الطبعة الأولى سنة ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م، مطبعة مصطفى البابي الحلبي.

د. جابر أحمد عصفور:

ـ الصورة الفنية في التراث النقدى والبلاغي.

دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٧٤م.

الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ):

ـ الحيـوان.

تحقيق: عبد السلام محمد هارون ــ دار الفكر العربي ــ بيروت ــ سنة ١٩٦٩م ــ ١٣٨٨هـ.

ــ البيان والتبيين.

تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون ــ الطبعة الثالثة ــ مؤسسة الخانجي بالقاهرة.

چان بول سارتر:

ــ ما الأدب.

ترجمة وتقديم وتعليق: د. محمد غنيمي هلال ــ دار نهضة مصر للطبع والنشر القاهرة.

الجرجاني (القاضي على بن عبد العزيز الجرجاني):

ــ الوساطة بين المتنبي وخصومه.

تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل ابراهيم ــ على محمد البجاوى ــ مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

ابن جني (أبو الفتح عثمان بن جني):

ــ الخصائص.

تحقيق: محمد على النجار ــ الطبعة الثانية ــ دار الهدى للطباعة والنشر ــ بيروت.

ــ المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها.

تحقيق: علي النجدى ناصف ــ د. عبد الفتاح إسماعيل شلبي واشترك معهما في تحقيق الجزء الأول د. عبد الحليم النجار ــ لجنة أحياء التراث الإسلامي ــ القاهرة ١٣٨٩هـ ــ ١٣٦٩م.

الحاتمي (أبو علي محمد بن الحسن الحاتمي):

ــ الرسالة الموضحة.

تحقيق د. محمد يوسف نجم ــ بيروت سنة ١٣٨٥هـ ــ ١٩٦٥م.

ابن حجة الحموى (تقي الدين أبو بكر علي):

ـ خزانة الأدب.

دار القاموس الحديث ـ بيروت.

أبو حيان (أبو عبد الله محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي):

ـ البحر المحيط.

الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م ـ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

أبو حيان التوحيدى (على بن محمد بن العباس التوحيدى):

ـ الامتاع والمؤانسة.

تحقيق: أحمد أمين ـ أحمد الزين ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت.

الخالديان (أبو بكر محمد بن هاشم وأبو عثمان سعيد بن هاشم):

ـ الأشباه والنظائر

تحقيق: السيد محمد يوسف ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة سنة ١٩٥٨ ـ ١٩٦٥م.

ابن خالويه (أبو عبد الله الحسن بن خالويه):

ـ ديوان أبي فراس.

دار بيروت للطباعة والنشر سنة ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

الخنساء (تماضر بنت عمرو):

ـ ديوان الخنساء.

دار صادر ـ بيروت.

الدسوقي (محمد بن محمد بن عرفه الدسوقي):

ـ حاشية الدسوقي على مختصر السعد.

ضمن شروح التلخيص ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر.

د. رجاء عيد:
ـ فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور.
طبع منشأة المعارف بالإسكندرية.

ابن رشيق (أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدى):
ـ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده.
تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ـ الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٢م ـ دار الجيل الجديد بيروت.

الرّماني (أبو الحسن على بن عيسى الرماني):
ـ النّكت في إعجاز القرآن.
ضمن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)
حققها وعلق عليها: محمد خلف الله ـ د. محمد زغلول سلام ـ الطبعة الثالثة ـ دار المعارف بمصر.

ريتشاردز:
ـ مبادئ النقد الأدبي.
ترجمة مصطفى بدوى ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف ـ القاهرة ١٩٦٣م.

الزركشي (الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي):
ـ البرهان في علوم القرآن.
تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار المعرفة ـ بيروت.

الزمخشرى (أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى الخوارزمي):
ـ أساس البلاغة.
دار مطابع الشعب ـ القاهرة سنة ١٩٦٠م.
ـ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل.

رتبه وضبطه وصححه مصطفى حسين أحمد ـ الطبعة الثانية ـ مطبعة الاستقامة بالقاهرة سنة ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٣م.

السبكي (بهاء الدين أبو حامد أحمد بن تقي الدين السبكي):

ـ عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح.

ضمن شروح التلخيص ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر.

السبكي (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي):

ـ طبقات الشافعية.

تحقيق: محمود محمد الطناحي ـ عبد الفتاح محمد الحلو. الطبعة الأولى بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر.

السكاكي (أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي):

ـ مفتاح العلوم.

طبع دار الكتب العلمية ـ بيروت.

ابن سنان (الأمير أبو محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي):

ـ سر الفصاحة.

صححه وعلق عليه: عبد المتعال الصعيدي، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده بمصر سنة ١٩٧٢هـ ـ ١٩٥٢م.

سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر):

ـ الكتاب.

تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون ـ دار القلم.

سيد قطب:

ـ فى ظلال القرآن.

الطبعة السابعة ـ دار الشروق ـ جدة.

ابن سيده (علي بن إسماعيل بن سيده):

ـ المحكم والمحيط الأعظم في اللغة.

تحقيق د. إبراهيم الإبياري ـ الطبعة الأولى سنة ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وشركاه بمصر.

السيوطي (عبد الرحمن جلال الدين السيوطي):

ـ المزهر في علوم اللغة وأنواعها.

شرح وضبط: محمد أحمد جاد المولى ـ علي محمد البجادى ـ محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر دار إحياء الكتب العربية ـ طبع مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر.

الشنتمرى (يوسف بن سليمان بن عيسى الشنتمرى المعروف بالأعلم):

ـ شعر زهير بن أبي سلمى.

تحقيق د. فخر الدين قباوه ـ دار القلم العربي سنة ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.

د شوقي ضيف:

ـ البلاغة تطور وتاريخ.

الطبعة الثانية ـ دار المعارف بمصر.

د صلاح فضل:

ـ نظرية البنائية في النقد الأدبي.

مكتبة الانجلو المصرية سنة ١٩٧٨م.

ابن طباطبا (محمد بن أحمد بن طباطبا العلوى):

ـ عيار الشعر.

تحقيق وتعليق د. طه الحاجرى ـ د. محمد زغلول سلام ـ المكتبة التجارية ـ القاهرة سنة ١٩٥٦م.

العباسي (عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد العباسي):
ــ شرح شواهد التلخيص المسمى (معاهد التنصيص).
المطبعة البهية المصرية سنة ١٣٠٤هـ.

عبد الجبار (قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد الهمذاني):
ــ تنزيه القرآن عن المطاعن.
طبع دار النهضة الحديثة ــ بيروت.
ــ متشابه القرآن.
تحقيق: عدنان محمد زرزور ــ دار التراث ــ القاهرة.

د. عبد السلام عبد الحفيظ عبد العال:
ــ نقد الشعر بين ابن قتيبة وابن طباطبا العلوي.
نشر دار الفكر العربي ــ طبع بمطبعة دار القرآن ــ القاهرة.

د. عبد الفتاح عثمان:
ــ نظرية الشعر في النقد العربي القديم.
طبع مكتبة الشباب ــ مصر.

د. عبد الفتاح لاشين:
ــ بلاغة القرآن في آثار القاضي عبد الجبار.
ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربي ــ مطبعة دار القرآن ــ القاهرة.

د. عبد القادر حسين:
ــ أثر النحاة في البحث البلاغي.
دار نهضة مصر للطبع والنشر.

عبد القاهر الجرجاني:
ــ أسرار البلاغة.

شرح وتعليق : محمد عبد المنعم خفاجي ـ الطبعة الثانية ١٣٩٦ هـ ـ ١٩٧٦ م ـ مكتبة القاهرة .

ـ دلائل الإعجاز .

تصحيح وتعليق : السيد محمد رشيد رضا ـ دار المعرفة ـ بيروت سنة ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م .

أبو عبيدة (معمر بن المثنى) :

ـ مجاز القرآن .

تحقيق : محمد فؤاد سزكين ـ مطبعة الخانجي ـ القاهرة ـ ١٩٥٤ م .

العسكرى (أبو أحمد الحسن بن عبد الله العسكرى) :

ـ المصون في الأدب .

تحقيق : عبد السلام محمد هارون ـ الكويت ـ سنة ١٩٦٠ م .

العسكرى (أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى) :

ـ ديوان المعاني .

نشر مكتبة المقدسي ـ القاهرة سنة ١٣٥٢ هـ .

ـ الصناعتين (الكتابة والشعر) .

تحقيق : على محمد البجاوى ـ محمد أبو الفضل إبراهيم ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر .

ابن عقيل (قاضي القضاة بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي المصرى) :

ـ شرح ابن عقيل .

تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ـ الطبعة العشرون سنة ١٤٠٠ هـ .

العكبرى (أبو البقاء العكبرى) :
ـ التبيان في شرح الديوان .
ضبطه وصححه : مصطفى السقا ـ إبراهيم الإبيارى ـ عبد الحفيظ شلبي .
طبعة الأوفست ـ دار المعرفة ـ بيروت سنة ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٨م .

العلوى (الإمام يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوى اليمني) :
ـ الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز .
نشر دار الكتب العلمية ـ بيروت سنة ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ .

د . علي محمد حسن العمارى :
ـ بلاغة الرسول ـ طبع دار الأنصار بالقاهرة :
ـ المعاني بين القصد والإفراط ـ بحث نشر في مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي ـ العدد الرابع سنة ١٤٠١ هـ .

عمر بن أبي ربيعة :
ـ ديوان عمر بن أبي ربيعة .
دار صادر ـ دار بيروت ـ سنة ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٦ م .

الفيروز أبادى (مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز ابادى) :
ـ القاموس المحيط .
طبع مؤسسة الحلبي وشركاه ـ القاهرة .

القالي (أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادى) :
ـ الأمالي .

طبع دار الفكر ــ بيروت.

ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة):
ــ تأويل مشكل القرآن.
شرح ونشر: السيد أحمد صقر ــ الطبعة الثانية ــ دار التراث ــ القاهرة.
ــ الشعر والشعراء.
طبعة مدينة ليدن سنة ١٩٠٢م.

القرطاجني (حازم القرطاجني):
ــ منهاج البلغاء وسراج الأدباء.
تحقيق محمد الحبيب بن الخوجه ــ دار الكتب الشرقية ــ تونس ١٩٦٦م.

القزويني (جلال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن إمام الدين القزويني الملقب بالخطيب):
ــ الإيضاح.
طبع مطبعة محمد علي صبيح وأولاده ــ مصر ــ واعتمدت أيضا على الإيضاح ضمن شروح التلخيص وأشرت إلى ذلك في الهامش.

قدامة بن جعفر (أبو الفرج قدامة بن جعفر):
ــ نقد الشعر.
تحقيق وتعليق د. محمد عبد المنعم خفاجي ــ الطبعة الأولى ــ سنة ١٣٩٩هـ ــ ١٩٧٩م.

ابن كثير (الإمام عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي):
ــ تفسير القرآن العظيم

ـ تفسير القرآن العظيم .
طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه .

كمال أبو ديب:
ـ جدلية الخفاء والتجلي (دراسات بنيوية في الشعر) .
الطبعة الأولى عام ١٩٧٩م ـ دار العلم للملايين .

د. لطفي عبد البديع:
ـ التركيب اللغوى للأدب .
الطبعة الأولى ـ مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٧٠م
ـ فلسفة المجاز بين البلاغة العربية والفكر الحديث .
نشر مكتبة النهضة المصرية ـ طبع بمطبعة السنة المحمدية .

المبرد (أبو العباس محمد بن زيد المعروف بالمبرد النحوى):
ـ الكامل في اللغة والأدب .
نشر مكتبة المعارف ـ بيروت .

متى بن يونس (أبو بشر متى بن يونس القناني):
ـ كتاب أرسطوطاليس في الشعر .

تحقيق ودراسة: د. شكرى عياد ـ دار الكتاب العربي ـ القاهرة ١٩٦٧م .

د. محمد حسين أبو موسى:
ـ البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشرى وأثرها في الدراسات البلاغية .
دار الفكر العربي ـ القاهرة .

ـ التصوير البياني (دراسة تحليلية لمسائل البيان)

الطبعة الثانية سنة ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م ـ دار التضامن للطباعة ـ القاهرة.

د. محمد زغلول سلام:
ـ ضياء الدين بن الأثير وجهوده في النقد.
نشر وطبع مكتبة نهضة مصر.

د. محمد زكي العشماوى:
ـ قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث.
دار النهضة العربية ـ بيروت ـ سنة ١٩٧٩م.

د. محمود السيد شيخون:
ـ الأسلوب الكنائي.
الطبعة الأولى سنة ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م ـ مكتبة الكليات الأزهرية.

المرتضى (الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوى العلوى):
ـ أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد).
تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار احياء الكتب العربية.
ـ عيسى البابي الحلبي، الطبعة الأولى سنة ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م.

المرزباني (أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني):
ـ الموشح (مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر).
تحقيق: علي محمد البجاوى ـ دار نهضة مصر سنة ١٩٦٥م.

د. مصطفى ناصف:
ـ الصورة الأدبية ـ دار مصر للطباعة.

ابن المعتز (عبد الله بن المعتز):

ــ كتاب البديع .
نشر وتعليق اغناطيوس كراتشقوفسكي ــ منشورات دار الحكمة ــ دمشق .

المغربي (ابن يعقوب المغربي) :
ــ مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفُتاح .
ضمن شروح التلخيص ــ مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر .

ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم الأنصارى) :
ــ لسان العرب .
طبعة مصورة عن طبعة بولاق ــ الدار المصرية للتأليف والترجمة .

د . مهدى صالح السامرائي :
ــ تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية .
الطبعة الأولى سنة ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧م ــ المكتب الإسلامي ــ دمشق .

الميداني (أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم الميداني) :
ــ مجمع الأمثال .
تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد . مطبعة السنة المحمدية سنة ١٣٧٤ هـ ــ ١٩٥٥م .

أبو نواس (الحسن بن هانئ) :
ــ ديوان أبي نواس .
تحقيق : أحمد عبد المجيد الغزالي ــ مطبعة مصر سنة ١٩٥٣م .

ابن هانئ (الحسن بن هانئ الأندلسي) :
ــ ديوان ابن هانئ الأندلسي ــ بيروت سنة ١٩٨٤هـ ــ ١٩٦٤م .

ابن يعيش (موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش النحوى) :
ــ شرح المفصل .
عالم الكتب ــ بيروت ــ مكتبة المتنبي ــ القاهرة .

فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**

مقدمــة ٣

الباب الأول :
التطور التاريخى لفكرة المبالغة ومصطلحاتها ٩
تمهيد : المعنى اللغوى للمبالغة ١٣
الفصل الأول :
استعمال المبالغة وتطور مصطلحاتها حتى نهاية
القرن الرابع الهجرى ١٧
بداية التسمية بلفظ (المبالغة) ١٧
المبالغة في نقد الجاهلية وصدر الإسلام ٢١
المبالغة في التأليف النقدية والبلاغة ٢٥
١ ــ المبالغة في بدايات التأليف النقدى والبلاغى ٢٥
٢ ــ عند قدامة بن جعفر ٢٩
٣ ــ عند الآمــدى ٣٤
٤ ــ عند الرمانــي ٤٠
٥ ــ عند ابن جني ٥٠
٦ ــ عند أبي هلال ٦٢
٧ ــ عند الباقلانى ٧٣
٨ ــ عند نقاد آخرين ٧٥

الفصل الثاني :

المبالغة ومصطلحاتها عند علماء القرن الخامس الهجرى ٨١
١ــ القاضي عبد الجبار ٨٣
٢ــ ابو منصور الثعالبي ٨٧
٣ــ الشريف المرتضى ٩١

٤ــ ابن رشيق القيرواني ٩٥
٥ــ ابن سنان الخفاجي ١٠٥
٦ــ عبد القاهر الجرجاني ١١٤
٧ــ الزمخشري ١٣٢

الفصل الثالث :

المبالغة عند المتأخرين ١٤٥
١ــ ابن الأثير ١٤٨
٢ــ مدرسة التلخيص وشروحه ١٥٣
٣ــ الامام العلوى ١٥٧

الباب الثاني :

أساليب المبالغة في البلاغة العربية ١٦٣

الفصل الأول :

المبالغة في علم البيان ١٦٧
١ــ المبالغة في التشبية ١٦٩
٢ــ المبالغة في الاستعارة ١٨٩
٣ــ المبالغة في الكناية ٢٠٣
معنى «أبلغ» فى قولهم : المجاز أبلغ من الحقيقة ٢٠٩

الفصل الثاني :

المبالغة في علم المعاني ٢٢١
١ــ المبالغة في الاطناب ٢٢٣
٢ــ المبالغة في القصر ٢٥٧

الفصل الثالث :

المبالغة في علم البديع ٢٦٣
١ ــ مبحث المبالغة وعلم البديع عند المتأخرين ٢٦٥
٢ ــ المبالغة في حسن التعليل ٢٧٣

٣ ــ تجاهل العارف ٢٨٢
٤ ــ تأكيد المدح بما يشبه الذم ٢٨٥

الباب الثالث :

مكانة المبالغة في البلاغة العربية ٢٨٩

الفصل الأول :

شيوع التعليل بالمبالغة وأسبابه ٢٩٥
١ ــ فكرة صياغة المعنى ٢٩٥
٢ ــ تحكيم العقل والواقع الخارجي في الأداء اللغوى ٣٠٩

الفصل الثاني :

المبالغة بين القبول والرفض ٣٢٧

الخاتمة ٣٥٣

فهرس المصادر والمراجع ٣٥٧

الواقع الخارجي ولغة العمل الأدبي

« . . . . وهـذا المعيـار ليس معيارا صادقاً للغة العمل الأدبي لاننا بهذا المعيـار ندين معظم ما جاء بهذه اللغـة التي تقـوم على إعـادة تشكيل الواقع الخارجي وإقامة الأشياء في وجود لغوي آخر تتجدد فيه العلاقات بينها ، من واقع منظور المبدع الذاتي ، وبكل ما يصاحبه من مشاعر وأحاسيس ورغبة ملحة من الانسان في اقتناص حقائق الأشياء . وتسجيل ذلك الفكر السيال المتدفق بكلمات اللغة التي تبقى بعد ذلك حاملة لتدفق ذلك الفكر ، ومتيحة لقارئها وسامعها بواسطة نشاطها أن يطوف معها في أجواء فكر الانسان من منطلق تقـديـره للكلمة ودورها ، وإيمانه بفاعليتها ونشاطها ، فإن كان مقدراً لذلك ومؤمنا به استطاعت الكلمة أن تحمله إلى ذلك الأفق الذي ولدت فيه

وإن كان الـواقـع هو حكمه ومعياره فقد ابتعد عن ذلك الأفق ورماه دبر أذنـه وحمله على التجـوز والتزيد والمبالغة والكذب كما هو واضح في تراثنا النقدي والبلاغي . »

دار الثقافة للطباعة